موقفنا ازاء الفلسفة

للدكتور جميل صليبا

تمهيد عام . موقفنا ازاء الفلسفة العربية القديمة
موقفنا ازاء الفلسفة الغربية . حاجتنا الى فلسفة
عربية متجددة .

— ج —

حاجتنا الى فلسفة عربية متجددة

١ ـ الفلسفة والحياة

زعم بعض اعداء الفلسفة(١) ان الانسان يستطيع ان يعيش عيشة طبيعية سعيدة من غير أن يتفلسف ، ولم يقفوا من مسائل الفلسفة على موضوع بعينه ، فمنهم من جعل ذلك كلاما فارغاً ، ومنهم من زعم أنه مضيعة للوقت ، وبعد عن الطبيعة .

ولسنا نريد الآن ان نعرف الفلسفة ، ولا ان نبين مبادئها وغاياتها ، فقد قال بعضهم : العلم رائد العقل ، والعقل رائد الفلسفة ، والفلسفة

(١) الجزء الثالث من موضوع « موقفنا ازاء الفلسفة » يراجع الجزءان في العددين الاول والثالث من السنة الثانية .

ترجمان الروح ، وقال آخر : حد الانسان الحي الناطق المتفلسف . وقالوا : الروح عماد البدن ، والعلم عماد الروح والفلسفة عماد العلم . ولكننا نريد ان نقول ان الانسان اذا قصر حياته على المأكول والملبوس ، وجعل همه الاشتغال بالامور الحسية والمنافع المادية دون غيرها لم يبلغ غايته . ان من شرط الانسان من حيث هو انسان أن يجمع بين طبيعتين احداهما مادية ، والاخرى روحية مثالية ، فاذا انقاد الى احدى هاتين الطبيعتين دون الاخرى لم يكن انساناً كاملاً .

والفلسفة اسم جامع لكل معنى كشف لك قناع الوجود ، وهتك الحجب دون الحقيقة . وهي والعلم شريكان ، ونعم العون هي له . وما أكثر ماتنظم حقائقه وتنفذ أصوله وتدفعه الى الامام في طريق التقدم .

فلو لم نقف من المعرفة الفلسفية الا على هذه الصفة لوجدناها كافية شافية بل لوجدناها فاضلة على الكفاية . ألا ترى ان الروح الفلسفية تعمل على إيقاظ الوعي ، وتنظيم الفكر والعمل ، فاذا لم يؤت الانسان منها شيئاً سار في طريقه على غير هدى ، وصار أشبه بالأنعام بل أضل سبيلاً .

وما اكتسب المرء مثل حكمة تهدي صاحبها الى الخير وترده عن الشر . وهذه الحكمة هي نهاية المعرفة العلمية من جهة ، ونتيجة المعرفة الفلسفية من جهة أخرى . وليس لهذا حد لان الخوض في الموضوعات الفلسفية ينمي العقل ، ويعين على ادراك الاشياء على ماهي عليه من حقائق المعنى . وفي فطرة الانسان ميل الى التعالي يحبب اليه العلم بحقائق الاشياء والذهاب الى ماوراء الحس ، حتى لقد قيل ان الانسان فيلسوف بالطبع . ومن العجب أنه يملأ الدنيا كلاماً وهو لايعلم انه يتفلسف كالذي يطبق في مشيته قوانين علم المكانيك وهو لايعرف منها شيئاً ، الا ترى أنه يميل الى الكلام على وجود الله ، وخلود النفس ، وحرية الاختيار ،

والجبر ، والخير ، والشر ، والسعادة ، والشقاء ؟ فهذه المعاني التي علقت بألفاظ اللغة وامتزجت بأحلام الناس وآمالهم يستعملها العوام من غير أن يفهموا كنهها والجاري على افواههم يدل على أنهم يحبون التفلسف الا انهم لايعلمون ذلك . الفيلسوف يتفلسف ويعلم انه يتفلسف ، أما الناس فيتفلسفون ولا يعلمون أنهم يتفلسفون ، والعجب أنهم يعتقدون ان الفيلسوف لايتكلم الا عن أشياء بعيدة عن الطبيعة ، وانه يصطنع لنفسه عالماً وهمياً يعيش فيه بمعزل عن الحياة . فاذا ذكرت لهم بعض المسائل الفلسفية بألفاظ الحياة لا بألفاظ الصناعة وجدوها قريبة من اذهانهم . ذلك ان الفلسفة أقرب الى الحياة من العلم النظري المجرد . فاذا عريت من رموزها واصطلاحاتها أخذت بمجامع القلب . وهذبت الذوق ، وأرضت العقل والقلب ، فكيف بها اذا كانت ضرورية لتنمية الوعي وتنظيم العمل، واصلاح الحياة الانسانية .

وليس يصح ان يقال ان الانسان لا يصير فيلسوفاً الا اذا صار عالماً بآراء الفلاسفة محيطاً بمذاهبهم ، فان الشرط الاول للتفلسف في نظرنا ان يعاني الانسان بنفسه بعض التجارب الفلسفية كسؤاله عن الخير والشر والسعادة والشقاء والموت والحياة ماهي ، او سؤاله عن الظواهر الحسية هل هي مطابقة للوجود الحقيقي ام هي حجب دون الحقيقة : ثم هل تتعلق هذه الظواهر بمبدأ كلي ينظمها، أم هي صور متفرقة متنافرة جمعها الاتفاق والبحث . ومن شروط هذه التجارب الفلسفية ان يدرك الانسان ذاته ، وان يعرف غايته من الحياة ، وان يحدد موقفه ازاء العوامل المحيطة به ، وان يملأ قلبه حباً ورحمته وان يحن الى الوجود ويتحد به . فهذه التجارب الفلسفية التي يعانيها الانسان في بعض ظروف حياته تجعل نفسه لطيفة وغايته شريفة ناهيك عن تأثيرها في سلوكه وعمله . والحق ان

الانسان لا يعرف قبلته في الحياة ، ولا يدرك مبدأه وغايته ، ولا يفهم كنه العوامل المحيطة به الا اذا عرف نفسه . ومعرفة النفس أساس الفلسفة ، كما أن مجاوزة الذات ، والاحاطة بالكل غايتها .

٢ — تعليم الفلسفة

لكني لا أريد الآن ان امضي بعيداً في بيان غاية الفلسفة . وليس في نيتي أن أفصل القول في موضوعها وطريقتها . انما اريد ان يعرف القارىء لها حقها فيما أدعيه لها من التأثير التربوي . الا ترى أنها اذا خامرت عقول التلاميذ كشفت عنهم غطاءهم وغيّرت نظرهم الى الحياة ، وبدلت سلوكهم وطريقة حكمهم على الاشياء ؟ فكم تلميذ شعر بعد تعلمه الفلسفة أن جميع مالقنه من العلوم لا يبدل تجربة واحدة من تجاربها الاصيلة . الأساس في ذلك كله ان يفهم التلميذ مايقال له، وأن يجربه بنفسه ويحاول النسج على منواله وان يحافظ على روحه الانتقادية وحريته الفكرية . فان من شروط تعليم الفلسفة ان لا يلزم الطالب بقبول مذهب معين يلقنه اياه استاذه ، وان لا يتوهم ان مايقوله هـــذا الفيلسوف او ذاك شبيه بالحقائق الرياضية التي لا ترد ، بل عليه ان يتعود نقد المذاهب الفلسفية على قدر طاقته ، حتى اذا ألف هذا النقد استطاع ان يختار من الآراء مايوافق طبيعته . وإذا كانت الثقـــافة الفلسفية مفضية الى التفكير الحر فمرد ذلك الى ان طريقة تدريسها مبنية على الحوار والمناقشة . وفي كل مناقشة فلسفيه أصل يرجع اليه ومعان يتفق على تعريفها ، فإذا وضحت هذه المعاني استطاع المتناظرون ان يتفاهموا في حب وأن يتعاونوا في سلام . ان اكثر الاختلافات الفكرية تنشأ عن غموض المعاني والتباس الألفاظ . فما يسميه بعض الناس ديمقراطية يسميه بعضهم الآخر فوضى وتميعاً ، مايسميه بعضهم عدلاً اجتماعياً يسميه بعضهم

ظلماً وعبودية . فمن الضروري إذن ان يبدأ معلم الفلسفة بتعويد طلابه الاتفاق على معاني الالفاظ قبل البدء بالمناقشة ، ومن الضروري ايضاً أن يرجع الى الاصل المتفق عليه في كل مرحلة من مراحل الحوار وسواء أكانت الفلسفة انتقادية أم وثوقية فان الصفة الاولى التي تمتاز بها حرصها على اثبات كل موقف من مواقف الفكر بالمقاييس العقلية ، بل الغرض الاول من تعليم الفلسفة تنظيم المعرفة وتنمية الفكر الحر المستقل عن الهوى وتقوية الوعي والشخصية وتعزيز الشعور بالمسؤولية الفكرية ومن شأن هذا كله ان يؤثر في اعداد المواطن للحياة الفاضلة في مجتمع ديمقراطي حر ، وان يوحد منازع الافراد وينظمها في عقد فكري واحد . واذا قيل ان الامور التي يخوض فيها الفلاسفه دخان هائم وسحاب مذعذع وان تفهمها يحتاج الى قدرة على التجريد لا تتوافر في صغار الشبان قلنا ان لأكثر المسائل الفلسفية أصولا علمية ، وأمثلة انسانية مشخصة ، فاذا جعل المدرس لكل فكرة مجردة مثالا حسياً استطاع ان يقرب أعوص المسائل من أذهان التلاميذ . واذا قيل إن تعليم الفلسفة في المدارس الثانوية ضار بعقول الشبان لما يفضي اليه في بعض الأحيان من الدعوة الى بعض الآراء والمذاهب المضادة لمنازع المجتمع قلنا ان هذا الامر كثيراً مايقع في تدريس المواد الاخرى كالتاريخ والآداب وغيرها . وأخوف مايخاف على التلاميذ ان يؤدي حذف تدريس الفلسفة من مناهج التعليم الثانوي الى تضييق عقولهم وتحديد حريتهم وتعويدهم التسرع في الحكم . والطريقة الوحيدة لاجتناب هذه المخاطر أن لا يعهد في تعليم الفلسفة إلا الى ذوي الكياسة من المدرسين الذين يراعون في تعليمهم طبائع التلاميذ وحاجات المجتمع ، وليس يصح أن نمنع تدريس الفلسفة لأسباب واهية كهذه ، فان اجتناب مخاطرها بالكياسة والمراقبة أحسن عاقبة من الغاء تدريسها . وكل تعليم فلسفي ينقلب الى

تبشير أو دعاوة فهو مقصر عن غايته ومتجه الى غير نهايته . وإذا كان مدرس الفلسفة كيساً كان متسامحاً ، ومعنى التسامح هنا اجتناب التعصب لبعض الآراء واحترام حرية الرأي . فما دام الوصول الى الحقيقة غاية الفلسفة فان مناقشة موضوعاتها يجب أن تتم في رحاب الحرية. الا ان الحرية شيء ، وفقدان الجد والمسؤولية شيء آخر . الحرية توجب على المدرس شرح جميع وجهات النظر في وزن واحد من الانسان ، أما فقدان الجد والمسؤوليـــة فيسوقه الى الفوضى أو التعصب . من شرط الحرية احترام عقائد التلاميذ والاتصاف بالتسامح واجتناب التعصب الضيق والحماسة الفارغة . وليس في عدم الشعور بالمسؤولية الا العبث والتسلط .

وكما ينبغي تعلم الفلسفة في المدارس فكذلك ينبغي نشر التفكير الفلسفي في المجتمع بوساطة الصحافة والاذاعة والمحاضرات والندوات العامـة . ويشترط لنشرها في المجتمع ان يجتنب الفيلسوف الاصطلاحات المجردة وان يخاطب الناس على قدر عقولهم بلغة واضحة سهلة مستمداً امثلته من الحياة والتجربة . والقاعدة هنا ان لا يسف الفيلسوف في اختيار امثلته وان لا يفقد رصانته واتزانه وتجرده واستقلاله ، وأن يكون رائداً فكرياً ومعلماً روحياً يعرف الناس بقضاياهم ويشرح لهم اسبابهـا وشروطها شرحاً مجرداً عن الهوى . ومتى انتشرت هذه الثقافة الفلسفية في المجتمع ادت الى ارتقاء المستوى العقلي وتوطيد حرية الرأي . وأي شيء أدعى الى ايقاظ الوعي الاجتماعي وتنمية التفاهم الانساني من قراءة كتب الفلاسفة الذين وقفوا حياتهم للحق . قد تختلف الثقافات القومية بعضها عن بعض. ولكن الفيلسوف الحق يحلل هذه الثقافات ونستخرج منها عاملاً انسانياً مشتركاً يقرب الناس بعضهم من بعض ، فكم صراع اعمى بين الآراء امكن بالحوار الفلسفي قلبه الى وفاق عقلي ، وكم اضطراب شديد في العواطف امكن بالتحليل العقلي

تبديله الى اطمئنان ، الفلسفة هي العلم الكلي ، وكل علم كلي فهو بحث في الحقائق المجردة ، والقيم الانسانية العالية .

وقصارى القول اننا ندعو الى تعليم الفلسفة في المدارس الثانوية والعالية على السواء لما لها من تأثير تربوي محقق في تنمية وعي الشبان وتوسيع مداركهم وتحرير عقولهم وتعويدهم أصالة الرأي والتسامح والبعد عن الهوى . وما أجدر البلاد العربية أن يكون القائمون على شؤونها التربوية أكثر ميلاً الى نشر الثقافة الفلسفية في المجتمع العربي الحديث ، فهي الوسيلة الوحيدة التي تعين على توضيح الفكر وتنظيمه وشفائه من البيغائية اللفظية وهي الدواء الواقي من تضييق العقل واضطراب القلب والعواطف . فاذا انتشرت هذه الثقافة الفلسفية في المجتمع تبدلت أساليب الأدب والفن وتهذب الذوق وصار الناس أحسن ادراكاً لذواتهم وادق علماً بمبادئهم واكثر احاطة بأهدافهم وغاياتهم .

٣ ـ نحو فلسفة عربية جديدة

وليس الغرض من تعليم الفلسفة ونشرها في المجتمع أن نقتصر على جناها التربوي ، بل الغرض الاول من ذلك في نظرنا اعداد الجيل الجديد للانتاج الفلسفي المبتكر . فربما كان ضعف هذا الانتاج ناشئاً عن شعورنا في هذه المرحلة في تطورنا بحاجتنا الى الاقتباس . اننا نستورد الافكار والآراء والمذاهب الاجنبية كما نستورد المنتوجات الصناعية ، ونعتقد أن مسؤوليتنا الفكرية توجب علينا الاقتصاد على ترجمة الفلاسفة الغربيين والتعريف بمذاهبهم . فمنا من ينسج على منوال الفلاسفة العقليين ، ومنا من ينسج على منوال الوضعيين أو الوجوديين أو الروحانيين ، فاذا شئنا ان نجاوز مرحلة التقليد والاتباع الى مرحلة الابتكار والأصالة والابداع وجب علينا ان نغمس أقلامنا في مداد الفكر الحر ، وأن

لانخاف على انفسنا من التحليق في فضاء العقل ونحن ، ولله الحمد ، لم نفقد ذكاء الطبع ولاجودة الحدس . ولئن مرت على عيوننا في عصور الانحطاط آثار وتجارب طويلة أفقدتنا ثقتنا بأنفسنا لقد كان لنا في أوج حضارتنا جولات فلسفية أصيلة ، وما علينا الآن الا أن نستعيد ثقتنا بالنور الالهي الذى وضعه الله في قلوبنا . ان شدة الخوف من الوقوع في الخطأ تعيد حرية العقل وتجعل نور القلب غاسقاً ، وتربط اجنحة الخيال بأثقال من رصاص وهذا الخوف من التحليق في فضاء الفكر شبيه بخوف الاطفال من الوقوع الى الارض فكما يستند الطفل الى الجدران في دروجه ومشيه كذلك نستند الى ماقاله الفلاسفة الغربيون في تفكيرنا وعملنا ، وما اكثر ما نرقع افكارنا بأقوال غيرنا كما نرقع دنيانا بآخرتنا . لقد أصبحنا نقلد الغربيين في كل شيء ، نقلدهم في الازياء وطراز البناء وقواعد السلوك وأساليب الحياة كما نقلدهم في الافكار والآراء والمذاهب وأخوف مانخاف على انفسنا ان يطول هذا التقليد ويفقدنا الشعور بأصالتنا . واحق من كان للتقليد مجانباً من ثبتت قدرته على الانتاج المبتكر لأنه قد يتفوق بابداعه الحر على كل مثال سابق . وليس للمبدع الاصيل غاية مقصودة يقف عندها ولانهاية محدودة يقنع بها لانه اذاوصل بالابداع الى ما أمّل ، اغراه ذلك بمباشرة ابداع جديد ، واذا لم يصل الى غايته رأى اضاعة العناء لوماً والصبر عليه حزماً وصار بما سلف من عنائه اقوى رجاء وأبسط املا . ونحن وان كنا نؤمن بقدرتنا على الانتاج المبتكر فاننا لاننكر ما للتقليد من أثر في الابداع ، لاننا نعلم ان المتأخر يحذو حذو المتقدم ويقتبس منه الكثير من العناصر التي يحتاج اليها في بحثه ولو احتاج كل مفكر جديد الى ابداع جميع العناصر التي ابدعها القدماء قبله لما سارت الحضارة الفكرية في طريق التقدم . وقد قال بعض الحكماء : اذا طلبت الابداع الاصيل

فاطلبه بمجاوزة الحدود التي وقف المتقدمون عندها . فمن عرف هذه الحدود القديمة استطاع ان يثب منها الى حدود اخرى جديدة ، ومن جهلها ظن انه يجيئك بأشياء مبتكرة وهو في حقيقة الامر لا يقول الا ماقاله غيره . ونحن نسأل الله ان يحسن الينا التوفيق فيما نقلد ، ويصرف عنا الرغبة في انتاج فكري سريع خال من الاصالة والابداع .

ونعود الان الى الكلام على حاجتنا الى فلسفة عربية متجددة فنقول : لا سبيل الى ايجاد هذه الفلسفة الا بمجاوزة المثال المقلد قديماً كان أو حديثاً . من شروط هذه الفلسفة ان تعبر عن منازع العقل العربي وحاجاته ، وان تعمل على اصلاح المجتمع العربي الحديث حتى يصبح كغيره من المجتمعات الغربية الراقية نداً ونظيراً . ومن شروطها ان تدفع الشخصية العربية الى التعالي حتى تجاوز ذاتها وتحيط بما حولها ومن شروطها اخيراً ان توضح المواقف الفكرية التي ينبغي للعرب التزامها في تنظيم شؤونهم الداخلية وعلاقاتهم الخارجية . وقد ينضم الى هذه الشروط شروط اخرى كاطلاق حرية الفكر ، والتوفيق بين حاجات القلب وحاجات العقل ، والتوحيد بين المنازع القومية والاهداف الانسانية . وليس غرضنا الآن ان نحصر هذه الشروط ، ولا ان نعدد مبادىء الفلسفة العربية المتجددة فان الحدود التي رسمناها لانفسنا في هذا المقال لا تتسع لمثل ذلك . ولكننا نريد ان نؤكد ان الايمان بقدرة العقل على استجلاء جميع الحقائق ، والايمان بوحدة الحقيقة ، والاعتماد على العلم والتجربة والقول بالتطور والتقدم ، والقول بحرية الاختيار كل ذلك من المبادىء الضرورية لكل فلسفة عربية متجددة .

لقد كان القدماء من علمائنا يعتقدون ان العقل الانساني لا يستطيع ان يحيط بجميع المطالب ولا أن يكشف الغطاء عن جميع المعضلات . وكان بعضهم

يعتقد ايضاً ان الحقيقة حقيقتان احداهما يقينية تتجلى للعلماء والاخرى مجازية أو رمزية يقتنع بها عامة الناس . وفي استمرار الأخذ بهذين المبدأين اخلاد الى الجمود وتوقف عن التقدم ، لان القول بعجز العقل عن استجلاء جميع الحقائق يقعد به عن التعالي ، ويفقدالثقة به ، ويبعث على التحرز من مخاطره . العقل نور الهي ، ومن ظن ان هـذا النور عاجز عن ادراك جميع المطالب فقـد ضيق رحمة الله الواسعة . وكذلك القول باختلاف الحقائق باختلاف مدركيها فهو مناقض لفكرة المساواة الانسانية ، لان هذه المساواة توجب اذاعة الحقائق في جميع الطبقات على السواء ومن حق كل انسان من حيث هو انسان ان يطلع على الحقيقة ، بـل من الواجب عليه ان ينشرها .

وليس في نيتي الان ان احصي هذه المبادىء كلها، فان ذلك كما قلت آنفاً يحتاج الى مجال آخر ، ولكنني اريد أن انبه الى أن هذه الفلسفة التي ادعو اليها لا تقف من الدين موقفاً سلبياً ، لانها لا تبحث الا عن حقيقة الوجود ، ولا تعمل الا على اصلاح الانسان ولا تعتمد الا على العقل والعلم . الا ترى ان الفيلسوف يستطيع ان يصوغ مادة العلم في قوالب العقل كما يصوغ الشاعر صور الطبيعة في قوالب الخيال . فلماذا نتسامح مع الشعراء الذين يهيمون في كل واد ، ولا نتسامح مـع الفلاسفة الذين يقيدون انفسهم بالمقاييس العقلية . اننا اذا أخذنا احلام الفلاسفة بالمسامحة والملاينة امكننـا ان نتغاضى عنهم كما نتغاضى عـن الشعراء . وما ضرنا لو جعلنـا حرية الفكر قاعدتنـا والتسامح مع الفلاسفة شعارنا ومبدأنا . الواقع اننـــا نخاف أن نثير حولنا موجة من السخط والاستنكار . وكثيراً مانجد مالا نشتهي ، ونشتهي مالا نجد ، تخيفنا حرية الفكر اكثر مما يرضينا الجمود . ونخاف على أنفسنا ان تقنع اكثر من خوفنا عليهـا ان

لا تقنع . ولكننا متى علمنا ان الابداع الفلسفي شبيه بالابداع الفني ، لا ينمو الاحيث تنمو حرية الفكر ادركنا ما لتقييد الافكار من اثر فاسد في تقدمنا العقلي . فلعلنا اذا انطلقت افكارنا من عقالها نستطيع ان نطلع على العالم بحكمة عربية جديدة تهذب قلوبنا وترفع نفوسنا الى العلاء ، وتوصلنا الى السعادة .

٤ – الخلاصة

ذلك مجمل رأيي في موقفنا ازاء الفلسفة خلاصته انني ادعو الى التعريف بفلسفتنا العربية القديمة واستهجن من المثقف ان يكون جاهلاً بتراثه الفلسفي . اما الفلسفة الغربية فانني ادعو الى ترجمة كتبها الاصلية وشرحها وتوضيحها، ولا استهجن من المثقفين الا ان يقفوا ازاءها موقفاً سلبياً . وما اجدر الامة العربية ان يكون المتشبثون باغنائها اكثر ميلا الى ترجمة الآثار الغربية ، وما اولاهم أن يكفوا عن التقليد المحض وان يبتدعوا مذاهب فلسفية جديدة توافق ميولنا ومنازعنا وتعبر عن أصالتنا .

واذا كان ازدهار الحضارة العالمية تابعاً لتعاون جميع الامم في ميدان الفكر كان اسهام العرب فيها واجباً قومياً وانسانياً . فلعلنا اذا اضفنا الى الفلسفات العالمية المعروفة مذاهب عربية متجددة نستطيع ان نضم الى مصباح الحضارة زيتاً جديداً وذبالة جديدة . عندئذ يثبت العالم العربي أنه قادر على مجاوزة ذاته بالابداع الفلسفي والابداع الفني والأدبي ، وعندئذ تتكامل طبيعة الحضارة وتتعاون جميع الامم على شق طريق المستقبل لعالم أفضل .

L'INTERFERON الدفاعي

- الطب على عتبة أكبر ثورة في تطوره منذ اكتشاف البنسلين.
- الامراض التي تحدثها الحمات الراشحة منذ الزكام فالجدري فالحمى الصفراء تبقى بلا علاج!
- الاستاذ ادمون براميلون يطلعنا على المعركة العالمية التي قادها ابطال الدفاعي.

بقلم الدكتور عزة الطباع

في يوم غائم (وهو يوم عيد الميلاد ١٩٦١) هبط في مطار لندن مسافر باكستاني مصاب بالجدري. فهبت السلطات الصحية الى واجبها وعممت التلقيح ضد الجدري تلقيحاً جماعياً، وشرعت المعامل الدوائيــة تصنع اللقاح بكميات هائلة.

والطب يعلم ان تلقيحاً جماعيـاً يجري على هذا النحو السريع لابد أن ترافقه بعض الاختلاطات البسيطة المعروفة.

الا أن أطباء العيون يعلمون أن عدداً ضئيلا من الملقحين تلتهب عيونهم بعد التلقيح ضد الجدري أو بعد اتصالهم بالملقحين ، فاذا لم يصل الالتهاب الى قرنية العين كان الشفاء مستطاعاً بتقطير شيء من مصل دم انسان ممنع ضد الجدري . والجوهر الفعال في المصل الممنع ضد حمات الجدري يسمى كيماوياً (غاما كلوبولين Cammaglobuline) (وهو من مصل الدم الجزء الذي يحمل مضاد الجسيات) .

أما اذا بلغ الالتهاب قرنية العين وقرحها فان هذا الدواء حينئذ يعجز عن ايقاف التقرح المستمر المتسع ، ويقف الطب مشاولا ينتظر أن يصل التقرح الى غايته الحتمية وهي العمى .

ولا يستطيع أطباء العيون أمام هذا الخطر الذي يصيب بعض الناس أن يحولوا دون استمرار الوقاية الجماعية للشعب كله من خطر أشد وأدهى على الحياة وعلى العيون وهو الجدري نفسه الذي يلف بوبائه جميع الناس غير الملقحين . ولكن الجهود ظلت تبذل ، لاسيما في انكلترا منذ خمس سنوات ، لتجربة جوهر غامض يختص بأن له عملا نشيطاً ضد الحمات الراشحة (والجدري مرض من الأمراض العديدة التي تحدثها هذه الحمات (جمع حمة) فيروس Virus .

وإسم هذا الجوهر يكاد أن يكون مجهولا عند الملأ الجم من الاطباء بعد ، وهو الدخيلي (وزان طفيلي) كما بدا لنا أن نترجم كلمة Interferon ويجمع على (دخيليات) .

وهذه المادة هي بروتئين تنتجه الخلايا نفسها حين تتعرض لبعض الظروف (خاصة حين تتعرض مثلا لغزو من (الحمات الراشحة) وتنتج الخلايا هذا البروتئين ليكون من حولها مانعاً للحمات الراشحة من أن تتكاثر وتتطور .

في سنة ١٩٥٧ اكتشف هذا البروتئين وعزل كمادة منفردة ، وذلك في لندن من قبل الدكتورين آليك اسحاق ، وجان لندمان ، وتبين أن لهذا العامل الجديد الذي يتربص (بالحمات الراشحة) مزايا باهرة : فقـــد بينت الدراسات المستمرة حتى الآن انه يختلف عن مضادات الجسيمات المعروفة من أن فعاليته لا تنحصر فقط في مكافحة الحمات الراشحة التي سببت خلقـه لاول مرة بل تشمل هذه الفعالية اغلب الفيروسات (الحمات الراشحة) .

واكثر من ذلك فقد تبين أن مفعوله لايتغير في جميع أفراد النوع الحيواني الواحد ، وأنه مهما كان نوع الفيروس (الحمة الراشحة) الذي سبب وجوده فانه يبقى فعالاً ضد الأغاب الاعم من انواع الفيروس (الحمات الراشحة) .

وعلى الرغم من أن هـذه الفعـالية التي يتصف بها (الدخيلي) تضعف بانتقالها من نوع حيواني الى نوع حيواني آخر ، فانها تبقى قادرة رغم هذا الانتقال على أن تحد من تكاثر ونشاط (الحمات الراشحة) في خلايا النوع الحيواني الجديد .

وعلى الرغم من أن الدخيلي هو مادة بروتوئينية [من المفروض ان تحدث اذا نقلت بالزرق من نوع حيواني الى نوع آخر صدمة مختلفة الشدة] ، فان هذا الدخيلي البروتوئيني براء من هذه الجريرة ، فهو اذا دخل غريباً الى نوع حيواني غير النوع الذي تربى فيه فانه لايحدث أي عرض من الاعراض المؤذية ولا يحرض الجسم الضعيف على أن يخلق ضده مايسمونه بمضادات الجسيمات التي تشل فعاليته .

ومع كل هذه الخصائص الاخاذة التي ظهرت للدخيلي عند تجربته تحت المجهر ؟ وفي الحيوانات المخبرية ، فقـــد كان لا بد من أن تنقضي سنوات أخرى لتجربته على الانسان كعلاج دوائي .

ولقد شرع في هذا حين رغب فريق من أطباء العيون في مكافحة التهاب القرنية اللقاحي الذي ذكرناه فكان ذلك أول مساهمة في تجربة هذا العامل الجديد على الانسان.

فمنذ سنوات قليلة أمرت المؤسسة الوطنية للتحريات الطبية أمرها فخلقت (اللجنة العلمية للدخيلي) وجعلت لها رئيساً الدكتور «آليك اسحاق» نفسه وأناطت باللجنة متابعة كل التحريات عن الدخيلي.

وبعد أن نسقت هذه اللجنة منهاجها مع المؤسسة العينية في جامعة لندن ومع مستشفى العيون (مورفلدس) طلبت الى معامل (ولكام) ان تنتج وتدخر كميات معينة من الدخيلي لتجربته في معالجة حالات تقرحات القرنية اللقاحية التي كانت في متناولهم.

وكلفت اللجنة أطباء العيون «باري جونس» و«كالبرت» وخلف الحسيني بأن يسهروا على تسجيل ادق التفاصيل عن نتائج المعالجة.

وفي سنة ١٩٦٠ ادت اولى هذه التجارب على أيدي البـاحثين «توميلا» و«كانتيل» الى الاعتقاد الراسخ بجدوى هذه المعالجة. فقد استطاعت تجوبتها ان تحول دون اصابة عين الارنب بالتهاب القرنية اللقاحي وذلك بزرقها تحت غشاء العين المنضم كمية من الدخيلي بعد تعريض العين لحمة اللقاح ضد الجدري واستطاعا أيضاً بعد ذلك أن يحددا الكمية اللازمة للعلاج وهي، قطرة واحدة كل نصف ساعة. ماعدا ساعات النوم.

وبعد هذا أقدما على تطبيق العلاج على عين الانسان. وذلك بأن طبقاه على متطوع أصيبت عينه بورم خبيث وقرر الاطباء اقتلاعها وكانت قرنيتها وماتحتها ماتزال سليمة. فراح الاطباء يقطرون له كل نصف ساعة قطرة واحدة خلال

يومين . ثم قلعت عين المريض كما كان مقرراً ، وفحصت خـــلايا منضمة العين ، وأثبت الفحص انها بقيت طبيعية لم يؤذها المقدار من العلاج .

وبعد أن تأكد الاطباء الباحثون من فعول العلاج ومقداره ، قرروا تطبيقه على المرضى . وكان أول مريض : فتاة في السابعة من عمرهـا لقحت ضد الجدري في الخامس من شباط عام ١٩٦٢ وتقرحت قرنيتها في التـــاسع منه ، واستفحلت القرحة رغم كل العلاج . وفي العشرين من الشهر نفسه ابتدىء بمعالجتها بالدخيلي .

وتوارد على الباحثين خمسة آخرون مصابون بتقرح القرنية اللقاحي ، وطبق عليهم العلاج الجديد بمعدل قطرة كل نصف ساعة .

كانت نتائج علاج هؤلاء المرضى الستة سريعة وباهرة . ففي أربع ساعات فقط تراجعت القرحة عند المريضة الاولى ذات السبع سنوات الى نصف ما كانت عليه . وكان شفاؤها تاماً في اليوم التالي وشفي المرضى الخمسة الذين حضروا بعدها في خـــلال يومين اثنين شفاء تاماً إلا حالة واحدة اقتضى علاجها اسبوعاً كاملاً .

وتتابعت الحوادث تؤكد كل يوم نجاح هذا العلاج ، حتى في الحالات التي قارب التقرح فيها درجة العمى النهائي ، فقد شفيت كلها بالدخيلي ، وارتد البصر الى اصحابها .

فهل نستطيع اذن ان نقول اننا على عتبة عصر تاريخي في معالجة امراض الحمات الراشحة (فيروس) ؟ ان التجارب الناجحة التي مر ذكرها (رغم قلة عددها) ، والطريقة التي تمت بها هذه التجارب تفتح امام الطب مجالات وآمالا لايشك ابداً بقرب تحقيقها .

اننا حتى يومنا هذا لانملك امام غزوات (الفيروس) الحمات الراشحة إلا أن نلجـــأ (أمام بعضها فقط) للتلقيح الذي يجعل الجسم يهيىء للعدو القادم الضد المسمى (مضادالجسيات) ، أو أن نعالجه بالمصول الواقية التي نستخرجها من الحيوانات الملقحة بنفس اللقاح .

ولكننا حتى بهذا التلقيح لانكون آمنين إلا من غزو عدو واحد من هذه الفيروسات ، وهو العـــدو الذي لقحنا أنفسنا ضده ، ومن غير الممكن أن نلقح انسانا بجميع أنواع اللقاحات الموجودة حتى اليوم ، حتى ولو فرضنا أن ذلك كان ممكناً فاذا نفعل حيال سائر امراض (الفيروس) الحمات الراشحة التي لالقاح ضدها حتى الآن ؟؟

هنا ينتصب الدواء العتيد (الدخيلي) الذي يبدو للوهلة الاولى أنه السلاح المثالي ، السلاح السري ، الذي نستطيع بواسطته أن نصد - بدون أي خطر - الاغلب الاعم من غزوات كل أنواع الحمات الراشحة ابتداء بالزكام وانتهاء بالحمى الصفراء ، وشلل الاطفال .

ذلك لأن الدخيلي (على عكس مضادات الجسيمات التي يخلقها التلقيح في الجسم) لا يصد غزوة الفيروس الذي سبب وجوده فحسب ، بل أنه سيكون العدو الشامل لاغلب انواع الفيروسات ان لم يكن لها كلها .

ان أول اشارة الى احتمال وجود هذا العلاج الحيوي جاءت سنة ١٩٣٧ على يدي الدكتورين البريطانيين (Fiendly) فايندلي وماك كالوم (Mac . Callum) اللذين لاحظا اثناء تجاربهما ان القرود التي لقحاها بالفيروس « رفت فالي » (Rift - Valley) . (وهو فيروس اكتشفاه في منخفض ارضي في كينيا وسمياه باسمه لايحدث الا التهاباً دماغياً سليم العاقبة) ظلت تعيش عيشها الطبيعي حين لقحاها بعده بشيء من فيروس الحمى الصفراء . ولم يستطيعا ان يعزوا هذه المناعة المستغربة الى مضادات الجسيمات التي خلقها فيروس « رفت فالي » في القرود ، ذلك لان مضاد الجسم الذي يحدثه هذا الفيروس لايفعل الا ضد جسيم الفيروس نفسه . وشبه لهما الامر على أن وجود الفيروس الاول (رفت فالي) في الجسم قد شل فعل الفيروس الذي وغل عليه بعد ، وسميا هذه الحادثة التداخل الفيروسي (Interference Virale) دون ان يعرفا كنه وميكانيكية هذا التداخل .

وظل الامر على غموضه حتى قبل أيامنا هذه بقليل ، حين لاحظ اطباء مكسيكيون ظاهرة تلفت النظر اثناء قيامهم بتلقيح الجماهير باللقاح المضاد لشلل الاطفال .

ان من طبيعة هذا اللقاح (لقاح الدكتور سابين) الذي يعطى بالفم أن يحدث عند

الاطفال الذين لقحوا به تعفناً معويا سهلا ، ويدل حدوث هذا التعفن على أن اللقاح قد بلغ غايته وأخذ يحرض الجسم على انتاج مضادات جنيم شلل الاطفال .

ولكن هؤلاء الاطباء لاحظوا ان عدداً من الاطفال لايصابون بهذا التعفن المعوي البسيط إثر تلقيحهم) أي أن الحمات الحية ، المضعفة ، الموجودة في اللقاح ، لم تقم بواجبها من تحريض الجسم على انتاج المضادالمطلوب . ولما فحصوا محتويات أمعاء هؤلاء الاطفال تبين لهم أن هذهالامعاء تخبيء فيروسا معويا غير ضار ، هو الذي حال بتداخله دون فعالية وأخصاب فيروس لقاح شلل الاطفال .

وهنا نجد تفسيراً للحقيقة الواقعة التي يعلمها الطب ، وهي (أن مرض شلل الاطفال يندر أن ينتشر في البلدان المتخلفة أشد التخلف في المستوى الصحي ، إذ أن اطفال هذه البلدان يحملون في امعائهم من الفيروسات غير الضارة مايمنع بتداخله أذى الفيروس الضار الذي يدخل واغلاعليها).

وقد فتحت حادثة التداخل الفيروسي هذه السبيل الى بحوث مستمرة على البيض والفراخ حتى انتهى الامر بتلك البحوث الى تقرير الظاهرة العامة الآتية (ان وجود غزو من قبل فيروس ما يمنع حدوث أي غزو من قبل أي فيروس آخر) .

بل ثبت لدى الباحثين شيء اكثر اثارة وهو أن الفيروس الاول يقوم بتداخله هذا ضد الفيروسات الاخرى مها كان هو مجرداً من سطوته : سواء بالحرارة أو بالاشعة فوق البنفسجية ، ولكن كل هذه البحوث والتجارب التي استمرت منذ سنة ١٩٣٧ ظلت تزيد في الحجب التي تغلف سر منشأ هذا التداخل وميكانيكية عمله حتى كانت سنة ١٩٥٧ حيث وضع العالمان(آليك اسحاق Alick . Issac) وجان ليندمان J. Lindmann) الاصبع على حقيقة هذا السر المحجب وكشفا عن العامل المسؤول الذي يقوم بالفعل المضاد للفيروس (Action Antivirale) .

لقد زرع هذان الباحثان شيئاً من الخلايا الحية في وسط صالح للزرع ، ثم عالجا هذه المزرعة بفيروس المرض المعروف ، بالكريب ، بعد أن قتل نشاطه

وبعد عدة ساعات سحبا من المزرعة الخلايا التي عولجت بالفيروس فتبين لهما ان الوسط الزرعي الذي رفعت منه الخلايا المعالجة قد اكتسب خصائص مثيرة .

فهو اذا خلط بخلايا غضة اصبحت هذه الخلايا منيعة على عدد كبير من الفيروسات فلا تنال منها منالا .

ووضح تماماً أن الخلايا الاولى التي زرعت وعولجت قد أطلقت في الوسط الذي زرعت وعولجت فيه ذلك العامل الفعال ضد انواع الفيروس ، وانطلاقا من هذه النقطة توصل العالمان سريعا الى تحرير وافراد هذا الجوهر الثمين ومعرفة تركيبه الكيماوي .

هوية الدخيل : هو بروتوئين يقرب جداً في حجمه ووزنه الذري من مادة (الهموغلوبين) المعروفة بأنها خضاب الكريات الحمر في الدم .

ولما كان هذا البروتوئين هو المسؤول عن حادثة التداخل الفيروسي (Interference) فقد اختار له العالمان اسما مشتقاً من الداخل فسمياه أنترفرون (Inter Feron) .

وانصرف الدكتور اسحاق ومعاونوه الى ضبط بطاقة الهوية لوليدهم الجديد : فكانت البطاقة كما يلي :

الوزن الذري: ٦٣٫٠٠٠ فهو قريب من ٦٣٫٨٠٠ الوزن الذري للهوموغلوبين .

الحجم : ذرته في ابعادها اصغر بمراحل من الفيروس الذي سبب وجودها واكبر من مضاد الجسيم الخاص بذلك الفيروس .

الخصائص الطبيعية : يبقى في درجة حرارة (٢٠) عدة اسابيع ثابتاً لايتغير ، وتقف فعاليته اذا عرض لحرارة (٦٠) سنتغراد مدة ساعة واحدة أو

لحرارة (١٠٠) سنتغراد لمدة خمس دقائق . واذا جفف وبرد أمكن حفظه شهوراً طويلة في براد معتاد . وهو يظهر على غشاء الخلية بعد ثلاث ساعات من امتصاص الفيروس ، ويتم انطلاقه من غشاء الخلية الحية في مدة تتراوح بين يوم وأربعة ايام .

واذا كان الدخيلي يولد (كمضاد الجسيم) بسبب غزو فيروس ما فانهما بعد ذلك يختلفان في اكثر الخصائص ، ولاسيما في طبيعة عمل كل منها .

فالدخيلي يشمل في كفاحه اعم انواع الفيروسات لايفرق بين واحد منها بينما لايفعل مضاد الجسيم الا في جسيم الفيروس الذي حرض على وجوده .

احتمال الجسم للعلاج الجديد : ويحتمل الجسم هذا الدخيلي البروتيني احتمالاً عجيباً حتى ولو كان قد ربي واستخرج في نوع حيواني آخر غير الانسان، فالجسم الانساني لايهب لطرده كما يفعل عادة ضد البروتيئينات الغريبه . ولعل سبب ذلك أن يكون في أن بنيته الذرية تبقى كما هي في أي نوع من الانواع الحيوانية ولد .

وقبول الجسيم لهذا العلاج على هذه الصورة لايدع هنالك احتمالاً لحدوث مناعة في الجسم ضد العلاج بعد تكرر استعماله .

اسئلة وتفاسير وآراء قديمة : لقد دفع اكتشاف اسحاق ولندمان علماء الغريزة الى ان يطرحوا مجدداً مسألة دفاع الجسم ضد امراض الحمات الراشحة (الفيروس) .

فلقد كان المعتقد حتى الآن ان السلاح الوحيد الذي تملكه طبيعة الجسم الحيواني لصد امراض الفيروسات هو ماتهيئه الجسم من مضادات لهذه الجسيمات أي Anticorps إلا أنه تبين الآن أن للدخيلي قسطاً كبيراً في هذا الصراع .

فالى أي مدى يصح هذا الزعم الجديد ؟ وبأي صورة يتم تداخل هذا الدخيلي البروتوئيني الذي لم يكن معروفاً حتى امس القريب ؟

ان كثيراً من الاطباء يرتابون الآن في ان يكون لدى الجسم العضوي دفاع ضد الغزو الفيروسي سوى خطوط الدفاع التي تؤلفها مضادات الجسيات . وحجتهم في هذا الزعم ما يلاحظ في المرض النادر المسمى نقص الغاماغلوبولين في الدم (Hypergammaglobuline) .

فلقد ظل المصابون بهذا المرض الى قبل عشرين سنة يموتون من الالتهابات الجرثومية التي يتعرضون لها ، وذلك بسبب عدم وجود مضادات الاجسام في دمائهم إذ أن مادة الغاماكلوبولين التي نقصت هي التي تصنع تلك الاضداد . فلما ظهر البنسلين وعائلته حمى هؤلاء المرضى من مصيرهم الذي كان محتوما اذا تعرضوا للالتهابات الجرثومية .

واعتبر الاطباء المذكورون هذه الظاهرة حجة تؤيد زعمهم . ولكن اذا وافقنا هؤلاء الاطباء على أن مضادات الجسيات هي السلاح الوحيد بيد الطبيعة العضوية لصد الجراثيم والحمات الراشحة فلقد كان يجب (بحسب هذا الزعم) أن يموت اولئك المرضى من تعرضهم لأمراض الحمات الراشحة (التي لايفعل البنسلين وعائلته شيئاً حيالها) . ولكن الواقع الثابت هو أن اجسام هؤلاء المصابين كانت تقف حيال غزوات الحمات الراشحة كما تقف الاجسام الطبيعية التي لم تصب بنقص الغاماكلوبولين في الدم ، وما يزال هؤلاء المرضى يشفون من امراض الحمات الراشحة ، كما يشفى غيرهم على السواء . وما دامت اجسامهم لاتحمل مضادات الجسيات (لاصابتهم بالمرض المذكور) ، فان الذي حمل ولا شك لواء صراعهم مع الحمات الراشحة هو عامل آخر ، أي أن آلية اخرى دخلت ساحة العمل لوقايتهم .

بعـــد اكتشاف (الدخيلي) أصبح للطب ملء الحق بان يعتبره العامل المسؤول عن ذلك الدفاع والذي كان مجهولا حتى الآن .

فهناك في الجسم العضوي اذن خطان للدفاع هما (مضادات الجسيات) التي يصنعها الغاماغلوبولين و (الدخيلي) الذي تصنعه الخلية ، فكيف يتم تنسيق العمل بين هذين الخطين الدفاعيين ؟

ان الدكتور اسحاق يصل بتفكيره الى انمضادات الجسياتيهيؤها الجسم بصورة بطيئة لاتكتمل الا حين شفاء المريض او بعـد شفائه فهي اذن تهيأ لصد عودة محتملة للمرض .

ولاثبات ذلك قـام بمعونة الدكتورة (ج . هتشكوك) (Grisella Hitchcock) بانشاق فئران المختبر كميات من فيروس (مرض الكريب) حتى أحدث عندها ذات الرئة الفيروسية .

وأخذا يلاحظان يوماً فيوماً تطور الفيروس في رئات الفئران ، ويقيسان انتاج مضادات الجسيمات في الدم والرئة ويقيسان ظهور الدخيلي في الرئة .

فأثبتت هذه الملاحظات التجريبية جميعها أن معدل الفيروس داخل الرئة يرتفع سريعاً حتى يبلغ أقصى صولته في اليوم الثالث ثم يبدأ بعد ذلك بالهبوط .

وثبت ان معدل (الدخيلي) يساير في خطه خط الفيروس تماماً ، يزداد ويهبط معه بنفس القوة وبنفس الزمن .

أما مضادات الجسيم فلم تظهر للبحث والتحري في الدم وفي الرئة الا في اليوم الثاني عشر وهكذا يثبت أن الفيروس الغازي يرجع عن صولته ويتراجع حين لايكون قد تشكل في الجسم مضادات الجسيم أي حين لم يكن في الدم والرئة الا (الدخيلي) وحده وبأقصى درجة ارتفاعه .

وكما يصل المشاة في الحروب الحديثة الاستيلاء على الارض التي طهرتها واحتلتها نيران المدفعية والطائرات وفرق المدرعات ، تصل مضادات الجسيمات حينما يكون (الدخيلي) قد تداخل في اللحظة الحـاسمة وفي المكان اللازم ، وقام بالقسط الاكبر ان لم يكن بكل مايجب لانهاء الخطر .

الدخيلي يجعل الدار لاتصلح لسكن الواغل : لقد بدا لنا الآن أن مضادات الجسيم لاتجدي ، أو أنهـا على الاقل تتأخر عن الجدوى في صد أولى هجمات الانتانات الفروسية ، وبانتظار أن يحين جدواها تقع مسؤولية الاحاطة بالانتان على عاتق الدخيلي وحده .

ودور الدخيلي في هذا ليس ايجابياً ، انه لا يطرد الغزاة الواغلين ،ولكن يجعل الدار التي وغلوا عليها لاتصلح لهم ولا لعيشهم ولا لذراريهم .

فالخلايا المعالجة بالدخيلي تستقبل الفيروس الواغل طبيعياً ، ولكن هذا البروتوئين الجديد (الدخيلي) يخلق بعد ذلك وفي داخل الخلية جواً وظروفاً لا يقوى على التكاثر في ظلها أي فيروس كان .

غير أن آلية هذا الدفاع السلبي ، مازال وراء كثير من الحجب . وبينما كان العالم اسحاق مأخوذا بترجيح فكرة أن الدخيلي يحدث تغيراً في اسلوب الاستقلاب(١) داخل الخلية ، وحائراً لا يهتدي الى منطلق تجريبي يعينه على تأييد هذا الترجيح ، لاحظ ذات يوم بمحض المصادفة أن عدداً من مستحضراته الخلوية التي عالجها بالدخيلي تنتج ، حامض اللبن (Acid Lactique) بأسرع مما تنتجه الخلايا غير المعالجة .

ونعلم ان حامض اللبن ينشط في الخلية ، وفي أول دور استقلاب سكر العنب فيها (الغلوكوز) اي في دور (التحلل الغلوكوزي) .

وان نشاط وسرعة هذا التحلل الغلوكوزي بتأثير الدخيلي يقلقل ويحرف ادوار استقلاب الغلوكوز ، وينتهي ذلك بنقص ملحوظ في انتاج مادة حامض الآدينوزن مثلث الفوسفور Acid. Adenosine Triphosp-horique **ونختصره بـ (ATD) هذه المادة التي منها تنطلق الطاقة الضرورية لحياة الخلية نفسها ، والتي لابد منها في نفس الوقت لتكاثر الفيروس .**

---

(١) الاستقلاب (Metabolism) هي مجموعة التبدلات الكيماوية التي تتم في الجسم الحيواني ، وبهذه التبدلات الكيماوية ينقلب الوارد الغذائي والوارد التنفسي الى مواد كيماوية ، بعضها تستخدمه الخلية الحية لاستدامة حياتها ونشاطها ، وبعضها يعتبره الجسم نفاية فيطرحه ، الى المطارح الطبيعية ، كالبول والبراز ، والزفير والتعرق .

اذن فالدخيلي يجعل حياة الفيروس في الخلية غير ممكنة بانقاصه موقتاً الطاقة الحياتية التي لايتم للفيروس عيش أو أخصاب بدونها .

على السرطان : ولقد أيد الدكتور اسحاق هذه النظرية التجريبية بتجربة اخرى غير مباشرة :

لقد كان يتحرى تأثير الدخيلي على الخلايا السرطانية المطعمة بنوع من الفيروس ، فعالجها بمقادير من هذا العلاج تكفي عادة لايقاف الفيروس عن العيش والتكاثر في الخلايا السليمة .

الا ان الذي حدث هو أن هذه المقادير من الدخيلي فقدت مفعولها هذا في الخلايا السرطانية وبقي الفيروس قادراً على العيش والتكاثر في هذه الخلايا كأنها لم تعالج بشيء .

وايضاح مغزى هذه الظاهرة هو كما يلي :

ان الخلايا السرطانية تنفرد عن سائر الخلايا بأنها تؤمن حاجتها من المادة المولدة للطاقة الحياتية (A.T.D) بطرق غير طرق التحلل الغلوكوزي الذي تسلكه الخلايا السليمة في الاستقلاب ، ولهذا فان الدخيلي الذي يشل عادة انتاج هذه المادة يبقى هنا عاجزاً عن عمله .

وقال الدكتور اسحاق اذا صح هذا ترتب عليه أن يعجز الدخيلي عن العمل في الخلايا الحية الاخرى التي لايتم فيها الاستقلاب بالطريقة العامة المعهودة كخلايا الرشيم مثلا (الرشيم هو الجنين حين يكون مضغة غير مخلقة بعد .)

واسرع الدكتور (بارون Baron) لاجراء تجارب يتحققان بواسطتها من هذا الزعم .

وقبل أن يشرع هذان العالمان بتجربتها ناقشا اسباب الحادثة الطبية الآتية :

حينما تصاب والدة حامل بمرض الحصبة ، قبل الشهر الرابع من حملها فأنها حين تضع تلد وليداً مصاباً بآفات خطرة .

أفلا يدل هذا على أن الدخيلي الذي أنتجته خلايا الأم المحصوبة ليكافح فيروس الحصبة ، لم يحم ولم يق الرشيم من أذى الفيروس الجائل في دمه ودم أمه ؟ ثم اليس معنى هذا أن خلايا الرشيم التي تؤمن مادة طاقتها الحيائية (A.T.D) عن غير طرق الاستقلاب المعهود في الخلايا عامة ، لم تفتقد هذه المادة برغم وجود الدخيلي في الخلية وذلك بسبب أن هذه المادة تصلها عن طريق آخر لا يستطيع الدخيلي أن يعرقله .

وبعد تسجيل هذا شرع العالمان بتجارب عملية تؤيد ما أدى اليه الاستقراء فزرقا رشيمات الدجاج في البيضة بمادة الدخيلي .

وظهر لهما أن الرشيم الذي لم يبلغ بعد ثلث مرحلة تطوره لا ينفعل بزرق الدخيلي اطلاقاً . أما بعد ذلك أي في الثلثين الاخيرين من مرحلة التطور في الدخيلي المزروق يحدث مفعوله المعهود في الخلايا الرشيمية ، ويزداد هذا المفعول متناسباً مع اضطراد نمو الرشيم .

وهكذا سارت التجارب بكل دقة وثبت أن خلايا رشيم الدجاج البالغ من العمر ستة أيام والتي لوثت بفيروس الكريب لم تتأثر بزرق الدخيلي ، وظل الفيروس يعمل فيها عمله .

أما خلايا رشيم الدجاج التي تجاوزت اليوم الثاني من عمرها فقد تحسست بزرق الدخيلي تحسساً ازداد مع اضطراب نموها ، واخذ الفيروس فيها ينكمش عن نشاطه وتكاثره .

وهكذا أخذ الدخيلي الذي لم يكد ينشق عنه المجهول ينسل سريعاً من

غياهب الغموض ، ووضحت آلية عمله ضد الفيروس ، ولكن لابد من التساؤل عما اذا كان دور الدخيلي في صميم البنيـة وحرم الخلية ينحصر فقط في وقاية الانسجة العضوية من أول هجوم تشنه حمة راشحة ، وبتعبير آخر لا بد أن نسأل عما اذا كانت الحمات الراشحة هي الوحيدة التي تسبب بهجومها انطلاق الخلايا الى صنع الدخيلي ؟

وللبحث في هذا انطلق العالم اسحاق مع العالمين (بارون) و (وانطوني آليزون A. Allison) لاجراء تجربة رئيسية .

لقد رفع هذا العالم من خلايا غير ملوثة بالفيروس شيئاً من مادة الحامض النواتي Acide Nucleique وعالج به محضراً خلوياً آخر وأكثر من عدد مستحضرات هذه التجربة . فتبين له أن عدداً من هذه المستحضرات المعالجة بالحامض النواتي المذكور قد اكتسبت مقاومة ضد غزو الحمات الراشحة ، وبالرغم من أن هذه المقاومة لم تكن عنيفة ، الا أنها فيما يبدو تدل على أن حامضاً نواتياً غريباً وغير فيروسي قادراً على أن يبعث في الخلية الجديدة التي يخالطها قدرة على انتاج الدخيلي فتنتجه .

وذهبت بهذه الملاحظة بعيداً . فالحوامض النواتيـــة بشقيها (Acid . Désoxyribonucléique او Ribonucléique) هي (في الخلية) العناصر التي تنقل من جيل الى جيل آخر محاضر التخلق الوراثي (. Informations génétiques) مؤمنة بذلك انجـــاز التوارث ، اذن فالدخيلي ليس في الحق الا حوامض نواتية تحميها في محيطها طبقة بروتينية ، وأوحى هذا الى العالم اسحق نظرية شيقة فقال :

كما أن مضادات الاجسام تقوم بتمييز البروتونين الغريب الواغل عن

البروتوئين الذاتي المقيم في الجسم حتى تستطيع بعد هذا التمييز ان تهاجمه وتطرده فلايبعد أن تكون مهمة الدخيلي هي تمييز الحوامض النووية الغريبة وتقييد الخلايا التي دخلتها هذه الحوامض عن التكاثر . ولهذا فانه يحول دون ان يقيم هذا الواغل ، ودون ان ينقل محاضر تخلق مشوشة (بكسر الواو) تغير الوجه الطبيعي للوراثة .

وعلى علو أهمية هذه النظرية فانها ماتزال تحت مجرد البحث والتمحيص .

اما الخصائص الشفائية للدخيلي فهي التي تمسك من حولها البصائر والابصار حتى الآن .

فان النجاح الذي حققته المعالجة به في التهاب القرنية اللقاحي اوضح اننا على وشك أن ندخل دور التطبيق العملي لهذه المعالجة على نطاق واسع .

لاشك ان هناك مجاهيل ماتزال تحتاج الى كشف ، كتحديد المقادير الدوائية بصورة أدق، كما ان وسائل انتاج الدواء وصنعه ماتزال عاجزة عن سد حاجة الجماهير ، وما تزال هنالك ضرورة للاكثار من تجربة هذا العلاج على الحيوانات قبل تعميمه في معالجة الانسان ، ثم اختيار انجح الطرق لتطبيقه ، ولقد قام الدكتور إسحاق بإحدى هذه التجارب على الحيوانات ليختبر المدى الذي يبلغه عمل الدخيلي ضد فيروس التهاب الدماغ .

جعل هذا العالم فريقين من الفئران يفرخ فيها فيروس التهاب الدماغ ، وعالج أحد الفريقين بزرق الدخيلي في جوف البطن رأساً وعالج الفريق الثاني بأن حقنها بفيروس الكريب ليحرض خلايا الفئران على انتاج الدخيلي من ذاتها .

فحصل على النتائج الآتية :

١ ــ نقص عدد الوفيات بشكل ملحوظ في الفريق الاول .

٢ ــ في الفريق الثاني تبين أنه اذا تم تفريخ فيروس الكريب في ليلة اليوم الذي فرخ فيه فيروس التهاب الدماغ أو في نفس اليوم أو في غده أدى ذلك الى وقاية الفئران من الاصابة بالتهاب الدماغ . أما اذا تأخر الموعد عن ذلك فتبقى الفئران بلا وقاية مطلقاً وتلقى مصيرها المحتوم .

واستناداً الى هذه التجربة شرعت اللجنة العلمية للدخيلي في مطلع عام ١٩٦٢ بتجاربها على الانسان .

ولقد تطوع للتجربة الاولى ٣٨ متطوعا لم يلقحوا ابدا في ماضي حياتهم باللقاح ضد الجدري وفي موضع من ساعد كل منهم غرزوا الدخيلي **المستحصل عليه من قرود زرقت** (بفيروس الكريب) وفي موضع آخر بجانبه غرزت مادة محايدة (لا تأثير لها) ووشم مكان الغرزين بالحبر .

وبعد مضي اربع وعشرين ساعة عولج الموضعان باللقاح ضد الجدري كل ذلك بغاية أن نعلم ماإذا كان الدخيلي المغروز في الموضع الاول يمنع نضوج لقاح الجدري . ولتكون هذه التجربة على درجة عالية من الدقة والصحة اتخذت المقررات التالية :

١ – جعلوا المظهر المرئي لعلاج الدخيلي ومظهر المادة المحايدة واحدا في لونه وفي قارورته حتى لايعلم المكلف باجراء الغرز أين هي غرزة الدخيلي ، وأين هي المادة المحايدة (الطريقة التجريبية المسماة التعمية المركبة Doubl. Blind) .

٢ – وانتقي الشخص المكلف بوضع لقاح الجدري ممن يجهلون تماما أيا من الغرزين هو غرز الدخيلي أو غرز المادة المحايدة .

٣ – وعهد بمراقبة تطور موضع اللقاح الى شخص من غير اولئك الذين كلفوا بالدورين السابقين فهو يجهل تماما اين موضع كل مادة .

وهكذا وبهذه الطرق جعلوا من كل متطوع شاهدا من نفسه على نفسه فبلغت الحيطة غايتها في الدقة . فحدث بعد هذا أن اللقاح ضد الجدري تطور ونضج في الغرزة التي دفنت فيها المادة المحايدة .

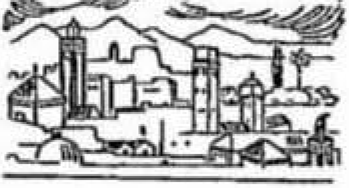
اما في موضوع غرز الدخيلي فلم يتطور اللقاح الا عند اربعة عشر منهم دون ان ينضج فأثبتت هذه التجربة إحصائيا أن الدخيلي عدا عن أنه يقي

الجسم من فعل فيروس الجدري الموجود في اللقاح ، فأنه لايفقد مفعوله أذا نقل من نوع حيواني الى آخر (من القرد الى الانسان) .

وهكذا اثبت ان الدخيـلي اذا اعطي للانسان زرقا اوحبوبا اوتقطيرا فأنه دواء الغد الفعال ضد الحمات الراشحة ، وأن أمراضا كثيرة مما استعصى وتجبر على الطب حتى اليوم ستلقي بسلاحها بين يديه .

اما في السرطان (الذي يعتبره بعض الباحثين من فعل حمة راشحة) فان المستقبل سيكشف عن نتائج التجارب التي يقوم بها العلماء معالجين هذه الخلايا السرطانية بالدخيلي .

واذا اختتمت آخر التجارب على مثل الانتصارات التي انتهت اليهاالتجارب التي اجريت حتى الآن حق لنا أن نقول أن هذا الجزئي البروتئيني سيسد في عالم المعالجة الدوائية فراغا أوسع من الفراغ الذي سده البنسلين وأشقاؤه ضد الجراثيم . ذلك لأننا مع هذا الدخيلي الخارق الأعجاز (والخالي من أية سمية في حدود المعالجة ، والذي لايحدث في الجسم اعتيادا عليه يفقده أثره العلاجي ، والذي هو فوق ذلك سد كبير ضد الأغلب الأعم من أمراض الفيروسات) سنستلك قريبا السلاح الاعلى الذي أعدته الطبيعة نفسها لتقي به نفسها ضد غزوات اصغر عامل ممرض يفوق بدقته وشروده وانسلاله كل مانعرف من العضويات الدقيقة .



مستقبل النوع الانساني

لكارل ياسبرز
Karl Jaspers

بقلم اورخان ميسر

اذا كان للفلسفة الوجودية ابعادها المختلفة وزواياها المتباينة عبر التاريخ من رواد الفكر الاغريق الى كيركواد وهايدكر وكامو وسارتر ، فان لكارل ياسبرز الذي يعتبر اليوم اعظم فيلسوف وجودي معاصر طابعه الخاص الذي يميزه تميزاً واضحاً عن كل هذه الابعاد والزوايا . لقد انتقل ياسبرز من الطب الى السيكلوجيا ومنها الى الفلسفة حيث بنى لفكره قواعد جديدة وأسساً حديثة في الوجودية العلمية المعاصرة . واذا كان لبرتراند راسل مواقفه السلبية بالنسبة للطاقات النووية التدميرية فان لياسبرز مواقفه الفكرية الايجابية التي برزت في كل وضوح في كتابه الاخير « مستقبل النوع الانساني » الذي الفه

جوابا على مئات من الاسئلة التي تلقاها بصورة متسلسلة عقب محاضراته وأحاديثه عن الأخطـــار التي تهدد الانسان اذا ما استمر قادته السياسيون على تعنتهم في استعمال الاسلحة النووية كوسائل للدفاع او الهجوم .

ولد ياسبرز في مدينة اولدنبرغ بالمانيا عام ١٨٨٣ وتخرج في جامعة هايدلبرغ حيث حصل على درجاته الاكاديمية المختلفه في الطب وعـــلم النفس والفلسفة . ثم درس في الجامعة ذاتها العلوم التي تخصص فيها لسنوات طويلة . **وفي عام ١٩٤٨ انتقل الى سويسرا ليحاضر في جامعة « باسل » في الفلسفة والتحليل النفسي على ضوء معرفته العميقة وتجربته الواسعة في ميادين العلم المتنوعة .**

لايمكن ان ينكر ان ياسبرز قد تأثر بدراسات الفيلسوف الوجودي هايدكر الذي كان معجباً به ، إلا ان الدراسة العلمية والذهنية الرياضية اللتين كانتا حصيلة لجهده الفكري الشاق الطويل جعلتاه يطل على العـــالم من زاوية جديدة ، وبالتالي يكون لنفسه فلسفته الوجودية الخاصة التي من خصائصها ان الوجود الانساني اقوى من ان ينهار امام اي نزوع تخريبي لأنه وجود مبدع خلاق بسبب العلاقة التي تربط الفرد بالفرد الآخر من ناحية وبسبب المد الانساني الذي يربط الحياة بالكون من ناحية اخرى .

ان العلم ، رغم الجهد الجبار الذي يبذله رجاله باستمرار ، لم يستطع ان يكشف عن اسرار العالم الذي نعيش فيه إلا جوانب محدودة لها خطوطها النسبية التي تحول بيننا وبين ادراكنا الميتافيزيائي الكلي . إلا ان هذا لايعني ان الحياة الانسانية ذات نزوع خلودي لايعرف للزمن حدوداً ولا للاحداث تخوفاً . واذا سرنا القهقري عبر ملايين السنين من تاريخ الحيـــاة

لوجدنا انفسنا في البداية دعاميص تعيش على الضحضح ثم تنقلب الى كائنات ذات خلايا متعددة ثم الى مخلوقات تزحف او تطير ثم الى انسان ينتصب على قدميه ثم الى جبار يحاول من جهة ان يغزو الفضاء ويحاول من جهة ثانية ان يفني نوعه مع انواع اخرى من الكائنات الحية التي نشأ معها وعاش واياها ملايين من السنين لا يمكن تحديدها تحديداً علمياً دقيقاً .

إلا ان الفناء النسبي شرط من شروط الوجود على ان لايتجاوز الحد الذي فرضته الحياة ذاتها . والغرائز التي تحيا في خلايانا وتعمل في سلوكنا ، الكامن منه والدينامي ، تجعلنا احياناً نحاول ان نتجاوز هذا الحد دون وعي منا ودون معرفة لما يمكن ان يبلغه مثل هذا التجاوز . لذلك فنحن في صراع مستمر رهيب بين وجودنا الذي كناه ووجودنا الذي سنكونه . وليست الحروب التي يثيرها انسان ضد انسان آخر الا ظاهرة من ظواهر هذا الصراع الذي يجر ذاته وكأنه وحش اسطوري .

وازاء ماتفعله الغرائز بنا فإنه علينا ان نحول جبروتنا الانساني من دوامة التيارات الانفعالية الى تيار جديد آخر : تيار الفكر الذي يستطيع ان يحتضن كل وجودنا احتضاناً فيه صدق وتحنان وتوجيه أصيل . ان في هذا الفكر طاقات رائعة خلقت لتطويرنا من مرحلة حياتية اخرى اكثر رقياً من التي سبقتها . وبذلك نستطيع ان ندرك ذاتنا وان ندرك بعد ذلك علاقتنا بالحياة وبالوجود وان نعمل ، عقب هذين الادراكين ، على تجنيب نوعنا الانساني ويلات ماترمي اليه الغرائز من شرور لافائدة بيولوجية وراءها . لقد تطور الانسان واصبح « ذا فكر » فيجب ان يعود الى هذا « الفكر » الذي نما لديه وجمع من المعرفة ماهو غير قليل . فالفكر وحده هو الذي يستطيع ان

يتغلب على الاهداف الجانبية للغريزة ، هذه الاهداف التي تتربع آفاقاً غير محدودة من حواشي لاوعينا والتي تجعلنا بين حين وآخر نشن الحروب ونهدد العالم بالخراب والتدمير مها اختلفت اسلحتنا من السيوف والسهام والحراب الى البنادق والمدافع والقنابل النووية ذات الاشعاع الفتاك . وماقاله هـ . ج ويلز من ان كثيراً من الناس يسعى الى التخريب والتدمير دون أي وعي للنتائج التي يسعى اليها ودون اي محاولة للتفكير فيا يعمل قول يحمل كثيراً من الحقيقة والصواب لأننا في سيرنا التطوري الصعودي ضللنا الطريق في المتاهة التي تجمع مابين العقل والغريزة.

في هذه النقطة يجتمع ياسبرز بالفيلسوف الفرنسي هنري برغسون الذي اوجد فلسفة اللقانة « Intuition » والذي قال ان الغريزة المجردة في وسعها ان تشق لصاحبها الدروب الى الحياة التطورية اكثر أو أشد دقة من العقل الذي لم يتبلور بعد تبلوراً واضح المعالم والخصائص (كتاب برغسون : Creative Evolution .) غير ان هذا الالتقاء لا يسير سيراً منسجماً متناغماً ان برغسون يلح على ان اللقانة الغريزية تصنع المعجزة وان النحلة في صنعها لنخاريبها اكثر مهارة من اي مهندس عبقري ، بينما يؤمن ياسبرز بالعقل الانساني كل الايمان ويقول انه في وسع الانسان ان يساعد في استمرار التطور الحياتي اذا هذب معرفته العلمية والتزم قواعد التفكير المنطقي .

ومن هنا ينطلق ياسبرز في كتابه « مستقبل النوع الانساني » ليبشر بعظمة الفكر الانساني وليقول ان العودة الى اعماق هذا الفكر والاحاطة بآفاقه الواسعة تستطيعان ان تقدما اخطاء الغريزة وان تسيرا بالوجود الانساني الى الاهداف التي خلق وتطور للسير اليها . ويعود هذا الفيلسوف ليستعرض كثيراً من صفحات التاريخ حيث الادلة وافرة على ان الانسان

يرقى عندما يلتزم الحدود الصحيحة لمعرفته العلميـة واستنتاجه المنطقي الرياضي وانه يسعى الى الدمار عندما لايفعل ذلك .

كلنا يخطيء ولولا الوقوع في الخطأ احياناً لما عرفنا السبيل الى الصواب إلا اننا لانستطيع الاهتداء الى هذا السبيل الا عن طريق استعراض اخطائنـا ودراستها ومعرفة الثغرات التي تحددها كأخطاء . لاشك ان نشأة الحروب تعود في الأصل الى رغبة الانسان ، ككائن حي ، في التملك والسيطرة من ناحية والى النزوع الغابي الذي تولد لديه نتيجة لحياته التي امضاها وهو شبه أنسان ، هذه الحياة التي تعتبر اطول مرحلة من مراحل تاريخه واكثر تأثيراً في سلوكه اليومي الآلي . غير ان هذه الحروب ، على اختلاف السنوات التي وقعت فيها وعلى تباين الاسلحة التي عمد اليها اصحابها تظل نتائج لانحراف الانسان عن الفكر الصحيح وعن الاستنتاج المنطقي السليم .

ان النظرة الوجودية عند ياسبرز لاتتشح بالسواد ، اي انها ليست نظرة تشاؤمية كما هي عند غيره من الوجوديين الذين سبقوه اوعاصروه . ولياسبرز ميزة اخرى تتضح كل الوضوح في كتابه هذا وهي الفكرة القائلة ان كل المساويء التي يشكو منها انساننا المعاصر لاتنبثق من نفسه او من ذهنه انما هي نتيجة طبيعية للظروف التي اقترنت بتطور الانسان من مرتبة الى اخرى ، ولما كان لهذه الظروف من ظلال امتدت امتداداً عابراً في المسالك المختلفة التي لابد من اجتيازها في الحياة . والفرد « مهما كان مستواه الثقافي ومهما كانت طبيعة الاوضاع التي تحيط به يظل في توق لانهائي الى الارتقاء بنوعه » ولايختلف في ذلك في نظر ياسبرز « اولئك الذين يدل سلوكهم الظاهري على نزعة تصنف بكلمة (الشر) عن الآخرين الذين يعرفون وفق المعجم الجماهيري بالتقوى ،

وذلك لأن الدافع الجوهري الذي يجعل الانسان ، وأي كائن حي آخر غيره ، يجد دون كلل أوخيبة أمل اوتأثر سلبي بالنتائج التي يلقاها ، هو دافع منبثق من خلود الحياة على هذا الكوكب الصغير الذي تطلق عليه اصطلاحاً اسم « الأرض » ويجعل ياسبرز هذا المنطلق في فلسفته الخاصة ملازماً لكل استنتاجاته في الشؤون السياسية وفي قضايا التاريخ حيث يمضي في سرد دقائق مقنعة مبتدئاً بالحروب التي سبق وان سجلها التاريخ دماراً باحداث اخرى يعرفها العالم الحديث كالحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية والمحاولات التي قام ولا زال يقوم بها اولئك الذين دأبهم اعادة الكرة في سبيل سيطرات يفرضها العقل الباطن . وهنا تظهر آثار الفرويدية ومدرسة التحليل النفسي واضحة في كتاب ياسبرز الاخير الذي سجل فيه خطاً جديداً في الفلسفة الوجودية التي اخذت تتبلور فيها المفاهيم الميتافيزيائية لتتخذ شكلاً جديداً له مقوماته ومرتكزاته العلمية .

ان اكثر المفكرين والقادة السياسيين في الزمن المعاصر لايستطيعون التخلي عن المعتقدات القديمة التي مافتئت قابعة في اعماق لاشعورنا ، رغم بلوغ الانسان مرحلة قصية في ميدان الكشف العلمي . وهنا ايضاً يلتقي ياسبرز مرة اخرى بالفرويدية والتحليل النفسي ويلتقي ايضاً بالداروينية التي تقول بالتطور الذي يرقى بالكائن الحي دون ان يكون لهذا التطور حد يلتزمه او يقف عنده .

واكثر مايمكن ان يسيء الى التطور الذي يسير بالانسان الى مراتب عالية هو التردد في معرفة الحقيقة وبالتالي التردد في اختيار ماهو صحيح . والايمان بالعلم الذي يدعمه المختبر وتؤكده التجربة الواقعية المتكررة هو الذي يمكن ان يصل بنا الى الاختيار الصحيح في حياتنا المتشعبة الاطراف

« نحن نتردد كثيراً وفي ترددنا بعض الهلاك .. لذلك فانه يترتب علينا أن نعيد النظر في أمر هذا التردد اعادة شاملة وان لانتقيد بالاخطاء الشائعة التي توهم بان العلم قد لايصل الى الحقيقة . » نجد هذه العبارة وما يماثلها تتكرر في اماكن عديدة من كتاب « مستقبل النوع الانساني » بصورة تدل على ان ياسبرز لايقنع بالفكر المجرد وانما يسعى الى بناء تفكير جديد يتخذ من المعرفة الجدية اعظم مقوم له .

ان في حقيقة القنبلة النووية مايضطرنا لاعادة النظر في جميع الخطوط الرئيسية لسياساتنا المختلفة ولعلاقاتنا بالدول الأخرى . وتدلنا الملاحظات التي تجمعت لدينا بعد خبرة طويلة على أننا لانستطيع أن نبعد خطر هذه القنبلة الجهنمية بحظر استعمالها أو بمنع تجاربها ، انما نستطيع أن نفعل ذلك عن طريق واحدة وهي القضاء على الحروب قضاء كاملاً . وكل الجهد الذي بذلناه في الميدان السياسي لمنع التجارب أو التفجيرات النووية ليس في الواقع إلا جهداً مهدوراً ولو أنه بدا من الوجهة السياسية ذا فوائد جمة ، ذلك لأن الجهد — أي جهد — الذي يبذر لابة غاية يجعلنا نتوهم أنه مثمر لاننا قد اعتدنا في حياتنا اليومية ان نرى لكل طاقة تستهلك أثراً ملموساً . وبدافع من هذه العادة نرى اليوم ان المحاولات السياسية التي تقوم بها بعض الدول لمنع التجارب النووية محاولات تنطوي على آمال ايجابية كبيرة . غير أن هذه العادة التي سرنا عليها تخدعنا ولاتفيدنا في بلوغ الهدف الذي نرمي اليه . ويمكن اعتبار هذه العادة كمعالجة لاعراض مرضية خاصة دون معالجة الاسباب التي تولد هذه الاعراض .

ان هذا التحليل الذي يأتي به ياسبرز يؤكد مرة اخرى تأثره بالتوجيه الفرويدي تأثراً كبيراً . انه يؤمن بأن الجهد الذي يبذله الفرد يخدع صاحبه دون ايصاله

الى الغاية التي يبغيها لانه يشعر باستهلاك طاقة ويعمل هذا الشعور في لاوعيه عملاً ايجابياً يرضيه أو يرضي « أناه » فيحس و كأنه انجز مايريد أن ينجز . يقول فرويد في دراسة له بعنوان « شعورنا الخداع » مامعناه « اننا نطمئن الى النتائج التي نسعى اليها بقدر الجهد الذي نبذله في سبيلها وذلك لأن لاوعينا يقيم النتائج وفق الطاقة التي صرفها من اجلها » . ومايريد أن يقول ياسبرز هنا عن الدواعي السياسية في سبيل حظر التجارب النووية يبدو في وضوح أنه مستمد من نظرية فرويد في الشعور الخداع .

ومن مآثر ياسبرز في كتابه « مستقبل النوع الانساني » انه لايتجمد في حدود الفرويدية والتحليل النفسي بل يقفز بين حين وآخر الى ميادين الميتافيزيا الشمولية حيث يرى الوجود كلا واحداً وحيث يجب على الانسان « تحديد علاقاته بكل تاريخه وبكل ماحوله وفق قوانين تفرضها طبيعة الحياة الواعية » . والحياة الواعية بالنسبة لياسبرز هي تكثيف المعرفة العالمية وجعل هذا التكثيف جزءاً من شعورنا وارادتنا وسلوكنا .

ان هناك قوانين يفرضها الانسان « الواعي » على مجتمعه فرضاً قسرياً وتحميها سلطات تنفيذية لها مايخولها حق التصرف حسب هذه القوانين . غير أن الافراد يظلون يرتكبون الجرائم ويقترفون الآثام رغم هذه القوانين ورغم وجود هذه السلطات ورغم النتائج التي يعرفونها معرفة يقينية . والسبب في ذلك انهم لايحيون في اعماقهم حقيقة هذه القوانين ولا يدركون ادراكاً واضحاً الاسباب التي دعت الى وضعها . انهم يخشون هذه القوانين ولكنهم لايترددون في مخالفتها وفي تجاهلها في كثير من الاحيان . ومايمكن أن يقال في هذا الشأن يمكن ايضاً تطبيقه في مجال الحديث عن القنبلة النووية في الاعتبار الدولي . ان الحظر

أو التحريم لايمكن أن يؤدي الى الهدف الذي نبغيه وهو الحيلولة دون فناء النوع الانساني وذلك لأن الدول قد اعتادت خرق القوانين الدولية بذات الطريقة التي اعتاد فيها الفرد خرق القوانين التي تفرض على مجتمعه . إلا أن ادراك مغزى أي قانون يوضع هو الذي يفرض ديمومته ديمومة تلقائية ثم ينتهي بالنتيجة الى انقاذ الفرد من الوقوع في الاخطاء وانقاذ الدول من شر حروب محدودة أو غير محدودة. ان هذا لا يعني ان لا نعمل على وضع قوانين تحرم استعمال الطاقة النووية لاهداف تخريبية . انه لا بد من وضع مثل هذه القوانين ولا بد في الوقت ذاته ايضاً من تفهم الاسباب التي دعت الى وضعها والا فاننا نظل نخرقها من آن الى آخر بمبررات يخلقها المنطق الظرفي من جموح الأنا الفردية أو الجماعية .

ولقد أدى ايجاد الاسلحة الجديدة التي صنعها العلم المنحرف الى تغيير الحروب من القتال المألوف الى الابادة التكنولوجية الكاملة ، بما غير ايضاً في اساليب العنف التي عرفها الانسان في الماضي . ان هذا التغيير ولو كان من حيث التعريف تغييراً جذرياً إلا أنه يحمل ذات الخصائص الوحشية التي يحملها أي قتال بين انسان وآخر . والفرق الظاهر هو أن الابادة كانت ، الى حد بعيد ، ابادة فردية وتدريجية فأصبحت اليوم ابادة جماعية وحاسمة .

ويظهر أن ياسبرز يؤمن ايماناً كبيراً بالامم المتحدة كبدء لامكان سيطرة الانسان على الانفعالات التي تسوقه الى الهلاك دون أن يعلم على وجه التحقيق طبيعة مثل هذا الانسياق . يقول ياسبرز ان منظمة الامم المتحدة ظاهرة تدل على ان الانسان ، مهما غاص في غابيته ، يحاول ان يكون الانسان المتطور الذي يحس بالحياة وجوداً كليا يعلو ويعلو دون انتهاء . وفي اعتقاد ياسبرز ان الميثاق الذي وضعته الامم المتحدة والذي تستمد من مضمونه سلوكها الدولي بداية صحيحة للسلام الذي ينشده الانسان الراقي لان هذا الميثاق يشترط تحقيق

الانسان حريات واحترام كرامته دون التفريق بين دولة وأخرى أو مجتمع وآخر. الا أن ياسبرز يعود الى الشك من جديد في مستقبل هذه المنظمة عندما يقول أن بعض الافراد قد يسيطرون عليها وقد يكون هؤلاء الافراد اناساً لم يستطيعوا تطهير أذهانهم من رواسب الماضي، وعند ذلك تتطلب المنظمة جهداً جديداً لتبدأ من حيث كانت اولاً. ثم يقترح تجنيد اكبر عدد ممكن من رجال الفكر في هذه المنظمة للوقوف في وجه اي محاولة فردية منحرفة ترمي الى السيطرة على بنود ميثاقها وتفسير هذه البنود تفسيراً يغاير المبادىء الرئيسية التي وضعها اصحابها من أجلها.

ان كتاب «مستقبل النوع الانساني» صرخة اكثر من ان تكون مجمل فلسفة ولو أن الفلسفة الواضحة فيه لها من المعالم ما يجعلها خطاً جلياً في ذاته. انها فلسفة تقوم على المعرفة العلمية والتحليل العلمي كأساس ومن خلال هذه المعرفة والتحليل تحاول ان تتناول الانسان تناولا شمولياً فيه كل خصائص الميتافيزياء الحديثة. ان قوله «ان هناك حقيقة للاسباب فيجب ان نعرفها» قول يشير الى الاساس الفلسفي الذي يعتمده اشارة جانبية ذات مضمون غير ضئيل. اما الصرخة فهي في قوله «انا قد نفنى وقد نستمر في تطورنا الصاعد، الا ان الانسان الذي برهن على قدرته في السير الارتقائي في وسعه، اذا عاد الى التمسك بالمعرفة والى ادراك الهدف التطوري الذي جعلته له الحياة ان يتغلب على كل صعوبة وان يمحو من مستقبله مآسي القنابل النووية».

انها لصرخة قوية داوية تتضمن بين اهتزازتها عمق المعرفة وروعة الكرامة الانسانية والايمان المطلق بالوجود الذي تبنيه الحياة على هذه الارض.

غرائب اليمن كما شاهدتها

للمهندس أحمد وصفي زكريا



محارب قبلي في اليمن
بسلاحه القديم .

ساقتني الاقدار في مطلع عام ١٩٣٦ الى اليمن . وكان ذهابي اجابة لطلب ملك اليمن الاسبق الامام يحيى كي اخدم زراعة بلاده وانظر الى ما يؤدي لصلاحها خلال ستة اشهر حددها . فذهبت وقمت في تلك المدة الضيقة بأوسع ما يمكن ان يؤتى في خدمة الزرع والغرس واستطعت ان اترك هناك آثاراً مشهودة من المحاصيل والاشجار المثمرة وغير المثمرة التي استجلبتها على عجل من مصر والشام وايطاليا مما لم يكن لليمانيين عهد به .

وقد كنت خلال اعمالي الزراعية المذكورة في صنعاء وما حولها من الاقضية والنواحي اتنسم المعلومات الجغرافية والتاريخية والعمرانيـة وغيرها فحصلت على نبذ منها ورأيت أن انشر بعضها في هذه المجلـة الغراء . وقد حفزني الى ذلك كون

اليمن لا يزال مجهولا في جمله عندنا معشر العرب لم يكتب كتابات كافيـة في اللغة العربية عن جغرافيته الطبيعية والبشرية والعمرانية. بينما الاتراك العثمانيون في زمن وجودهم هناك الف بعض قوادهم واطبائهم عدة كتب ورسموا خرائط عسكرية ، وقام قبلهم منذ مائتي سنة ولا يزال يقوم بعض المغامرين من رواد الأفرنج وخاصة الالمان والانكليز والافرنسيين و لايطاليين والاميركان وجازفوا بارواحهم وجاسوا خلال اليمن والفوا ونشروا عنـه كتباً عديدة في لغاتهم المختلفة . وكانوا يتهافتون خاصة على زيارة مدينة مارب عاصمة السيدة بلقيس ملكة سبا المذكورة قصتها مع النبي سليمان في الكتب المقدسة . وقد قتل بعض هؤلاء الرواد في طريقه الى هذه المغامرة وراح ضحية البحث العلمي في تاريخ اليمن . والجدير بالذكر ان الرائد العربي الوحيد الذي كان السباق بين مثقفي العرب في بلوغ مارب والكتابة عنها وعن سدها المشهور صاحب (رحلة في بلاد العربية السعيدة) هو مواطننا الدمشقي السيد نزيه المؤيد العظم في سنة ١٩٣٦ وخلفه بعد بضع سنوات بعض اخواننا المصريين الاخصائيين في الآثار ما زلنا ننتظر كتاباتهم . وآخر ما نشره المغامرون الاوربيون عن اليمن فيما علمته كتاب في الالمانية اسمه «اليمن من الباب الخلفي» لمقريس ويقصد بالباب الخلفي حضرموت التي جاء منها الى اليمن . وكتاب في الايطالية اسمه «هذه هي اليمن السعيدة » لفاتور آبوني . وكتاب في الانكليزية اسمه « كنوز مدينة بلقيس » لوندل فيليبس الاميركي الذي جاء على رأس بعثة اثرية قوية واتفق مع الامام احمد ونقب في اطلال مارب ثم اصطدم عبثاً كل اضطرته الى ايقاف العمل والنكوص .

ولم تقتصر مغامرة الاوربيين بالسفر الى اليمن والجوس خلاله على رجالهم فحسب بل أن بعض نسائهم ايضاً ذهبن وعملن هناك ودرسن وبحثن . وبعد رجوعهن نشرن كتباً عما عملنه ولحظنه في اليمن منهن طبيبةالمانية اسمها ايفاهويك لها كتاب سمته (سنوات في اليمن وحضرموت) والثانية طبيبة افرنسية كلودي فايان لهـا كتاب سمته (كنت طبيبة في اليمن) وفي الكتابين طرائف ومعلومات جديرة بالقراءة . وكل هذه الكتب ترجمت اخيراً الى العربية ونشرت . فعسى ان يقرأهـا مثقفونا ويدركوا مدى تقاعسهم عن الضرب في مجاهل الدنيا والدرس والبحث والتأليف والنشر فيتحمسوا وبالمغامرين والمغامرات من الاوربيين يتشبهوا .

هذا وللیمن لدينا نحن السوريين ذكريات مؤلمة وانطباعات رهيبة يعرفها المعمرون عندنا الذين ادركوا اوائل قرننا الحاضر وما قبله ؛ فقد كانت بلاد اليمن توصف بانهـا مقبرة الجيش العثماني في ذلك الحين (١٨٧٢ ـ ١٩١٨) . لكن هذا الجيش الذي كان يساق كرهاً الى اليمن ان كان نصفه تركياً من ابناء الاناضول والروملي فنصفه الثاني كان عربياً من ابناء بلاد الشام كلها (سورية ولبنان وفلسطين) ، فقد كانت تؤخـذ من بلادنا جموع الافراد الجديدة

افواجاً افواجاً وعساكر الرديف كتائب وراء كتائب . فلا يرجع منها الى مسقط رأسه بعد خدمة اربع أو خمس سنوات الا النصف أو الثلث . ويندر من بين هؤلاء الراجعين من لم يكن عليلاً أو مشوهاً . كل ذلك من جراء الحروب والمعارك بين الدولة واهل اليمن ومن الامراض وتبدل المناخ بين حر تهامة وبرد الجبال ونقص العناية وغيرهـا من الاسباب التي كانت في العهد العثماني الاستبدادي (عهد السلطان عبد الحميد) تفتك بالجنود الذاهبين . فما من بلدة أو قرية في بلادنا العربية المذكورة الا وتذكر اليمن بالاسى العميق . لان لها هناك عشرات أو مئات من الشهداء أو المنقطعين أو المعلولين أو المشوهين الذين راحوا ضحية ذلك العهد المشئوم . يقابلهم مثل ذلك العدد أو اكثر من أبناء اليمن الذين كانوا يثورون ضد ظلم موظفي الدولة أو اجابـة لدعوة الأئمة الذين كانوا يستنفرونهم للوثوب على الدولة ومناجزتها القتال والعراك لـكي يستردوا سلطانهم الروحي والزمني اللذين سلبتهما الدولة منهم .

اجل ، ان كثيراً من ضباطنا وقوادنا السوريين القدامى عملوا في اليمن ايام العهد العثماني وخاضوا معاركه وقاسوا شدائده . منهم من قتل ودفن هناك ومنهم من رجع بعد لأي معلولاً أو هزيلا . اضف الى هؤلاء العسكريين عـدداً غير يسير من السوريين المدنيين رجال الادارة أو القضاء الشرعي أو التعليم أو الطب أو الزراعة .

وبعد هذه المقدمة الوجيزة سأبدأ ببحثي الجغرافي فأقول :

حدود اليمن : اليمن قطر واسع يقع في الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة العربية . وهو جبلي في اكثره سهلي في اقله . مستطيل الشكل ، وحدوده من الشمال مقاطعة عسير العائدة الى المملكة العربية السعودية ومن الشرق البراري الحـاجزة بين اليمن وحضرموت ومن الجنوب المحميات التسع التابعة الى مستعمرة عدن الانكليزية ومن الغرب البحر الاحمر .

المساحة والنفوس : لم يتسن لاحد حتى الان ان يحدد بلاد اليمن ويعرف مساحتها السطحية ويحصي نفوسها على الضبط. لان هذه الامور كانت وما برحت متعذرة الاجراء . لكن الباحثين من الاتراك والافرنج يخمنون ان المساحة حوالي ٢٥٠٠٠٠ كيلو متر مربع والنفوس ثلاثة ملايين اى ان مساحة اليمن تقرب من مساحة بـلاد الشام كلها ونفوس اليمن تقرب من نصف نفوس بلاد الشام كلها .

الوضع الطبغرافي : يتألف القطر اليماني من ثلاثة اقسام . **الاول** الذي على ساحل البحر الاحمر . وهو سهل عرضه بين ٦٠ — ٧٠ كيلو متراً . وهو ذو براري منبسطة بينهـا رمال

وكثبان واقليم حار رطب . وهـذا القسم يدعى (تهامة) وفيه من المدن الحديدة وهي ميناء اليمن الاكبر وباجل وزبيد وبيت الفقيه ومخا وغيرها . **والقسم الثاني** جبلي في الوسط وشرقي تهامة ويتدرج في الارتفاع عن سطح البحر الى ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ والى ٣٥٠٠ متر في اعلى قمة منه . وهو ذو جبال وهضاب شاهقة واودية سحيقة واقليم بارد او معتدل نسبياً وهواء جاف جيد ويدعى (قسم الجبال) وفيه من المدن صنعاء وعمران وضوران وكوكبان وذمار ويريم وغيرها.

والقسم الثالث : صحراوي في الداخل وشرقي القسم الثاني واوطأ منه وهو ذو براري واسعة تمتد في الامتداد شرقاً نحو حضرموت ، كانت في عهود سبأ وحمير عامرة غناء فاصبحت بعدم عامرة فقراء الا قليلا. ويدعى هذا القسم (الجوف) وهو بمثابة تهامة في الغرب . واقليمه حار لكن هواءه جاف جيد . وفيه من المدن مارب وشبوة والبيضاء وحريب وغيرها .

وكان اليمن في العهد العثماني منقسماً من حيث التقسيمات الادارية الى اربع الوية (محافظة) هي لواء عسير الذي اخذه السعوديون عقيب الحرب العالمية الاولى . ولواء الحديدة في تهامة. ولواءا صنعاء وتعز في الجبال وفي كل من هذه الالوية الجسيمة عشرات الاقضية والنواحي ومئات القرى والعزل (جمع عزلة وهي بمعنى الضيعة) وهنــاك كثير من القلاع والحصون الحربية الهائلة المنظر والعسيرة الصعود والمنال التي كانت في العهد العثماني تدور حولها بل في كل مكان المعارك الدامية والمحاصرات الشديدة .

قسم الجبـال

اقتصر على وصف هذا القسم لانه بيت القصيد في جغرافية اليمن . فالقطر اليماني يكاد ان يكون قطراً جبليــاً . لان جباله تغطي ما يزيد على ثلاثة ارباع مساحته العامة . وجبال اليمن هي تتمة سلسلة السراة القادمة من الشمال والممتدة من مكة المكرمة والطائف والمنتهية عند الاعضاد المشرفة على تهائم لحج وعدن . وكل هذه السلسلة اوجلها آهل بالسكان ومدنه وقراه متصل بعضها ببعض . واذا سافر مسافر من الحجـاز الى عسير الى صنعاء الى عدن يكون دائماً بين زروع وحقول واشجار ومراع واودية قليلة المياه او كثيرتها . وكافة المدن والقرى مبنية بالاحجار المنحوتة ودورها ذات طبقتين او ثلاث او اربع طبقات . بينما دور بلاد تهامة تبنى بالاجر أو باغصان الاشجار وبطراز جميل في الجملة .

وظهر هــذه السلسلة في اليمن مرتفع ارتفاعاً عظيماً . فما جاوز الالفين وبلغ الثلاثة آلاف متر سمي باليمن الاعلى وما انحط عن الالفين واقل

سمى باليمن الاسفل . واليمن الاعلى حول مدن صنعاء وذمار ويريم وامثالها يؤلف نجداً متسعاً مستوياً . مستطيل الشكل يمتد من الشمال الى الجنوب . وفيه جبال منفردة شاهقة يتراوح علوها بين ٣٠٠٠ – ٣٥٠٠ متر . وجبال اليمن من اروع جبال العالم مرأى واصعبها مرقى واكثرها — تضاريس وتلعات واودية وصعائد ومهابط واشدها تحطماً وتصدعاً وافقرها بالماء والكلاء واروعها باكفهرار المنظر ووحشته . وجبال سنير ولبنان في بلاد الشام وحتى جبال طوروس وآمانوس في الاناضول تعد متواضعة لطيفة يسيرة المنال اذا قيست بما في اليمن من الكئودة والجهومة . وما راء كمن سمع . لاجرم ، ان من لم يشاهد جبال اليمن المكفهرة وشناخيبه المشمخرة وصخوره العظيمة النافرة واوديته السحيقة واكثرها حرج الجواز صعب المرور ، قليل الماء والخضرة ، اسود اللون متجهم المنظر . ومن لم يتسلق عقبات اليمن وشعابه الكأداء التي تقطع نياط القلوب حين تسلقها ومن لم يتدحرج في منحدراته ذات الميل الشديد لا يحسب رأى جبالا واودية ولا قاسى تعباً ولا ردد لهثاً ولا ارتعدت فرائصه من خشية تدهور السيارة او كبو الراحلة او زلق القدم ، وهذه حوادث ومآس كثيرة الوقوع هناك . لاسيا الجنود والموظفين القادمين حديثاً (١) ومبلغ التعب والاعياء في هذه الجبال يدركه المسافرون في طريق القوافل القديمة بين الحديدة وصنعاء المارة من قرية مناخة او بين صنعاء وتعز او حجة او صعدة بل في اى طريق شئت . والارتفاع والانخفاض في هذه الطرق الوعثاء يختلفان اختلافاً فجائياً لاهوادة فيه ولا رفق . فبينما ترى نفسك قد صعدت خلال اربع او خمس ساعات الى علو شاهق قدره ١٥٠٠ – ٢٠٠٠ متر تهبط فوراً في ساعة او ساعتين الى ثلث او نصف ذلك العلو ، ثم تعود الى الصعود ، ثم تعود الى الهبوط . وهكذا بمعنى ان منكب هذه السلسلة مؤلف من

---

(١) ذهب المرحوم احمد زكي باشا المصري الملقب بشيخ العروبة الى اليمن سنة ١٩٢٩ لزيارة الامام يحيى . وكان يرافقه السيد نبيه العظمة من رجالات سورية ، واجتاز طريق القوافل القديمة من الحديدة الى صنعاء ولقي عنتاً من ركوب البغال والصعود والهبوط في تلك الجبال والاودية الصعبة . ولما بلغ صنعاء ودخل على الامام المذكور استقبله بكلمة (اهلاً وسهلاً) وكررها . فقال احمد زكي باشا : كفى كفى يامولاي وانت تقول لي اهلاً وسهلاً . فاستغرب الامام يحيى واجابه ماذا اقول لك ياسيد : قال قل لي اهلاً وجبلاً . اذ ليس في بلادك سهول ، وقد قاسيت من جبالك كل شدة . فضحك الامام وقال اهلاً وجبلاً .

مرتفعات ومنخفضات تتموج موجاناً رهيباً وياخذ بعضها برقاب بعض كامواج البحر المتتالية المتلاطمة على مسافة عشرات الكيلو مترات مما يبعث التعب والرعب الزائدين للغريب القادم حديثاً . وقد كان الجيش العثماني يذوق الامرين في اجتياز طرق اليمن الوعثاء وتسلق عقباته الكأداء ومحاربة قبائله الثائرة والمتحصنة وسط جبالها التي لا تقتحم ودورها الشبيهة بالحصون والابراج التي لا تطال الا بالمدافع الهدامة . ومن العسير ان يصف الكاتب هذه الجبال المنيعة ومسالكها واماكن التجوال والصيال فيها ما لم يرها السامع بعينه ويلمس وعورتها بيده. وليس الخبر كالعيان . (انظر خريطة طريق القوافل الملحقة بهذا المقال)

هذا ورغم اكفهرار هذه السلسلة وكؤدة عقباتها وشمابها فان في مشاهدها عظمة وروعة تأخذان بمجامع القلوب . لاسيما حينما تتراكم امواج الضباب وتتكاثف قطع السحاب وترتج الافاق من الرعود القواصف والبروق الخواطف . وهي ظواهر جوية كثيرة الحدوث هناك وبعد الزوال كل يوم . فحدث اذ ذاك ولا حرج عن طلعتها التي لا تمل وروعتها التي لا تحتوى ، مما يحتاج وصفه وتبيين الوانه واشكاله الى قريحة شاعر مفلق او ريشة رسام مبدع .

الاودية : أما اودية اليمن فهي أجل اماكنه قدراً ونفعاً ، وهي ازهها منظراً وازكاها تربة واوفرها خيراً ، ففيها المواقع الرغيدة والينابيع والجداول الدافقة والاشجار الظليلة والمحاصيل المغلالة والقرى والمزارع العامرة المنتشرة على دروبها انتشاراً متقارباً جميلا تشبه قرى لبنان حينما تشرف عليها من ظهر البيدر مثلاً مع الفارق الكبير من حيث العمران ورقي السكان . ومياه هذه الاودية تحصل من الينابيع والعيون التي في قمم الجبال أو من الامطار الهاطلة بشدة . وهي اما تتجه شرقاً لتغور في براري الجوف الشرقية كوادي ذنة الذاهب الى مأرب او غرباً لتصب في البحر الاحمر او تغور في براري تهامة بعد أن تسقي مزارع تهامة وبساتينها . واشهر هذه الاودية الغربية وادي مور ووادي سردد ووادي سهام ووادي رمع . وكان قدماء اليمانيين يعرفون قيمة مياه الامطار الفائضة في هذه الاودية ويحسنون هندسة الري وبناء السدود وخزن تلك المياه ورامها لري الارض المرتفعة كما يفعل اهل التمدن الحديث في بناء الخزانات ، فتكاثرت وقتئذ السدود في اليمن بتكاثر الاودية حتى جاوزت العشرات . وكان اشهرها سد مارب الشهير الذي خرب بسيل العرم . وكل هذه السدود مندثر الان لو قامت الحكومة اليمانية الحاضرة لاعادتها تدريجياً على مراحل لعاد قسم من عمران اليمن وزهوه اللذين ادمجهما الرومان في كلمة (العربية السعيدة) .

المعادن والمناجم : لقد رددمؤلفو العرب واطنبوا في معادن اليمن واحجاره الكريمة فذكروا وجود الذهب والفضة والعقيق والزبرجد والحديدوالنحاس والرصاص . وقيل ان بعض الخبراء الاوربيين اخبروا عن وجود معادن الكروم والفحم الحجوي والبترول . وذلك في النماذج التي جلبت لهم لاجل الفحص او في الاماكن التي اوصلوهم اليها ، لكن احداً لم يحقق حتى الآن صفاء هذه المعادن وغنى مناجمها ان كانت مناجم دارة ، ولا يزال اليمن بحاجة الى خبراء في كل شيء ومنها الجيولوجيا والمعادن ليرودونه روداً علمياً ويحققون الصفاء والغنى المذكورين . على أن الانكليزوقد شموا رائحة البترول في اعماق ارض اليمن الشرقية وفرضوا ان عروق البترول ومجاريه تحت الارض لابد ان تكون قادمة من شمالي العراق الى اواسط نجد ثم الى فيافي الربع الخالي ومن هذه الفيافي الى مشارق اليمن ، فقاموا في السنين الاخيرة يتعدون على اليمن ويهاجمون مدنه وقراه بطائراتهم ودباباتهم بحجة تصحيح الحدود بين المحميات التابعة لمستعمراتهم في عدن وبين اليمن ، كل ذلك لاجل البترول ، وللبترول وحده .

الظواهر الجوية : من غرائب الظواهر الجوية في اليمن انها تختلف عما لدينـــا ، فالفصول الاربعة على خلاف ماهي في بلاد الشام بحكم اختلاف درجة العرض وقرب اليمن الى خط الاستواء. وهذه الفصول تسبق فصولنا بثلاثة اشهر . فشتاؤنا عندهم ربيع وربيعنا صيف وصيفنا خريف وخريفنا شتاء . وابرد ايام السنة في صنعاء تكون في تشرين الاول والثـــاني وكانون الاول . وقد تهبط درجة الحرارة صباحاً الى ١ – ٣ تحت الصفر بينما ترتفع في نفس النهار ظهراً الى ٢٣ وبذلك يكون تفاوت كبير يؤثر في الصحة . وكثيراً مايجمد الماء ويحصل الجليد الابيض ، وكثيراً مايهطل البرد ذو الحب الضخم ويملأ السهل والجبل بفراش كثيف يستمر مكانه بضعة ايام. اما الثلج فلا يقع في اليمن الا ماندر على قمة جبل النبي شعيب التي علوهـــا

(٣٥٠٠) متر . والضباب كثير الحدوث في قمم الجبال . وهو يحدث صيفاً وشتاءاً في اغلب الايام بعد الظهر وقد يدوم بضعة ايام بدون انقطاع . واروع مسارح النظر في جبال اليمن واوديته تلك التي يصادفها السائر في الطريق الصاعدة من الحديدة الى صنعاء او غيرها . فهو يشاهد امواج الضباب عن كثب وقد تحيط به وتحول دون رؤيته منافذ الطريق فيخال نفسه غواص بحر زاخر ، او يشاهدها في الاودية السحيقة التي تحت اقدامه وهي غاشية التلعات والمنحدرات فيحسب انه راكب طائرة يحلق فوق الغمام وفوق اعلى القمم الآخذ بعضها برقاب بعض . اما في تهامة فالحر شديد في الصيف ، تبلغ درجته مثلاً ٣٩ او ٤٠ وتبلغ درجة الرطوبة حدها الاعلى . ولهذا فالجو هناك خانق والتعرق متوال . والنوم على السطوح دائماً والمراوح التي تعلق بالسقف وتشد بالحبل وتحرك لاتنقطع عن العمل عند الموسرين . لكنك اذا غادرت الحديدة وساحلها وسرت شرقاً وبدأت تصعد الجبال تشعر بالانتعاش من خفة الحرارة والرطوبة وتناقصها تدريجياً ومن ازدياد الجفاف . اذ تبلغ درجته في صنعاء الحد الاقصى . وتهاطل المطر في اليمن عجيب . فالمطر يبدأ من آذار الى آخر نيسان ويتوقف قليلاً في ايار وحزيران . ثم ينهمر بشدة خلال تموز وآب حتى منتصف ايلول . وفي هذه الاشهر بينما تكون السماء صافية تتلبد بعد الظهر بالسحب المكفهرة واذا بالرعود تقصف والبروق تومض قصفاً ووميضاً شديدين ومتوالين يبعثان الروع والوجوم . واذا بالامطار تنهمر بشدة كأنها من افواه القرب تظل على هذا المنوال ساعة او ساعتين . ثم تنقطع فتهدأ ثورة السماء وتبقى الارض وما فيها من الجبال والاودية ريانة فياضة بالسيول او الغدران . واذا امسى المساء تتبدد الغيوم وتسطع النجوم واذا اصبح الصباح تبزغ الشمس وتبدو السماء صاحية ضاحكة كأن لم يكن بالأمس شيء . فلا يأتي الظهر الا وتعود الغيوم والامطار الى مافعلته امس ... وهكذا دواليك في كل يوم . ونباتات اليمن وحيواناته ايضاً عجيبة . تختلف كثيراً عن نظائرها في الشام من جراء تأثير الاقليم . فالنباتات والاثمار على غير اللون والحجم والطعم وكذا الحيوان فالبقر مثلاً ذو سنام ضخم يتدلى فوق الكاهل ، والخيل ذات مزاج عصبي شديد لاتسير الا قفزاً ووثباً والابل رفيعة القوائم صغيرة الجثة لاتحمل الا اثقالاً خفيفة ، والغنم عديم الصوف او قليله نحيل الخصر ، والبشر اقرب الى قصر القامة وصغر الهامة وهزل الجسم وشحوب اللون منه في بشر سائر الاقطار العربية . وعندهم كثير من القرود التي تتجول اسرابها كقطعان الغنم وتسطو على الزروع والغراس وتضرها .

وسائط النقل : اما وسائط النقل فأحدثها الطيارات والسيارات ، اما الطيارات فقد صارت منذ بضع سنوات تحلق في اجواء اليمن . وتحمل اليه الركاب . واما السيارات فقد دخلت اليمن منذ ربع قرن وصارت تجري بين بعض المدن التهامية والجبلية التي لا يصعب وصولها اليها . أما في الصعبة الوصول فقد عبدوا لها طريقين فقط احداهما بين الحديدة وصنعاء والثاني بين صنعاء وحجة. هذا ولقلة السيارات وطرقها الصالحــة ، فان الاعتماد في اليمن كان وما برح على البغال والحمير والابل التي تمشي في شعاب ومسالك حفرتها الاقدام بمرور الايام .

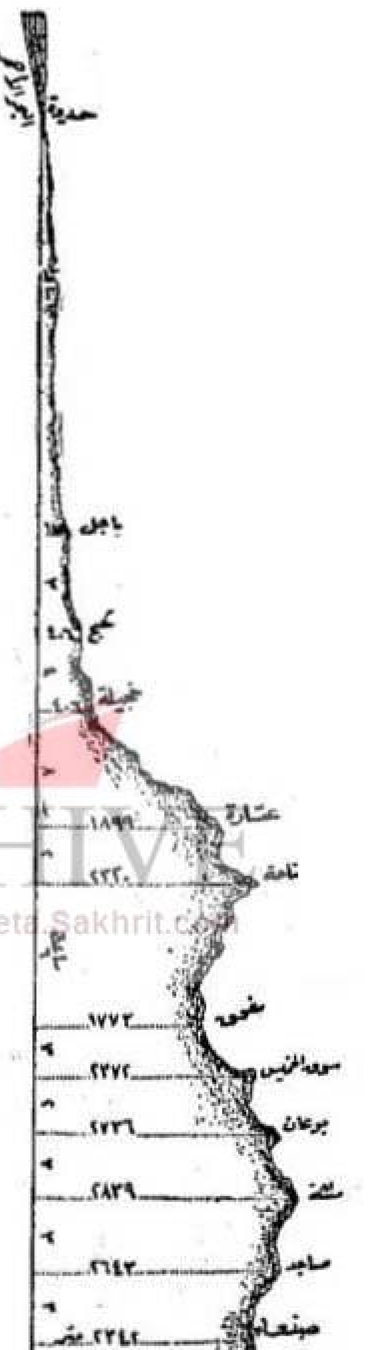
الزراعة : معيشة اليانيين قائمــة على الزرع والضرع . لكن زراعتهم الى حد الكفاف لا الى حد التصدير والتجــارة . وليس في اليمن من المحاصيل الزائدة والصالحة للتصدير سوى البن والجلود . وقد يصدرون قليلا من التبغ والسمن والسيرج واحجــار العقيق ، وعندهم اكثر انواع الحبوب والقطــاني والسمسم والتبغ والكمون واليانسون وقصب السكر والموز وبعض الاشجار المثمرة . ومن غرائب اليمن ان لكل من انواع الزروع اصنافاً شتوية وصيفية عديدة ومواسم زرع وحصاد متوالية تكادلاتنقطع في اكثر شهور السنة ، والمسافر في نجود اليمن واوديته كيفما اتجه وفي أي وقت اتجــه يرى هنا حقولا تبذر وهناك اخرى تسقى وتخدم وهناك اخرى تحصد وتدرس . وقد يكون كلها من نوع القمح أو الشعير أو الذرة ولكنه من اصناف عديدة تختلف في أيام بذرها وغوها وحصادها وكونها بعلية أو مسقية . وعندهم اكثر انواع الحبوب والخضروات واشجــار الفاكهة المعروفة . واجودهــا عندهم العنب ، فانه فاخر جداً . وبعض الانواع نادر الوجود كالبرتقال والليمون وبعضهامفقود كالزيتون والصنوبر والفستق والاكيدنيا والكرزفانهم يجهلونه . وقد جلبتهالهم وغرستها . على ان ابرك شجر مثمر في اليمن هو (البن) المنقطع النظير في العالم بجودته . لكن محصوله قليل لا يتجــاوز عشرة الاف طن . في حــين ان في اليمن

اما كن كثيرة صالحة لزراعته اهملت وخصصت لشجر (القات) الذي تحدثنا عنه وعن اضراره في العدد الماضي من هذه المجلة .

الصناعة : في اليمن صناعات يدوية بسيطة تفي بحاجاتهم كالسكافة والحياطة والحدادة والنجارة والصياغة والنسيج والبناء . ولهم في صنعة البناء مهارة كلية يرفعون بها دوراً وقصوراً شاهقة بدون طين ولا مؤنة . وكان لبعض مدن اليمن في القديم شهرة في نسج البرد اليمانية والاقمشة المحلية الكافية لهم . لكن مصنوعات الغرب ولاسيما مصنوعات اليابان الرخيصة التي غمرت اسواق العالم كله قضت عليها أو كادت .

وقد حاول بعض مواطنينا السوريين وفتحوا في احدى مدن اليمن واسمها باجل معملا للغزل والنسيج ، لكنهم اضطروا الى اغلاقه وتركه امام العراقيل التي لقوها .

التجارة : التجارة في اليمن ضعيفة لضعف قوة الشراء وفرط القناعة عند اليمانيين ، وهم يستوردون حاجاتهم عن طريق عدن والحديدة . وصادراتهم قليلة واخصها البن ثم الجلود والحبوب في سني وجودها . ومعظم التجارة في مينائي عدن والحديدة بيد اليهود والهنود . وليس في اليمن بنوك ولا نقود خاصة . بل العمدة في امر المبادلة على الريال النمساوي القديم الذي تاريخه سنة ١٧٨٠ وهو كثير التعرض لصعود السعر وهبوطه ومما يؤسف له ان الحالة الاقتصادية في اليمن رديئة



مقطع مستعرض لطريق القوافل بين الحديدة وصنعاء مع ابعاد كل مرحلة وعلوها عن سطح البحر

جداً فالبطالة منتشرة والفقر مدقع والاضطرار الى الهجرة والاغتراب شديد . يهاجر كل سنة من اهل اليمن الالوف المؤلفة الى عدن والارتيريا وأفريقيا الشرقية والغربية وغيرهـا . فتجد اليمانيين في كل بقاع الارض . يكدحون وراء العيش في اشق الاعمال واردأ الظروف الصحية . ويقدرون عدد هؤلاء المهاجرين بربع مليون .

المباني في المدن والقرى : ومن غرائب اليمن ان بلدانه وقراه لابد أن تبنى فوق قمم عالية أو وراء آكام مشرفة متوفية شروط التحصن والدفاع . ذلك لان اليمن قلما ذاق طعم الامن وخلا من الحروب والفتن . وهم اذا بنوهـا في ارض منبسطة ولم يجدوا هذه الشروط احاطوا البلدة أو القرية بسور من الطين أو الحجر وجعلوا للسور ابواباً محكمـة وقووه بالابراج المستديرة والشرفات والمرامي ، ولا تزال ابواب هـذه الاسوار في كل بلاد اليمن وحتى في العاصمة صنعاء رغم انتشار الامن تغلق من بعد صلاة العشاء ويمتنع الدخول والخروج منها فيسطها الجنود والحراس الى مطلع الفجر كأنهم في حالة حرب أو ادارة عرفية مستمرة . والدور تبنى من الحجر أو من الآجر واللبن وهي جميلة المنظر من الخارج ، وتكون ذات طبقات عديدة ربما بلغت الثلاثة والاربعة فتظهر عن بعد كناطحات السحاب .



محارب قبلي يماني بسلاحه الحديث

الاديان : الدين العام في اليمن هو الاسلام ، ومسلموه اما امامية زيدية من اتباع مذهب زيد ابن علي بن الحسين يقولون بوجوب الامامـة وتعينها في احد ابناء بيت النبوة الحائز على شروط خاصة . واما سنة شافعية من اتباع المذهب الشافعي الذين لا يقولون بحصر الامامة في آل البيت . وجميع سكان الجبال زيديون وجميع سكان تهامـة شافعيون . والسيطرة بيد الزيدية الذين كان منهم الأئمة

الحاكمون في اليمن . وثمة في قضاء حراز قليل من الاسماعيلية اتباع سلطان البهرة في الهند وهم غير الاسماعيلية الذين يؤلهون آغاخان . وكان اليهود يؤلفون عشر السكان ومنتشرين في كل مدن اليمن وقراه ويسكنون لوحدهم في احياء منعزلة ولهم زي خاص ومعاملة خاصة . وكان اكثر الصناعات النفيسة وبعض الخسيسة في يدهم ، لكنهم الان رحلوا الى فلسطين وانقطع دابرهم من اليمن.

الطبقات : من غرائب اليمن ان اليمانيين مازالوا منقسمين كما كانوا في عهود اجدادهم الى طبقات عدة هم السادة والفقهاء والمشايخ والعقال (جمع عاقل) وعيال السوق اى الباعة والصناع في المدن والقبليين في القرى . ولا تطلق كلمة السيد في اليمن الا على المنتسبين الى آل بيت النبوة ولا يجوز استعمالها لغيرهم ، والسادة في اليمن كثيرون تجدهم اينما ذهبت ، وهم القابضون على زمام الامور وكل العمالات والوظائف الدارة هي لهم مهما قلت معرفتهم وكفاءتهم .

والقبليون في اليمن هم اهل الحرث والزرع ومستقرون في قراهم ، وهم من اشجع الناس واصبرهم على تحمل المشاق ومكاره العيش وابرعهم في حروب العصابات في الجبال والصعائد والمهابط وما اكثرها واوحشها في اليمن! وهم في الحروب ينطلقون ويقفزون من المرتفعات والمنحدرات كالفهود . فلا تشعر كيف نبتوا من بين الجنادل والصخور ، يمشون نصف عراة ويدهنون ابدانهم بالنيلة الزرقاء وينفشون شعورهم التي لا تعرف المقص فيبدون بمنظر مخيف ،وهم يسابقون الرواحل في الجري ويحسنون الكر والفر والكمون والتحصن وتسديد الضرب بالبنادق والطعن بخناجرهم الطويلة العريضة المعقوفة التي يسمونها (جنبية) ، وقد صاولوا في زمنهم الجيش العثماني وارهقوه طوال عشرات السنين رغم شهرته بالبسالة وتفوقه عليهم بالسلاح والعتاد . وهم لايكبح جماحهم الا المدافع والقنابل ، وفي زماننا الطائرات ذات المقذوفات الفتاكة .

الالقاب : ومن غرائب اليمن ايضاً ان الالقاب الفخمة التي كانت تستعمل في عصور انحطاط دول الاسلام مازال لها رواج لا يحيدون عنها في تراسلهم وتخاطبهم . فكل سيد هو علامة وكل موظف كبير هو قاضي ، وكل من كان اسمه احمد هو صفي الاسلام وينادونه بالصفي ومن كان اسمه محمداً هو عز الاسلام وينادونه بالعزى . وكل ابن للامام يلقب بسيف الاسلام وكل امام هو امير المؤمنين وهكذا .

الملابس والازياء : ومن غرائب اليمن ان ازياء اهله في المدن وان كانت عربية ،لكنها لاتشبه ما في بقية الاقطار العربية .فالرجال في المدن يلبسون القنابيز الفضفاضة المسدودة من الامام ويجعلون اكمامها عريضة واسعة طويلة اذا تدلت تصل الى الارض وهم يشبكون هذه الاكمام وراء ظهورهم فتظهر كالحدبة . وهم لابد ان يتمنطقوا بمنطقة عريضة مرصعة عند مترفيهم بالفضة او الذهب يضعون في وسطها سكيناً عريضة يدعونها (جنبية) . ولابد ان يجعلوا على اكتافهم قطعة مستطيلة من نسيج الصوف او القطن يدعونها (لحفة) ويستعملونها لوقاية الرأس ايضاً . اما القبليون سكان القرى

فرجالهم نصف عراة يكتفون بمئزر (فوطة) تستر نصفهم وهم لابد ان يصبغوا هذه الثياب والفوط وابدانهم ايضاً بالنيلة الزرقاء ويعتقدون انهـا تنفع والبرد تدفع . واما نساؤهم فيمشين بأزيائهن ويستورهن السام نساء القرى في بقية الاقطار العربية . اما اللواتي في المدن فحجابهن شديد ، يتسترن بملآت تشبه ماللنساء في قرى غوطـة دمشق . والاثاث والرياش في بيوتهم لايزال على الطراز القديم فهم يفرشون الحصر والطراريح والسجاجيد الممتدة على الارض ويتكاؤن على المساند وهم لا يعرفون استعمال الكراسي والارائك ولا القعود وراء المناضد حتى في دواوين الحكومة ايضا.

المعارف: المعارف في اليمن مقتصرة كما قلت في فاتحة حديثي على الكتاتيب الاهليـة والمدارس الابتدائية الحكومية والمدارس الشرعية. ومن غرائب اليمن ان الامية قليلة فيه ، اى ان القارئين والكاتبين في مدنه وحتى عند القبليين في قراه كثيرون جـداً وبدرجة محمودة تدل على ذكاء اليانيين واستعدادهم . وهنـاك المدارس الشرعية المجاورة لاكثر الجوامع والمساجد ينشأ منها قضاتهم وفقهاؤهم وادباؤهم . وهؤلاء ايضاً كثر وبدرجة محمودة . وان كان كل ذلك من طراز الازهر قبل قرن ومحروم من العلوم العصرية واللغات الاجنبية . اما المدارس الحديثة من متوسطات وثانويات وجامعات بالمعنى الذي نعرفه فهي مفقودة ، وهم لو سدوا هذا النقص بارسال البعثات من شبابهم الى مصر او العراق او الشام لهان الامر وحصل عندهم رجال مثقفون يملأون الثغرات الملحوظة في دوائرهم ومرافق حياتهم . لكنهم لم يفعلوا ذلك الا منـذ سنين قليلة وبعد الحاح الناصحين من ذوى الغيرة القومية في الاقطار العربية . فبعثوا بعدد من هؤلاء منهم من اكمل تحصيله ومنهم من ارجعوه قبل ان ينتهي خوفاً من ان يتشرب مبـادىء تقدمية تحررية تقلق بال اولياء الامر هناك ، ولهذا السبب لم ينشأ في اليمن من ابنائه حتى الان طبيب ولا مهندس طرق ولا مهندس زراعي او صناعي ولا حقوقي ولا سياسي يفهم الديبلوماسية العالمية ولا ضابط ركن مكمل للعلوم العسكرية ولا طيار ولا ترجمان يعرف لغة اجنبية يخاطب الاجانب الذين يفدون عليهـم ولا أي صاحب اختصاص في فن من الفنون الحديثة . وهم اذا احتاجوا أو اوحي اليهم بأن يحتاجوا احداً من هؤلاء يستعيرونه من احدى البلاد العربية أو الاجنبية . وهؤلاء مهما فعلوا لاتطول اقامتهم اكثر من نصف سنة او سنـة ثم يعودون وهم يرددون الحوقلة والحسبلة . وفي زمن وجودي هناك كان في اليمن كله جريدة صغيرة واحدة اسمها « الايمان » تصدر في الشهر مرة خاصة بنشر الشؤون الرسمية وقصائد المدح والتهنئة لمن تزوج او سافر او عاد من سيوف الاسلام ابناء البيت المالك. ولم يكن هناك الا القليل النادر ممن تأتيه الصحف العربية المصرية او السورية ، لذلك فان اليانيين كانوا في عهد الائمة في راحة من سماع مايجري في العالم من الاحداث المقلقة والتطورات المزعجة ، وفي راحة عن رؤية السينما والقعود في المقاهي والملاهي واستعمال آلات العزف والطرب لان كل ذلك كان ممنوعاً ومفقوداً وقتئذ .

طراز الحكم والادارة في اليمن : كان اوتوقراطياً (استبدادياً) وثيوقراطياً (روحانياً) على نهج العصور الغابرة المندرجة في كتب التاريخ

فالامام الملقب بأمير المؤمنين المتوكل على الله كان يجمع السلطتين الروحية والزمنية في يده. فسلطته الروحية شديدة الى ابعد حد بحكم شروط الامامة ومقتضياتها في المذهب الزيدي ، فهو امام معصوم مفترض الطاعة مهما عمل ، كما ان سلطته الزمنية تشمل كل كبيرة وصغيرة بحكم المركزية الشديدة التي يتمتع بها وتصل حدودها الى اقصى ناحية واصغر مدرسة وثكنة فهو الكل في الكل في جميع الشؤون ، هذا على رغم وجود مايشبه الوزارات والنظارات في يد بعض ابنائه، او بعض السادة من اقاربه ، لكن الحل الاخير في كل شاردة وواردة يعود اليه حتماً . وكان اذا مرض الامام تعطلت كل الاعمال الحكومية ومصالح المراجعين من اجانب ووطنيين حتى يشفى الامام ويستأنف العمل . والالوية والاقضية والنواحي يتولاها موظفون يدعون (عمالاً) يسيرون على نهج صاحب الجلالة في الحكم والاشراف المطلقين . اما القضاء ففي يد قضاة الشرع . واحكام هؤلاء مبرمة في الغالب . منها ان القاتل يقتل والسارق تقطع يده . والاشقياء العابثون بالامن والمشتغلون بالسياسة السلبية تقطع رؤوسهم والسارقون تقطع ايديهم وارجلهم ، واكثر المسجونين والمعتقلين بصفة رهائن يرسفون بالقيود الحديدية مدى الحياة .

اما الجيش في اليمن فقد كان مؤلفاً من جنود مرتزقة عليه اعتماد الامام في توطيد الامن الداخلي وقمع فتن القبائل ، وهو اشبه بالدرك . وراتب الجندي خمسة ريالات في الشهر له ولاسرته . ولثمن القات الذي لابد منه . وهو اذا ذهب بحملة عسكرية فطعامه على اهل القرى التي يمر بها . واذا اطلق الرصاص عليه ان يجمع القراطيس ويعيدها الى المستودع . واذا مرض او جرح فاجرة مداواته تقطع من راتبه . هذا الى ان ضباط هذا الجيش وقواده وضباطه وسلاحه وعتاده من مخلفات الجيش العثماني القديمة . وليس في الجيش اليماني احالة على التقاعد عند بلوغ السن . فكل جندي او ضابط يجب ان يخدم من المهد الى اللحد . وقد كنت ارى اثناء العرض الجد والابن والحفيد يمشون في حظيرة واحدة ويشدون على اشداقهم (الزامل) اي النشيد الوطني اليماني الذي يمجد الامام ويهدد من تحدثه نفسه بمعصية الامام . بقي في ذاكرتي منه قولهم :

يامن يخالف امر مولانا ويعصيه	لابد من يوم تراه
لابد من يوم يشيب الطفل فيه	والطير يرسي في السماء ... الخ

وبعد ، هذا غيض من فيض مما يمكن ان يكتب عن غرائب اليمن . اكتفي به الان وارجو لليمن ان ينفض عنه غبار الماضي الآسن الذي كان ملتحفاً به وان يخطو خطوات سريعة مسددة في ركب الحضارة الحديثة التي تأخر عنها كثيراً ليلحق باشقائه بقية الاقطار العربية ويكون من دعائم وحدتها الشاملة ومنعتها الكاملة ان شاء الله .

الآداب

الكتاب والموضوعات

خصائص الأدب العربي

للدكتور يوسف العش

نحن العرب ابناء الماضي كما نحن أهل الحاضر . طبعنا الماضي بطابعه القوي ، وكان له اثره الشديد في تكوين شخصيتنا ، فما احرانا بأن نعرف خصائص ذلك الماضي لنبحث عنها في اعماق نفوسنا . ينبغي لنا ان نعرف خصائص لغتنا وادبنا وتاريخنا وارضنا لنرى اثر ذلك في شخصيتنا . فليسمح لي بأن اساهم بتلك المعرفة. فأحاول ان ادرس هنا خصائص الادب العربي.

ولست ادعي الاختصاص في الادب ، فلست الا قارئاً له ، وقد كنت قارئاً مدمناً اطلعت من الادب العربي القديم على اكثر كتبه المطبوعة ، ورأيت من كتبه المخطوطة عدداً كبيراً . ولن اتناول خصائص الادب العربي اذن كما يتناولها المختص الذي يعرف اجزاء الموضوع ويتعمق في الاجزاء تعمقاً كبيراً ، بل اتناولها في عمومياتها بالمقارنة والتفكير والتبصر والملاحظة .

يخيل لي ان الادب العربي يجمع خصائص يتصف بها فيتميز عن غيره من الاداب بانها عريقة فيه متمكنة منه مجتمعة مترامية في اتجاهه . ولا يعني هذا الكلام ان غيره من الاداب خال منها ، لكن الذي يعنيه انه غني منها متمكن فيها حريص عليها ، متميز بها .

الادب العربي يتصف خاصة بأنه ادب المعرفة والتهذيب والتوحيد والروح.

وتلك الفاظ انسيها اليه مطمئناً واثقاً . واني اعرف ان القارىء سيقف عندها بل قد يظن بعضهم بها الظنون فيحسبها قولا زين او رأياً حبب ، مع انها وصف اردته دقيقاً وتعبير قصدته صحيحاً .

الادب العربي ادب المعرفة حقاً ، فليس من الآداب ما قد جمعت فيه المعارف كما جمعت في الادب العربي . ولنذكر قول ابن خلدون عن الاديب وانه من اخذ من كل علم بطرف وكان الشعر في العصر الجاهلي ديوان العرب اي مجمع علمهم ، ثم اختص الشعر بشيء من نواحي المعرفة واخذ الادب النثري على عاتقه أن يكون ديوان العرب في علومهم وفنونهم ونواحي القول عندهم . اقرأ محاضرات الادباء للراغب الأصبهاني وربيع الابرار للزمخشري تجد فيها كل ابواب العلم والمعرفة . انك لترى الطب ملخصاً فيها ناهيك عن الفقه والحديث والفلسفة والكلام . وخذ كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه ونثر الدرر للآبي ترها تعرض خمسة ضروب من فنون الادب .

١ — حكم وامثال اخذت عن الفلاسفة من القدماء وذوي البصيرة والرأي من العرب ، وهي حكم ولدها حسن القريحة وصفاؤها وصدق التجربة وقوة الخبرة والفطنة .

٢ — تحليل لطبائع الانسان وعرض لحياته الاجتماعية بين الطبقات والمهن والصنائع .

٣ — وصف للكائنات الحية والنباتات وحوادث الطبيعة وجهات المعمورة .

٤ — قصص صغيرة فيها الكلام على السنة الحيوانات ، وفيها الاراء الدامية والفلسفية ، وفيها النوادر واخبار العلماء والاعلام .

٥ — وصف للشعور الانساني من حب وغضب ولهو وفرح وترح .

وترى في خلال ذلك معارف ذلك العصر وقد نثرت نثراً لطيفاً وبدت في حلة قشية.

وكان من اثر العناية بالمعرفـة في الادب وكان من لوازمها ان تحرر الادب العربي من الخرافات وأثر القوى الطبيعية الخفية تحرراً جيداً اللهم الا بعض رواسب بقيت فيه من العصر الجاهلي في امثاله وبعض اقاصيصه . بل مج الادب العربي الخرافات ايما مجمج ، فاهمل اخذها من الادب اليوناني على جمالها وروعتها ، بل كاد يهمل ذلك الادب لاجلها ولاسباب اخرى .

الحق ان الادب العربي يقف عند الحقيقة ، والحقيقة هي من وراء المعرفة ، يقف عندها مع بعض المبالغة في تصوير الواقع زيادة في التمثيل والاظهار والابراز .

والادب العربي أدب التهذيب يبني حقل العقل وتهذيب النفس .واسمه دليل عليه .

فالادب تأديب وتهذيب . واثر الاخلاق في الادب العربي واضح كل الوضوح ، فجانب الحكمة والخلق الحسن فيه كثير ، ولعل من اهم ما خلفه الادب العربي لنا حكمه البليغة التي توجـه الانسان توجيهاً عملياً اخلاقياً . وقل ان تجد شاعراً لا يحاول ان يلقي الحكمة والدرس في شعره . بل هو ان امتدح انساناً امتدح الفضيلة في شخصه وخلدها في حكمته . ولا يعني هذا ان الادباء كانوا دوماً مثالا للاخلاق الفاضلة فقد كان منهم من اشتطوا في الناحية الاخلاقية وكان منهم دعاة خفيون الى الرزيلة ، لكن النزعة التي سادت الادب وطبعته بطابعها هي نزعة اخلاقية فاضلة . ولم يجسر الشعراء والكتاب على مـدح الرذيلة وتأييد الشرور في اقوالهم المأثورة الا في امثلة قليلة لا يعتد بها .

والخاصة الأهم للادب العربي أنه أدب التوحيد . وهي خاصة تغلب على غيرها من خواصه وتمثله خير تمثيل . اتخذ الادب العربي طريقه ليكون موحداً متساوياً شبيهاً لنفسه في كل مـكان وزمان . فلم يلف في طريقه شيئاً يبعده عن هذه الخاصة الا حاد عنه واهمله . والذي يبعده عن ان يكون واحداً موحداً هو أن يمثل زمناً معيناً أو مكاناً محدداً أو بيئة خاصة ، فانه اذا مثل ذلك تعدد واختلف واصبح خاصاً ، وهو انما يبغي ان يكون عاماً موحداً . ولقد آثر الادب العربي ان يضحي بعناصر مهمة من عناصره على أن تشوب وحدته ، وهكذا ابتعد عن التعبير عن الشعور الشخصي الخاص للمتميز وعن الحالة الزمنية المتميزة وعن البيئة ذات الصفات الخاصة .

وأول ذلك انه لم يكترث بالتعبير عن الميول التي هي نتيجة نتاج

الطبيعة الشخصية المتميزة في جوهرها او التي هي نتيجة العنصر والاقليم . وهكذا ضاعت فيه شخصية الشعوب التي اشتركت فيه ، فلا تميز فيه شخصية الفارسي وميوله وعواطفه عن شخصية العربي ، والاندلسي عن التركي ، والجركسي عن الافغاني ، فكل هؤلاء شعورهم واحد وحبهم متشابه وتقديرهم للجمال متماثل ورغباتهم واحدة . وليس في الادب العربي تعبير عن العواطف الشاذة الا قليلاً ، ذلك أن الشعراء والكتاب درجوا على ان يقصروا تعبيرهم على العواطف العامة التي لا يتميز فيها انسان عن انسان أي العواطف الانسانية المطلقة المجردة .

ثم أن الادب العربي تجنب ايضاح الحالة الزمنية وصفات العصر الذي تخرج فيه القطعة الادبية ، فلا اثر فيه للنزعات العصرية والميول الوقتية ولمشارب اهل العصر ورغباتهم الا قليلاً . فالزمن لا يأخذ في الادب العربي مكاناً الا نادراً . وهذا لا يعني انه يتجنب الاشارة الى الحوادث التاريخية او الزمنية او الى اشخاص معينين ، لا نهو في هذا دقيق واكثر قصصه مأخوذة من الواقع ومروية كما جرت ، لكنها قصص كان من الممكن ان تقع في أي زمان وأي عصر فقد اختيرت على انها تمثل حالة المسلم عامة والعربي خاصة وتمثل ميوله وعواطفه في كل زمان .

وبعد كل هذا امتنع الادب العربي ان يعنى عناية خاصة ببيئة الاديب وان يحلها المحل اللائق بها ، فلا تجد فيه تعبيراً واضحاً عن الصفات الخاصة للجماعة المحيطة بالاديب وعن الاطار المادي في ميزاته وخاصته ، بل اذا وصف الاديب الجماعة وصف كل جماعة ، واذا وصف شيئاً وصفه لا بما يميزه عن غيره من نوعه بل بما يجعله شبيهاً لغيره في بيئة اخرى . فاذا وصف بستاناً وصف البساتين جميعها وتجنب ان يصف ذلك البستان بالذات .

وقد يبدو كلامي في هذا عجيباً بل قد يصرخ بعضهم احتجاجاً . لكني مشير على القارىء برأيي . فخذ اكبر عدد من القصائد والرسائل والقصص والمقامات والحكم والامثال وانتزع منها الاشارة الى الحوادث التاريخية او المحلية وانظر فيها بعد ذلك ، انك تراها قد سرت على اي زمن من ازمنة التاريخ العربي او اي بلد من بلدان العرب او أي حالة فيها .

ان هذا التجنب للتعبير عن العواطف الشخصية المتميزة والحالات الزمنية الحاضرة والبيئة المحلية حد افق الادب العربي ، فاصبحت موضوعاته اجمالاً عامة مطلقة تصدق على كل زمان ومكان وبيئة ، واصبح وصفه يقتصر على النواحي التي تتشابه في الامكنة والازمنة واصبحت عواطفه هي العواطف العامة المطلقة . وهكذا ضاقت مادته وضاقت ناحية التجديد فيه .

لكن هل يعني هذا انه اصبح ادباً جامداً ؟ لا بل هو أدب له عبقريته وقوته . تلك العبقرية تظهر بارزة في النواحي التي حصر نفسه فيها ، فهو ان لم يدرس الحالات الفردية أو المحلية أو الزمنية دراسة تقصد وتوسع فهو يجيد في وصف عواطف الناس المتحدة المتشابهة وأرائهم التي تسري في كل زمان ومكان ، وهو ينبغ في وصف الاشياء في نواحيها المشتركة اينما كانت وحيثما وجدت : يجيد في ذلك تجويداً خاصاً ، فيصفها بأبرز شكل من أشكال التمثيل والتشبيه والتعريف لقد وفق في ذلك والحق يقال خير توفيق ، فان له تعابير وتمثيلات ومجازات تفصح خير افصاح عن الآراء والميول والعواطف والاوصاف المطلقة المجردة عن الزمان والمكان والبيئة ، وهو يعبر عنها تعبيراً قل أن يبلغ ادب درجتها . وفي هذه التعابير كان يتبارى الكتاب والشعراء ليظهروا تفوقهم وبراعتهم . بل كان المأمون يسأل النضر بن شميل عن اخلب بيت قالته العرب وعن انصف بيت لهم وعن اقنع ماقالوه ويسأل الواثق عن أحسن ماقيل في اصحاب النبيذ . بل كان أبو أحمد العسكري يقول ان امدح بيت قالته العرب هو قول النابغة الذبياني :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب
بانك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ويختصم النقاد فيما بينهم على ذلك فلا يستقرون على شيء .

وقالوا افخر بيت قالته العرب قول جرير

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناس كلهم غضاباً

وقالوا أصدق كلمة قالتها العرب للبيد (الا كل شيء ماخلا الله باطل) الخ .. فهم يسألون ويتناقشون عن المعاني العامة حتى كتب أبو هلال العسكري كتابه الذي اسماه « ديوان المعاني » فجمع كل طريف وجميل وبديع .

على أن الادب العربي ينقض ما قلناه في حالة واحدة وهي موقفه من حياة البدو والصحراء ، فقد أثر فى هنا أن يكون محلياً زمنياً وأن يترك الاطلاق والتجريد . وسبب هذا أنه لم يستطع أن ينكر نشأته الأولى قبل الاسلام ، تلك النشأة التي حدثت في البادية وطبعته بطابعها البارز القوي . واذا كان فالادب العربي ليس فيه مكان للاقليميات أو للحالات الخاصة غير المطلقة وهو ادب يرمي الى الاطلاق والى الحقائق العامة التي تصدق في كل زمان ومكان ويفهمها كل انسان وغايته في ذلك التقريب والتوحيد والابتعاد عما يقوي التخالف ويورث التمييز .

وبعد، فالادب العربي أدب الروح بمعنى أنه روحاني النزعة ، فهو وان كان أدب المعرفة

يطلع بها الانسان على جوانب الحياة فهو يلون تلك المعرفة تلويناً روحياً ، وهو يمزج نظرته الى الاشياء بقيمتها الروحية ، فاذا أراد مديح رجل مدحه بالصفات الروحيـة كالكرم والشجاعة والمروءة والاناة والعفو والصبر ، ولم يمدحـه بالمال والقصور والملبس والجسم . واذا تكلم عن الحيوان أو الحمار رأيته ينشد من كلامـه عظمة الخالق وقدرته وهو ادب يتحدث الى العاطفة اكثر من العقل لا ليجمح بها بل ليسمو بها نحو المثل الروحاني الاعلى ، وهو ينحو نحو الابهام في تعابيره وعدم الدقة ، فطرائقه غير رياضية في الايضاح والشرح والتعليل بل هي روحية فالذي فيه نظرات متفرقة قد لاتجد الصلة بينها ، وهي على كل حال لاتشرح شرحاً وافيـاً . ويعتمد الاديب على انطلاق النفس من المبهم المادي الى الحقيقة . على ان الابهام تصحبه نظرات عميقة تثير النفس في تأملات شديدة تهزها هزاً .

والادب العربي يتكلم الى الروح ايضاً من خلال موسيقى اللفظ ، تلك الموسيقى التي تهز اوتار القلوب . ومعلوم أن الشعر العربي مبني على الايقاع كما بنيت الموسيقى عليه وواضع العروض العربي هو واضع الموسيقى العربية وضعهما الخليل على قواعد متماثلة الاصول والترتيب .

وزبدة القول أن الادب العربي ينصب نفسه معلماً للناس الحياة ومافيها ،مهذباًومؤدباً ،وهو ينمو نحو الاطلاق والتجريد في آرائه واتجاهاته ونزعاته بقصد التعميم دون النظرة المحددة بالزمان والمكان والبيئة ليكون موحداً للناس ،وفاقاً بين مشاعرهم وآرائهم ، وهو يلون نظراته تلويناً روحياً ليسمو بالنفس سمواً روحياً .

ولا يأخذن القارىء علي امثلة مخالفة لما اقول ، فانما أنا اقصد الاجمال لا التفصيل والصفات العامة لا الشواذ والشخصية التي رجحت لا تلك التي كانت تريد ان تشق الطريق لنفسها ، فلكل شخصية لها كبوتها وكل صفة لابد ان تعثر . وما يصدق في اكثر الاحيان لايصدق في كل حين .

والادب العربي اراد أن يعرف كل شيء وأن يعلمه الناس علماً مهذباً ، اراد أن يجمعهم على الحقيقة الموحدة والمطلقة اراد أن يسمو بهم في مجال الروح كي تنطلق نفوسهم بعد ان انطلقت عقولهم بالعلم والمعرفة .



ادب الهجرة

من أجل الحرية

تقلم انور الجندي

واجه العالم العربي مرحلة عسيرة من مراحل الكفاح ، وقف فيها فريق من المجاهدين موقف الخصومة للاستعمار ،وهي خصومة كلفتهم النزوح عن ارض الآباء والاجداد، والهجرة الاضطرارية عن اوطانهم الى ارض غريبة ، وطال هذا الاغتراب بالنسبة لبعض منهم ، حتى غابت شمس حياتهم خارج اوطانهم في ظلال قاتمة من المرض والحرمان والاسى . واتيح لبعضهم ان يعودفلا يلبث ان يوافيه الاجل كأنما هو مع العودة على موعد ، وقدر لآخرين ان يعودوا دون أن يطول بهم أمد الهجرة فيستأنفوا كفاحهم من جديد ، وأجد امامي بعض هذه الصور والنماذج في ادبنا العربي المعاصر ممثلة في « البارودي » رب السيف والقلم الذي حكم عليه بالنفي بعد الثورة

العرابية فامضى زهرة حياته في سرنديب فلما عاد بعد سبعة عشر عاماً كان بصره قد كف. وكان اهله قد غادروا الحياة من فرط الانتظار، وشوقي الذي نفته سلطات الاحتلال من مصر في اوائل الحرب العالمية الاولى فاختار الاندلس فاقام بها خمس سنوات مستطار اللب اذا البواخر رنت أو عوت في اعماق الليل، لايني مشوقاً الى الكنانة حتى عاد بعد خمس سنوات، والامير شكيب ارسلان الذي امضى خمسة وعشرين عاماً في سويسرا محالا بينه وبين دخول وطنه في لبنان، بل وبعض عواصم العالم العربي، والشيخ محمد عبده الذي نفي بعد الثورة العرابية فاختار بيروت ثم سافر الى باريس فاخرج بها مع استاذه الافغاني مجلة العروة الوثقى ثم عاد مرة اخرى الى الشام حتى اذن له في العودة فاستأنف جهاده من اجل تحرير الفكر وتجديد الدين، وعلي الغاياتي الشاعر الوطني الذي كان ديوانه «وطنيتي» مصدر قلق للاستعمار حكم من اجله عليه وعلى محمد فريد وشاويش بالسجن. فاضطر الى الهجرة قبل الحكم فاقام في سويسرا يصدر مجلته «منبر الشرق» حتى اتيح له أن يعود من بعد اربعين عاماً.

وحديث الهجرة طويل فقد هاجر الشيخ عبد العزيز شاويش أبان الحرب العالمية الاولى ثم عاد بعد الهدنة، وهاجر الزعيم محمد فريد بعد ان اشتد الحصار حوله من اجل مطالبته بالدستور فاضطر الى السفر واختار الاقامة في برلين وظل بها وقد اعتوره المرض القاسي، ولم يكن من اليسير له أن يجد ثمن الدواء احياناً، وقد صمم على أن يموت دون ان يعود الا على اعلام الحرية، ورفض أن يقول كلمة تعيده الى وطنه وتكفل له تولي الوزارة.

وكذلك هاجر كثيرمن الاحرار الابرار من سورية والعراق أبان الحكم العثماني واختاروا مصر وغيرها، وربما اقام منهم بها من اقام، من هؤلاء من الكتاب محمد كرد علي وعبد القادر المغربي ورفيق العظم وعبد الرحمن الكواكبي وطاهر الجزائري، كما هاجر الزهاوي من العراق فترة، وهاجر عبد المحسن الكاظمي هجرة طويلة اقام خلالها بالقاهرة لم يبرحها حتى ادركه الموت، وهاجر رشيد رضا من الشام الى القاهرة حيث اصدر بها المنار.

أما هجرة امثال جمال الدين الافغاني فتلك قصة طويلة، لنضال عسير بين رجل اعزل حال الاستعمار دون أن يقر في وطن من أوطان العروبة والاسلام، مطارداً اياه طراداً عنيفاً.

وفي المغرب العربي كانت الهجرة متصلة، هاجر سليمان الباروني ومن قبله خير الدين التونسي،

وعلي باش حمبة ، وكانت هجرة عبد العزيز الثعالبي قصة طويلة من النضال فقد امضى اكثر من ثلاثين عاماً لايدخل تونس ، ومن هؤلاء الاحرار محمود الشنقيطي والخضر حسين وعلال الفاسي والبشير الابراهيمي وابراهيم الاطفيش ..

وقد ترك هؤلاء صفحات مشرقة من كلمات النضال ودعوة الحرية .. وكانوا اعلاماً في مجالات الفكر واللغة .

وقد تلاقت هذه الزعامات في اكثر من مجال ووطن عربي ، والتقى اغلبها في القاهرة حيث امتدت الهجرات من الشام والعراق ومن تونس والجزائر والمغرب وانصهرت جميعا في بوتقة الفكر العربي الذي استطاع ان يمزج بينها جميعاً في مجال الايمان بالشخصية العربية والثقافة العربية الاسلامية واللغة والقيم والتاريخ على نحو جدير بالدراسة المستفيضة .

وامامي الان ثلاث صور : ثلاث هجرات ، وربما اتيح لي أن اتابع صوراً اخرى فيما بعد .

هجرة الشيخ عبده

امامي صورة الشيخ محمد عبده في هجرته .. وقد اضطر الى ترك القاهرة فالتفت الى الشام ، فيمم اليها في ديسمبر ١٨٨٢ ، وكان قد اختارها مع طائفة من زملائه الذين شاركوا في الثورة العربية ومنهم ابراهيم اللقاني ، فاقام في بيروت ، ثم غادرها الى اوربا حيث التقى باستاذه الافغاني فاصدرا مجلة «العروة الوثقى» في ثلاثة عشر عدداً صدر اولها في ١٣ مارس ١٨٨٤ ، فلما توقفت عاد كرة اخرى الى بيروت حيث تصدى للتعليم والارشاد ، وكان يقرأ التفسير في الجامع الكبير ، وفي جامع الباشورة ، ثم دعي للتدريس بالمدرسة السلطانية لاحياء اللغة والدين ، فأدخل اليها علوم التوحيد والمنطق والتاريخ الاسلامي والمعاملات في الفقه الحنفي ، وقرأ للطلاب فيها من علم الكلام قسما من اشارات ابن سينا ، كما قرأ في المنطق كتاب التهذيب .

فلما انتهى العام القى كلمة في ختام الدراسة تحدث فيها عن تأخر الشرق مع وجود كل الاسباب التي تعين على تقدمه .

وفي خلال هذه الفترة كان الشيخ محل حفاوة المثقفين والشباب ، ففي المسجد كان الزحام يبلغ اشده حينما يلقي حديثه ، وفي بيته كانت طوائف من الفئات المتنورة تردد اليـــه كل ليلة

يتمعون اليه ويتحدثون معه .. واتيح له في مهجره ان يكتب عديداً من الفصول للصحف " وللتوجيه التربوي ، ومنها رسالته في اصلاح التعليم الديني التي وجهها الى المشيخة الاسلامية وأتم يرحل الى بيت المقدس ودمشق الشام وبعلبك وطرابلس ، وان يتجول في انحاء لبنان .

غير ان طريقته في المدرسة السلطانية لم تعجبهم وربما حرش النفوذ الاجنبي على اقصائه احمد عيسى الازهري مدير المدرسة ثم استبدلوا الشيخ عبده بغيره والغوا مناهجه التي استحدثها.

ولقد واجه الشيخ عبده في بيروت أزمة نفسية عندما توفيت زوجته الاولى وتركت له بنتاً في النفاس ولم تكن في بيته انثى تقوم باعبائه ، فاغتم لذلك وانقطع عن التدريس اياما فلما عاد وكانت الحصة هي الاثناء استهلها بهذا البيت :

تعز فان الصبر بالحر أجمل   وليس على ريب الزمان معول

ثم تأهل من بيروت واهله هي كريمة الحاج سعد حمادة اخي الحاج محيي الدين حمادة . وكانت حياته هناك بسيطة فقد كان يكره السرف والترف ، مع سخاء في النفس وحب للبر ، ينفق كل ما يصل اليه ويمد سماط الاكل في محل الاستقبال ويدعو كل من حضر اليه ، وكان الى ذلك ابياً عزوفاً الوفاً لا يقبل من احد شيئاً ، ومما وصفه به السيد رشيد رضا انه كان يقف لكل من يزوره ويقول : انا لست ممن يقول اذا وقعت الالفة ارتفعت الكلفة .

وقد وصفه سعيد الشرتوني صاحب اقرب الموارد فقال : هذا الرجل اذا تكلم يخرج النور من فيه ، وقد كان الشرتوني من احب اصدقائه ، وكذلك الشيخ عبد القادر القباني صاحب مجلة ثمرات الفنون .

ولعل آية ما جمع الناس الى الشيخ عبده في بيروت انه كان يخاطب الناس على قدر عقولهم ويرضي سنيهم وشيعيهم ودروزهم ومسيحيهم ومسلمهم فكانوا يجتمعون اليه جميعاً ، فما ينتقص من مذهب او ملة او دين ، ومن ثم بدأ في نظرهم في صورة غير ما كانوا يظنون عليه رجال الاسلام من التعصب . وقد بلغ من حبهم له انهم كانوا يتزاحمون على مورده ، ويحفظون كلامه ، ويقلدون لفظه حتى لقد قيل ان كثيراً من الافكار والمبادىء والالفاظ والجمل السائدة في بر الشام هي من بقايا آثار مجالسه ، ومما يذكر ان الشيخ عبده كان يومئذ في سن الثامنة والثلاثين .

هجرة البارودي

اما البارودي « رب السيف والقلم » فقد كانت هجرته عسيرة ورحلته شاقة فقد بلغت غاية المطاف ، هناك بعيداً في سيلان وامتدت مع

الزمن ستة عشر عاماً ، فقد غادر مصر بعد ان استبدل حكم الاعدام عليه بالنفي المؤبد في ٢٧ ديسمبر ١٨٨٢ فبلغ ميناء كولومبو في يناير وكان في سن الخامسة والاربعين شاعرا جهيراً ووزيراً خطيراً ..

وقد كانت هجرته بعيدة المدى في شعره ، وكان شعره هو العزاء الوحيد في ازمة العمر وفي المنفى ، نعي اليه كثير من احبابه ، واصدقائه ، وزوجته ، ووقع الخلاف بينه وبين زملائه في الثورة فغادرهم ١٨٩٠ الى مدينة كندي في جزيرة سرنديب .. التي نظم فيها اغلب شعره وكان لجمال مناظرها اثر عميق في نفسه وفيها التقى بالناس الذين دعاهم الى الاسلام والقى فيهم خطبه الدينية ، وقد مالت نفسه الى التصوف والزهادة بعد ارتطامها بالاحداث وشعوره بأن العود عسير ...

وهو لا يلبث منذ اللحظة الاولى يصور مشاعره :

فان اك فارقت الديار فلي بها ... فؤاد اضلته عيون المها عنى
ولما وقفنا للوداع واسبلت ... مدامعها فوق الترائب كالمزن
اهبت بصبري ان يعود فعزني ... وناديت حلمي ان يثوب فلم يغن

ولما ماتت زوجته رثاها بشعر لا يزال من روائع شعر الرثاء

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي ... تقوى على رد الحبيب الغادي

وتعاوده الاشواق فينادي :

ياحبذا جرعة من ماء محنية ... وضجعة فوق برد الرمل بالقاع
ونسمة كشميم الخلد قد حملت ... ريا الازاهر من ميث واجراع

وهو لا يلبث ان يضطرم في قلبه الشوق فيقول :

ردوا عليّ الصبا من عصري الخالي ... وهل يعود سواد اللمة البالي
ماض من العيش ما لاحت مخائله ... في صفحة الفكر الاهاج بلبالي
سلت قلوب فقرت في مضاجعها ... بعد الحنين وقلبي ليس بالسالي
لم يدر من بات مسروراً بلذته ... اني بنار الاسى من هجره صالي

ابيت منفرداً في راس شاهقة　　مثل القطامي فوق المربا العالي
اذا تلفت لم ابصر سوى صور　　في الذهن يرسمها نقاش امالي
تهفو بي الريح احياناً ويلفحني　　برد الظلال ببرد منه اسمالي

وهو يشكو الوحشة والغربة :

لا في سرنديب لي الف اجاذبه　　فضل الحديث ولا خل فيرعى لي

وتمضي ايامه في اواخرها مليئة بالالم والاسى على فراق الاحبة ، ثم تتكشف الصور عن روح من الزهادة والاتصال بالله واسترواح الرضى بالقضاء فيعلم الناس الاسلام ويتعلم الانجليزية ويرود المساجد . ويتوفر على الشعر حتى يجعله بغية الحياة . ولكنه مع هذا التحول في نفسيته لا ينسى اباءه وعزة نفسه .

عفاء على الدنيا اذا المرء لم يعش　　بها بطلا يحمي الحقيقة شده
واني امرؤ لا استكين لصولة　　وان شدسا قي دون مسعاي قده

ولم يمنعه عشيان بصره من أن تظل نفسه مليئة بالكرامة والعلاء ..
فاذا عاد الى مصر في اوائل عام ١٩٠٠ لا يلبث ان يقول :

ابابل مرأى العين ام هذه مصر　　فاني ارى فيها عيوناً هي السحر

هجرة الامير شكيب

اما الامير شكيب أرسلان فقد كانت هجرته ذات اثر ضخم في الادب العربي المعاصر وفي الحركة العربية والكفاح العربي من اجل الحرية والوحدة ، ويبدو ان التحدي الذي لقيه بمعارضة الفرنسيين لبقائه في وطنه لبنان قد وجد منه مواجهة ضخمة عريضة خلال اكثر من عشرين عاماً (١٩٢٥ - ١٩٤٦) فقد كتب الوف الصفحات في الصحف المصرية والعربية وعشرات المذكرات في المجالات الدولية وقام برحلات متعددة منها رحلة الى جنوب اوربا والاندلس ومئات الصفحات من التعليقات على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » وآلاف الرسائل التي بعث بها الى اصدقائه في

العالم العربي بما تعد وحدها ثروة ضخمة فضلاً عن مجلتـه الامة العربية التي اصدرها بالفرنسية ١٩٣٠ .

وقد ظل بيته في لوزان مباءة العرب وموسماهم ، فما من زائر لاوربا الا تجده ميمماً هناك ، من المشرق جاء ام من المغرب .

اما الامير شكيب فقد كان حفيا بأن يواجه هناك كل مايتصل بالعرب من مسائل السياسة او التاريخ ويشارك في كل القضايا ، فيرد على المفتريات ويصحح الاخطاء ويسعى متنقلا بين العواصم داعيا للعرب ، وقضاياهم ، محركا الضمير العربي ، منذراً ومحذراً ، وكان العرب يثقون به ويرسلون اليه كل مايتصل بقضاياهم ، ودعاه عرب المهجر عام ٩٢٧ الى زيارتهم فقصد الى نيويورك وترأس مؤتمرهم ونشر مذكراته في مجلة مرآة الغرب وقيل كان يتلقى اكثر من الف مكتوب في السنة فيجيب عليها ويكتب زيادة عنها اكثر من مائتي مقالة . وبلغ ماوجهه من المخاطبات الى رجال الدولة ٢٠ مجلدا وبلغت رسائله الى بعقلين من قرى لبنان وحدها طنا من الرسائل .

وقد عاش في سويسرا حياة بسيطة . اشترى سكنا رخيصا خلال سقوط النقد الالماني . واسس بيتا متواضعا فرشه بالزرابي الشرقية وباع كل ممتلكاته في سوريا ولبنان .

واتيح له ان يطوف اوربا زائرا متعبا ثم زار الاندلس وامريكا والمغرب والحجاز ومن زيارته للحجاز ١٩٢٩ واسبانيا وجنوب اوربا ١٩٣٠ وضع كتبه الثلاثة :

- الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية
- الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى اقدس مطاف
- فتوحات العرب في ايطاليا وفرنسا .

وذلك الى مؤلفات اخرى ابرزها كتاباه عن احمد شوقي ورشيد رضا ومراجعاته على كتاب ستودارد الامريكي (حاضر العالم الاسلامي) وعلى تاريخ ابن خلدون حيث اضاف اليه فصولا وتعليقات وخاصة بالنسبة لتاريخ الاتراك . وترجم رواية (آخر بني سراج) لشاتوبريان مذيلة بخلاصة عن تاريخ العرب في الاندلس .

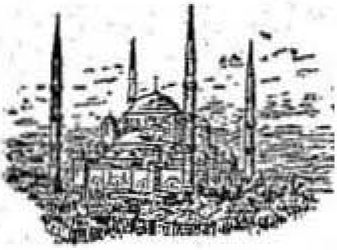
وقد اتيح له في هذه الفترة ان يكتب مذكراته في مائتي صفحة اودعهـا مكتب المؤتمر الاسلامي في القدس .

وقد شهد كل الذين عاصروا هذه الفترة من تاريخ الامير شكيب انه كان ذا محل رفيع عند علماء الغرب المستشرقين . وقد اتيح له ذلك نتيجة لعوامل عدة منها براعة في الحديث باللغة الفرنسية فقد كان يتكلم بها بتدفق ، فاذا نزل مدينة تجمع اليه اهلها من العرب .

اما مجلة « La Nation Arabe » فقد ظل يصدرها مع احسان الجابري، الى ماقبل الحرب العالمية الثانية وعندما منعتها حكومة سويسرا صار يرسل، موادها الى النمسا فيطبعها وتوزع هناك في جميع انحاء العالم الاوربي .

* * *

هذه صور ثلاث لهجرات في سبيل الحرية كانت بعيدة الأثر والنفع ، غزيرة الانتاج ، تركت اثاراً قوية لاتمحى وقد خدمت قضايا الامة العربية والفكر العربي المعاصر خدمة جلى .



أبو حيان التوحيدي



تمثيلية علمية ثقافية
تصور النهضة الأدبية
والنهضة العلمية في
العراق في القرن الرابع
للهجرة ..

وهو عصر النهضة الثقافية الإسلامية الكبرى

جمعها ووضعها: الدكتور مصطفى جواد

أشخاص التمثيلية

١ - أبو حيان التوحيدي: الأديب الكبير والكاتب البارع والفيلسوف

٢ - الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد العارض وزير الملك صمصام الدولة بن عضد الدولة البويهي

٣ - أبو المسيح عيسى بن ثقيف الفيلسوف

٤ - أبو الوفاء محمد بن محمد المهندس صديق أبي حيان وصديق الوزير أبي عبد الله العارض

٥ - مسكويه الفيلسوف مؤلف تهذيب الأخلاق وتجارب الأمم

التمهيد

كانت مجالس العلم والأدب والشعر وحلقات المناظرات والمحاضرات عامرة بالعلماء والأدباء والفلاسفة والشعراء في دار مملكة بني بويه في محلة المخرم « العلوازية ومايليها شمالا » على شاطىء دجلة ، حيث شيدت القصور الواسعة الأنيقة، والدور الفخمة الرائقة وغرست البساتين الجميلة الملتفة الأشجار المختلفة الأزهاروخصوصاً « البستان الزاهر » الذي احتوى على كل روضة غنـاء وكل شجرة فينانة ، وكل خميلة بالأزاهير مزدانة .

ومن تلك المجالس مجلس الوزير ابي عبد الله الحسين بن أحمد العارض المشهور بابن سعدان ، صمصام الدولة بن عضد الدولة فقـد استوزره هذا الملك سنة ٣٧٣ هـ ، وكان هذا المجلس يجمع جماعة من جلة العلمـاء والأدباء منهم أبو الوفاء محمد محمد المهندس وأبو المسيح عيسى بن ثقيف النصراني الفيلسوف ومسكويه المؤرخ الفيلسوف المشهور ، وابن حجاج الشاعر الماجن المشهور وأبو سعد بهرام ابن اردشير الحكيم وأبو حيان علي بن محمد التوحيدي .

ندوة الوزير الليلية

الوزير جالس في دست الوزارة في ليلة من ليالي سنة ٣٧٤

وقد جلس في مجلسه على الوسائد أبو الوفاء المهندس وأبو حيان التوحيدي ومسكويه وأبو المسيح عيسى بن ثقيف ، وكان جلوسهم للسمر والمحاورات والمحاضرات ، في العلم والسياسة والأدب فابتدأ الوزير قائلا :

ـ **الوزير أبو عبد الله** : لقدصدق القائل : انبغداد سيدةالبلادفمازالت،

حافلة بأعيان العلماء ، وأعلام الأدباء ، وفحول الشعراء ، وأنا مسرور ومبتهج بأن تكونوا جلسائي ، وأهل محاضرتي ومحاورتي ، ولا أحسب أن مجلس الوزير ابن العميد ولا مجلس الوزير الصاحب ابن عباد انضم ذات يوم على أمثالكم ، بل ليس لكم في العراق شكل ولا نظير .

ـ **أبو الوفاء المهندس** : هذا تفضل من مولانا الوزير وقد قيل قديماً في الأمثال « إن الطيور على أشكالها تقع » فلو لم يكن مولانا الوزير راغباً في الحكمة معنياً بالأدب ، مغرماً بالمعرفة ، ميالا الى مجالسة المتسمين بفنون العلم ، المتوسمين للخير في اصحابه ما كنا حيث نحن الآن ، وأنا مع ذلك متخصص بالهندسة وفي مجلس الوزير من عسى يفي بوصف له ويؤدي حق اطرائه .

ـ **الوزير** : لقد سمعت عنكم كثيراً من الأخبار ، وأنت يا أبا الوفاء أنت الذي أوصلت الى سمعي أنباء أبي حيان ، وأنه أتقن الآداب وشارك في الحكمة والفلسفة ، وحضر مجالس العلماء والحكماء ، كأبي سليمان المنطقي فيلسوف العصر وحكيم بغداد وإني سائله ومجاوره ، وأراه حرياً بأن لا يحرمنا حديثاً ممتعاً ولا يكتمنا خبراً طريفاً ، ولا يضن علينا بحكمة سمعها ، ولا نادرة ثقفها ، ولا موعظة وعاها .

ـ **أبو حيان** : أدام الله عز مولانا الوزير ، وهل نحن إلا وراد منهله العذب ، ومستمطرو سحابه المخيل ، وألاف مجلسه المعمور بالعلم والأدب ، والمقتدون بأخلاقه الزاهرة ، واللائذون بأكناف وزارته الباهرة ، لهذه الدولة القاهرة .

ـ **الوزير** : الأخلاق يا أبا حيان مرآة الانسان ، وعنوان السيرة فما عندك فيها ؟

ـ **أبو حيان** : عندي فيها يامولانا الوزير أنه من أراد ان يكسب نفسه هيأة جميلة وسجية محمودة بتهذيب الأخلاق وتقويمها وتطهيرها من الأدناس التي تعتريها

فانه بين أمرين متباينين أحدهما أنه يرى ذلك عسيراً ملتوياً بل متعذراً فيظن أن الأمر الذي يحاوله معجوز عنه وغير مقدور عليه وأن الوصول اليه محال والأمر الآخر أن ذلك ممكن منقاد فيظن أن الغاية التي يؤمها باجتهاده وقصده ورأيه وعزمه دانية منه وسهلة قريبة اليه . والمثال على هذا التقويم من أخلاق الانسان موجود في اعتبار حال البدن ، وذلك أن الانسان اذا قصد تنظيف بدنه وتدليك أعضائه وتقليم أظفاره ونفي القذى عن عينيه وتسريح شعره ، ان كان له شعر ، وترجيل جمته ان كانت له جمة وإزالة الدرن عن قسم من اعضائه ، وبلغ ذلك بيده أو يد غيره كقيم الحمام قدر على ذلك ووجد السبيل إليه سهلاً حتى يخرج من الحمام ناضر البدن، نقي الأطراف قد اكتسب نظافة وخفة ظاهرة من ثقل ما كان عليه من الوسخ والدرن ، على أنه إن أراد بعد ذلك أن يغير شكل أنفه ولون عينيه ويبدل من أعضائه الأخرى ، فانه يطلب المحال واتهم بسوء الاختيار وحكم عليه ببور السعي وبطلان الاجتهاد ، فليس له أن يرجو صلاح ماليس بمستطاع لاقتداره على صلاح المستطاع ، وله أن يباشر إصلاح ماهو مستطاع وإن يئس من صلاح ماهو غير مستطاع ، وقطب هذه المسألة الذي تدور عليه هو أن تهذيب الأخلاق وتطهيرها وتسويتها وتعديلها هو من الصعب العسير ويبدو كالمتمنع المستحيل ولكنها مع هذا كله ممكنة من نفسها في أشياء خاصة وفي مواضيع معلومة بعض الامكان والاستحالة فيها ظاهرة بعض الظهور فعلى هذا لا ينبغي أن يطمع في إصلاحها كل الطمع ولا يقطع الرجاء عن إصلاح الممكن منها كل القطع ، ولم يزل الناس قديماً وحديثاً يتكلمون على الأخلاق ، بدلالة مافي الكتب السالفة والأشعار القديمة والمواعظ القائمة والزواجر المرددة ومع ذلك كله فمن طبع على الجبن وكان جباناً لاتأتي منه شجاعة ومن طبع على الغيرة لايمكنه أن يغفل ، ومن وجد في أصله شيئاً أبداه.

ومن كان في قوته شيء أظهره ومن استكن في مزاجه شيء طلع وبان مع الأيام، والاختيار في الأشياء قوة ضعيفة. لاثبات لها مع الضرورة، التي ترد قاهرة وتوافي مجبرة، وقد شاهدنا من يمدح الجود ويحدث عليه ويحسه ويدعو إليه وهو أبعد الناس عن العمل به والقيام بحكمه، وقد وجدنا من يلوم التغافل عن الحرمة وما يجري معها ويبعث على الغيرة والصرامة فيها وخوض الدم من أجل عارض يعرض لها وهو أشد الناس انحلالاً فيها وأظهرهم اختلالاً عليها، فكأن مايقوله أحدهم ذاماً أو مادحاً هو غير ما ينبغي أن يأتيه ويفعله أو يتركه مجتنباً، وكان شيخنا أبو سليمان المنطقي يقول: كثير من أخلاق الانسان تخفى عليه وتطوي عنه، وهي مع ذلك ظاهر لصاحبه وجلية لعشيرته، وواضحة لجاره، وهو يدرك أخفى منها على جليسه وصاحبه ومعامله وقريبه وبعيده، ولا يدرك أخلاق نفسه وكأنه في هذا الأمر عالم جاهل ومتيقظ غافل وجبان شجاع وحليم طائش، يرضى عن نفسه في شيء هو مغتاظ من أجله على غيره.

- **الوزير**: أحسنت النقل والبسط يا أبا حيان، وقد ذكرني كلامك قول **زهير أبي سلمى**:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومع هذا فما احوج الجبان الى ان يسمع أحاديث الشجعان وما اشد انتفاع الضيق النفس باستماع أخبار الكرام؟ لأن الأخلاق في الخلق أعراض والأعراض منها لازم ومنها لاصق؟ ولعل **لأبي علي مسكويه** رأياً في الأخلاق فهو لم يلقب مسكويه إلا لأن كلامه يشبه المسك بعبق شذاه وبطيب معناه.

- **مسكويه**: هذا من لطف **مولاي الوزير**، وأنا قد بسطت الكلام على الأخلاق في كتابي «**تهذيب الاخلاق**»، أضيف الى ذلك أن **أبا حيان** هو

براوية وصديق وقد اعتاد أن يسجل ويقيد ، وقد سألني كثيراً من الأمور ، وجمعها في كتاب « سماه **الهوامل والشوامل** » .

(وفي أثناء الحوار سمعت الجماعة أصوات غناء من جوقة في المحلة فقال **الوزير ابو عبد الله** :)

ـ **الوزير** : ألا ترون معي ان العاقل أيضاً إذا سمع الموسيقى والغناء اعترته دهشة وأريحية واهتزاز فهل سمعت في جواب ذلك شيئاً يا أبا حيان ؟

ـ **أبو حيان** : قد ذكر الجواب **أبو سليمان المنطقي** في مذاكراته لبعض تلامذته **قال** : إن من شأن العقل السكون ومن شأن الحس التهيج ولهذا يوصف العاقل بالوقار والسكينة . ويوصف غيره بالطيش والعجرفة والانسان لا يجد العقل وجداناً فيلتذ به بل يعرفه معرفة إما جملة وإما تفصيلا ومع ذلك يشتاق الى العقل ويتمنى ان يناله نوعاً من النيل ويجده ضرباً من الوجدان ، فلما أبرزت الطبيعة الموسيقى في عرض الصناعات بالآلات المهيأة وحركت بالمناسبات التامة والأشكال المتفقة أيضاً حدث الاعتدال الذي يشعر بالعقل وطلوعه وانكشافه وانجلائه فبهر الاحساس وبث الايناس وشوق الى عالم الروح والنعيم والى محل الشرف العميم وبعث على كسب الفضائل الحسية والعقلية أعني الشجاعة والجود والحلم والحكمة والصبر وهذه كلها قوام الاسباب المكملة للانسان في عاجلته وآجلته لأن الفضائل لا تقتنى إلا بالشوق اليها والحرص عليها والطلب لها ، والشوق والطلب والحرص لا تكون إلا بمشوق وباعث وداع ، فلهذا برزت في العاقل الأريحية والهزة والشوق والعزة فالأريحية للروح والهزة للنفس والشوق للعقل والعزة للانسان ، ثم ان السمع والبصر أخص بالنفس من الاحساسات الأخرى لأنهما خادما النفس في السر والعلانية ومؤنساها في الخلوة وممداها في النوم واليقظة ،

وليست هذه الرتبة لحاسة أخرى من الحواس الباقيات فالباقيات آثارها في الجسد الذي هو مطية الانسان .

ـ **الوزير** : ومتى عهدك بالغناء والمغنين يا أبا حيان وما علمك بأخبارهم !

أبو حيان : لو ذكرت لمولاي الوزير الغناء والمغنين من الرجال والجواري والحرائر والغلمان في بغداد وحدها لطال كلامي وأمل ولزاحمت كل من صنف كتاباً في الأغاني والألحان ، وأذكر أنا في سنة ٣٦٠ ونحن جماعة في الكرخ ، أحصينا أربعمائة وستين جارية مغنية في جانبي بغداد ومائة وعشرين مغنيـــة حرة وخمسة وتسعين غلاماً مغنياً ، كلهم يجمعون بين الخدمة والجمال والظرف وحسن العشرة وهؤلاء غير من كنا لا نصل اليهم من أهل الغناء ، وسوى من كانوا لا يحترفون بالغناء بل يتعاطون الغناء لأنفسهم عند الارتياح والنشاط والميل ، واحتدام الهوى والغرام في قلوبهم ، فمن الجواري المغنيات إذ ذاك « علوة » جارية ابن علوية بدر ابن السلق و « نهاية » جارية ابن المغني ، كانت غنت بقول الشاعر :

أستودع الله في بغـداد لي قمراً بالكرخ من فلك الازرار مطلعه
ودعتـــه وبودي لو يودعني صفو الحياة وأني لا أودعـــه

وسمعهـــا ابن فهم الصوفي فضرب بنفسه الأرض وتمرغ في التراب وهاج وأزبد وعفر شعره فلا يقرب منه حينئذ أحد فانه يعض بنابه ويخمش بظفره ويركل برجله ويخرق جبته قطعة قطعة ويلطم وجهه ألف لطمة ويخرج في العباءة كأنه عبد الرزاق المجنون الساكن بباب الطاق .

ومنهن « بلور » جارية ابن البريدي ، كانت إذا غنت قول الشاعر :

أعط الشباب نصيبـــه مادمت تعذر بالشباب

وانعـم بأيام الصبا واخلع عذارك في التصابي

وسمعها ابن غيلان البزاز انقلبت حماليق عينيه وسقط مغشياً عليه، فيؤتى له بالكافور وماء الورد وتقرأ في اذنه آية الكرسي والمعوذات.

ومنهن «قلم»، فانها كانت إذا تذكرت شجوها الذي قد أضناها وسلبها من نفسها وأنساها إياها غنت بصوتها المعروف بها:

أقول لها والصبح قد لاح نوره كما لاح ضوء البارق المتألـق

شبيهك قد وافى وحان افتراقنا فهل لك في صوت و كأس مروق؟

فقالت حياتي في الذي قد ذكرته وإن كنت قد نغصته بالتفرق

ومنهن «شعلة»، كانت إذا رجعت في لحنها قول الشاعر:

لو أن ماتبتليني الحادثات به يلقى على الماء لم يشرب من الكدر

فان شيبته تبتل بالدموع وفؤاده ينزو الى فمه، مع أسف يشعب القلب ويوهن الروح ويشق الصخر ويذيب الحديد، وهناك ترى أحداق الحاضرين باهتة ودموعهم منحدرة وشهيقهم عالياً رحمة له ورقة له ومساعدة له ورأفة به، وهذه الحال إذا استولت على أهل مجلس الغناء وجدت لها عدوى لاتوقف وسرياناً لايملك فانه قلما يخلو انسان من صبوة أو صبابة، أو حسرة على ماض أو فكر في شيء يتمناه ولا يعطاه، أو خوف من هجر لايرضاه أو رجاء لشيء عزيز منتظر.

ومن الغلمان المغنين ابن الرفاء وكان محمد بن غسان الطبيب شديد الطرب عليه لعذوبة صوته وحلاوة لحنه وبراعته في صناعته، وكان آخر حديث ابن غسان الطبيب أنه غرّق نفسه في لجة دجلة أسفل بغداد قرب قرية كلواذا وكان ذلك لأسباب تجمعت عليه من خلو اليد وسوء الحال وجرب أصاب بدنه فأكله،

وعشق أحرق كبده وحيرة ذهب بها عقله ، وخذله فيها رأيه ودنا معهما أجله ، نسأل الله حسن العاقبة .

- **الوزير** : ترى ما السبب في قتل الانسان نفسه أو اتلافه إياها عند خيبة تتوالى عليه وفقر ينزل به وحال لا يتحملها حوله وطاقته ، وانسداد باب دون مطلبه ومأربه ، وعشق يضيق ذرعاً به ويتسكع في معالجته ، وما الذي يرجو بفعله الى أي شيء ينحو فيما يقصد وينوي ؟ بل ما الذي ينتصب امامه ويستهلك حصافة عقله ويذهله عن روحه المألوفة ونفسه المعشوقة وحياته العزيزة .

- **أبو حيان** : قد كنت سألت الاستاذ **أبا علي مسكويه** - وهو حاضر الآن - عن مثل هذا الأمر ، فكان جوابه لي : أن الانسان مركب من ثلاث قوى نفسانية وهو كالواقف بينها ، تجذبه هذه مرة وهذه مرة وبحسب قوة احداها على الأخرى يميل بفعله ، فربما غلبت عليه القوة الغضبية ، فاذا انصبغ بها ومال بفعله اليها ظهرت قوته كلها كأنها غضب وخفيت القوى الاخرى حتى كأنها لم توجد فيه ، إذا هاجت فيه القوة الشهوية خفيت آثار القوى الأخرى وأحصف مايكون الانسان وأحسنه حالا اذا غلبت عليه القوة الناطقة فان هذه القوة هي القوة المميزة العاقلة التي ترتب القوى الأخرى حتى تظهر أفعالها على حسب ماتحده وترسمه ، والانسان مع تلك القوة الناطقة نازل في المنزلة الكريمة بحيث هيأه الله تعالى وكما أراده له ، فاذا كان الأمر كذلك فغير مستغرب أن تهيج بالانسان بعض تلك القوى عند التواء أمر عليه ، أو انسداد باب دون مطلب له ، فيظهر منه فعل لاتوجبه روية ولا يقتضيه تمييز لخفاء أثر القوة الناطقة حينذاك واستيلاء القوة الأخرى ، والانسان يجد ذلك عياناً ووجداناً عند الأحوال المختلفة ، فيجد نفسه في أوقات على أحوال مؤثرة لها وقاصدة اليها ، غير مصغية الى نصيح

ولا قابلة أمر سديد حتى إذا أفاق من تلك السكرة التي غلبت عليه في تلك الحال عجبت من الأفعال التي ظهرت منه وأنكر نفسه فيها وكأن غيره كان هو الذي آثرها وقصد اليها ، ولايزال كذلك حتى تهيج به تلك القوة الأولى مرة أخرى فلا يمنعه ماجر به من نفسه ووعظها به أن يقع في مثله . وسبب ذلك هو التركيب من القوى النفسانية المختلفة ، ولايمكن الانسان أن يخلص بقوة واحدة ويصدر أفعال القوى الباقية بحسب التي هي أفضل وأشرف الا بعد معالجة شديدة وتقويم كثير وادمان طويل فان العادة اذا استمرت والعزيمة اذا انفذت في زمان متصل طويل حصل منهـــا خلق فكان الحكم له وصار هو الغالب ولذلك نحن نأمر الأحداث بالسيرة الجميلة ونأخذهم بالآداب التي تسنها الشرائع وتأمر بها الحكمة.

واستقصاء هذا الكلام وذكر علله لاتستوفيه الحال ولا يفي به المكان ، فانشك شاك فيما قلنا وظن ان الانسان المركب من القوى الثلاث يجب أن يكون لازماً لأمر واحد متركب من تلك القوى كما نجد الحال في سائر المركبات والمعجونات من الطبيعة فليعلم أن مثاله ليس بصحيح لأن قوى الانسان نفسانيه لها من ذاتها حركات تزيد وتنقص ، وأحوال أيضاً تهيجها وليست كذلك قوى الأشياء الطبيعية فلينعم النظر بجده كما أومأنا اليه وذكرناه ،واذكر رجلا اجتاز بطرف الجسر وقد اكتنفته الشرطة يسوقونه الى السجن فأبصر موسى في طرف دكان حزين فاختطفها كالبرق وأمرها على حلقومه فاذا هو يخور في دمائه وقد فارق الروح وودع الحياة، فسألت بعض مشايخنا من قتل هذا الانسان فاذا قلنــا : قتل نفسه فالقاتل هو المقتول والا فكيف الجواب ؟ وهل لقائل أن يقول ان كان قاتل نفسه إنمـا ظهر منه هذا الفعل بحسب القوة الغضبيـــة فهو شجاع والشجاع محمود ونحن نعلم أن هذا الفاعل بنفسه ذلك الفعل مذموم فكيف حاله وأين موضع الشجاعة الذي يستوجب المدح ؟

ـ **أبو علي مسكويه** : لعمري ان هذا الفعل من أثر القوة الغضبية ، ولكنه بحسب رذيلتها وتقصيرها عما ينبغي لا بحسب الزيادة ولا بحسب الاعتدال فيها الذي هو الشجاعة ، ذلك ان المرء الذي يخاف أمراً يقع فيه من فقر أو شدة ويضيق ذرعاً به ولا يستقبله بعزيمة قوية وقوة تامـــة هو جبان ضعيف فيحمله الجبن والضعف على ان يقول : أستريح من تحمل هذه المشقة التي ترد علي، وتنزل بي ، وهذا هو النكول والضعف المسمى جبناً ، فقوة الغضب ربما كلت ونقصت عما ينبغي لها فتكون رذيلة ونقيصة ، ولا تسمى شجاعة ، ولا يكون صاحبها محموداً ولا ممدوحاً .

ـ **الوزير** : وقع في حديثك يا أبا حيان قولك عاقلا أو ناقلا: «و تأخذ الاحداث بالآداب التي تسنها الشرائع وتأمر بها الحكمة» ، فهل سمعت كلامـــاً على الحكمة في بعض مجالس المحاضرات والمقابسات ؟ وهل نهت طائفة من الناس عن ملابسة الحكمة.

ـ **أبو حيان** : سمعت شيخنا أبا سليمان المنطقي يقول : ان هاهنا أنفساً خبيثة وعقولاً رديئة ومعارف خسيسة لا يجوز لأربابها أن ينشقوا ريح الحكمة ويتطاولوا الى غرائب الفلسفة فالنهي ورد من أجلهم ، فاما النفوس التي قوتها الحكمة وبلغتها العلم وعدتها الفضائل وعقدتها الحقائق وذخرها الخيرات وعمارتها المكارم وهمتها المعالي فان النهي لم يوجه اليها والعيب لم يوقع عليها ، كيف يكون ذلك وقد بان أن فائدة هذا العلم أجل فائدة وثمرته أحلى ثمرة ونتيجته أشرف نتيجة ، فليكن هذا كافاً عن سوء الظن وكافياً في الجواب.

ـ**الوزير** : ادعى قوم من المحققين بالفلسفة أن الفلسفة داخلة في الحكمة ومنهم **زيد بن رفاعة** الذي يدعي النسب الى **الهاشميين** في حـــديثه وماشأنه وماذخلته وماخبره فقد بلغني **يا أبا حيان** أنك تغشاه وتجلس اليه وتكثر البقاء

عنده وتكتب له رسائله وان لك معه نوادر مضحكة وملحاً معجبة ومن طالت عشرته لانسان صدقت خبرته به وانكشف أمره له وأمكنه اطلاعه على مستكن رأيه وخافي مذهبه وغامض طريقته .

- **أبو حيان** : أيها الوزير الكبير أنت تعرفه قبلي قديماً وحديثاً بالتربية والاختبار والاستخدام ولك منه الاخوة القديمة والصلة المرموقة .

- **الوزير** : دع هذا يا أبا حيان وصفه لي .

- **أبو حيان** : لزيد بن رفاعة ذكاء غالب وذهن وقاد ويقظة حاضرة ، واتساع في فنون النظم والنثر مع الكتابة البارعة في البلاغة والحساب وحفظ أيام الناس وسماع للآراء والمقالات وتبصر في الآراء والديانات وتصرف في كل فن ، إما بالالمام الموهم وإما بالتبحر المفهم وإما بالتناهي المفحم .

- **الوزير** : فما مذهبه إذن ؟

- **أبو حيان** : لا ينسب الى مذهب بعينه ولا يعرف برهط ولا طائفة وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً وصادف فيها جماعة جامعين لأصناف العلم وأنواع الصناعة فصحبهم وخدمهم ، وكانت هذه الجماعة قد تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والخلوص والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به السبيل الى الفوز برضوان الله والمصير الى الجنة وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأن الفلسفة حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها وأفردوا لها فهرساً وسموها (رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء) وكتموا أسماءهم وبثوها في أسواد الكتب ولقنوها للناس

وادعوا أنهم مافعلوا ذلك إلا ابتغاءوجه الله ـ عز وجل ـ وطلب رضوانه ليخلصوا الناس من الآراء الفاسدة التي تضر النفوس والعقائد الخبيثة التي تسيء الى أصحابها والأفعال المذمومة التي يشقى بها أهلها ، وقد حشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية ، والوجوه المحتملة والطرق الموهمة .

ـ **الوزير** : هل رأيت يا أبا حيان هذه الرسائل التي ذكرت ؟

أبو حيان : قد رأيت يامولانا الوزير جملة منها وهي مبثوثة ، وقرأت فيها ، من كل فن نتفاً بلا إشباع ولا كفاية وفيها خرافات و كنايات وتلفيقات وتلزيقات وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها وكنت قد حملت عدة رسائل منها الى شيخنا أبي سليمان المنطقي وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً واختبرها طويلاً ثم ردها إلي وقال لي : تعب اخوان الصفاء وما أغنوا ، ونصبوا وما أجدوا ، وحاموا وماوردوا ، وغنوا وماطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ومشطوا فتفلفلوا ، ظنوا مالا يكون ولا يمكن ولا يستطاع : ظنوا انهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والافلاك والهندسة والمقادير وآثار الطبيعة ، والموسيقى التي هي معرفة النغم والايقال والنقرات والطنينات والاوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالنسب والكميات والكيفيات ، أن يدسوها في الشريعة وان يضموا الفلسفة الى الفلسفة ، وهذا مرام لا يرام ، وقد توفر عليه قوم قبلهم كانوا أحد أنياباً وأثقب ألباباً ، وأوثق اسباباً واعظم اقداراً وأرفع أخطاراً وأوسع قوى وأوثق عرى ، فلم يتم لهم ما أرادوا ولابلغوا منه ما أملوا وإنما حصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات فاضحة وألقاب موحشة وعواقب مخزية وأوزار مثقلة . وهنا قال له بعض الحاضرين : ولم ذلك أيها الشيخ ؟ فقال: إن الشريعة مأخوذة عن

الله عز وجل بوساطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي وباب المنـــاجاة وشهادات الآيات وظهور المعجزات على مايوجبه العقل تارة ومايجوزه تارة لمصالح عامة متقنة ومراشد تامة ، مبينة في أثنائها مالاسبيل الى البحث عنه والغوص فيه من التسليم للداعي اليه ، والمنبه عليه ، وهناك يبطل (لم) ويسقط (كيف) ويزول (هلا) ويذهب (لو) و (ليت) مع الريح ، فاعتراضات المعترضين عليها مردودة ، وارتياب المرتابين فيها ضار وجملتها مشتملة على الخير وأساسها على الورع والتقوى ومنتهاها الى العبادة وطلب الزلفى . وعلى هـذا كيف يجوز ويسوغ لاخوان الصفاء أن ينصبوا من تلقاء انفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشريعة ؟ ولو كانت هذه جائزة ممكنة لكان الله تعالى نبه عليها وكان صاحب الشريعة قوم شريعته بها أوحض المتفلسفين على ايضاحها بها وأمرهم باتمامها وفرض عليهم القيام بكل مايذب عنها حسب طاقتهم فيها ، فهو لم يفعل ذلك بنفسه ولاوكله الى غيره من خلفائه والقائمين بدينه .

ـ **الوزير** : وهل تذكر ماقال بعض فلاسفة اليونان في الحكمة والغنى وطيب الدنيا ؟

ـ **ابو حيان** : قيل له : أيما اولى أطلب الغنى ام طلب الحكمة؟قال: للدنيا الغنى وللآخرة الحكمة ، وتطيب الدنيا اذا تفلسف ملوكها وملك فلاسفتها

ـ **الوزير** :عندي انهذا الكلام مدخول غير مقبول لان الفلسفةلا تصح الا لمن رفض الدنيا وفرغ نفسه للاخرة فكيف يكون الملك رافضاً للدنيا وقالياً لها وهو محتاج الى سياسة اهلها والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفي مفاسدها، وله أولياء يحتاج الى تدبيرهم ، واقامة أبنيتهم ومساكنهم ، والتوسعة عليهم في العيش ومؤاكلتهم ومشاربتهم ومداراتهم والاشراف على سرهم وعلانيتهم ، والملك اتعب

من الطبيب الذي يجمع معالجات كثيرة بضروب من الادوية المختلفة والاغذية المتباينة ولهــذا لم نجد نحن في الاسلام من نظر في امر الامة على الزهد والتقوى وايثار البر والهدى الا عدداً قليلا كالخلفاء الراشدين ، والفرس يزعمون ان الشريعة منفصلة عن الملك اي الذي يأتي بها ليس له أن يتصل بالملك بل له أن يكل الملك الى من يقوم به على أحكام الدين ولهذا قيل : الدين والملك اخوان فالدين أساس والملك حارس فما لا أساس له فهو مهدوم ، ومالا حارس له فهو ضائع معدوم . ومع هذا فالكلام في امر ماتحتاج اليه الدنيا وما تحتاج اليه الاخرة فسيح المجال ، فهل عند ابي المسيح عيسى شيء منه فانه أنصت لنا طويلا ؟

ـ **أبو المسيح** : نحن نستفيد الحكمة من مجلس مولانا الوزير ونقتبس المعرفة ، فان كان ولا بد من الكلام فاني أذكر قول المسيح عليه السلام : « الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب متى بعد أحدكم عن أحدهما قرب من الآخر ، ومتى قرب من أحدهما بعد عن الآخر ، والدنيا والآخرة بعد ذلك ضرتان متى أرضيت احداهما أغضبت الاخرى ومتى أغضبت احداهما أرضيت الاخرى .

ـ **أبو حيان** : قال ابن السماك : لولا ثلاث لم يقع حيف ولا سل سيف : لقمة ألذ من لقمة ، وامرأة أجمل من امرأة ، وثوب أنعم من ثوب ، والانسان بشر وبنيته متهافتة وطينته منتثرة وله عادة طالبة وحاجة هاتكة ، ونفس جموح وعين طموح ، وعقل طفيف ورأي ضعيف يهفو لأول ريح ، ويطمع لأول بارق ، هذا إذا تخلص من قرناء السوء ، وسلم من مذهبات العقل وكان له سلطان على نفسه وقهر لشهواته وقمع لهياجه وقبول من نصائحه وتهيؤ في سعيه واتمام بسعادته ، واستبصار في طلب ماعند ربه ، واستنصاف من هواه المضل لعقله المرشد ، وهذا قليل وصعب ولو قلت معدوم أو محال في هذا الزمان العسير والدهر الفاسد ماخفت

عائقاً يعوقني ولا حسوداً يرد قولي ، وقد قال ابن السماك أيضاً : الله المستعان على ألسن تصف ، وقلوب تعترف وأعمال تختلف ، وربما قال بعض المتكلفين : ألم يقل بعض السلف ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا من ترك الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه ؟) وهذا كلام مقبول الظاهر موقوف الباطن ، وربما قال بعض المتقدمين : اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . وهذا أيضاً كلام منمق لا يرجع الى معنى محقق ، فان الانسان صغير الحجم ، ضعيف الحول لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذ حظ بدنه وبين السعي في طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه ، والقيام بوظائفه والثبات عند حدود أمره ونهيه ، فان كابر وقال : نعمل تارة لهذه الدار ، وتارة لتلك الدار فهذا المذبذب الذي لا هو من هذه ولا من هذه .

قارئ الرواية

للروائي الفرنسي : بول اندريه لوسور

ترجمة جورج سالم

يعتبر بول – اندريه لوسور في طليعة الروائيين بفرنسا ، ولد في غرنفيل عام ١٩١٥ ودرس الحقوق بباريس ، ثم تطوع في الحرب العالمية الثانية واسر عام ١٩٤٠ ، واصيب بعد عودته الى فرنسا بشلل في ذراعه اليمنى .

شغل منذ الحرب منصب مدير ادبي لمنشورات الزمن الحاضر ، ثم مدير لبعض السلاسل الادبية في منشورات « لاسوي » La seuil .

نشر عام ١٩٤٧ رواية (الكلى والقلوب) ثم « ابواب الموت » ورواية « كر السنين » في جزأين : ابن الجسد ، والريح تهب حيث تشاء ، ثم اصدر عام ١٩٥٧ – الحديد الاحمر – كما اصدر سنة ١٩٦٠ رواية عنوانها ج . ب . ك .

عرف لوسور باسلوبه الروائي الجديد الذي يقوم على تعرية بنية الاشخاص والكشف عن العلاقات العميقة التي تربط بينهم ، والاحكام التي يصدرها كل منهم على الآخر ، كما يعني بدراسة المواقف المتباينة التي يقفها كل بطل من الاحداث الخارجية ذاتها .

والى هذا فان بول اندريه لوسور يصدر فيما يكتب عن وجهة نظر روحية في الحياة تطبع مؤلفاته بطابعها . وفيما يلي نقدم ترجمة للدراسة التي كتبها هذا الروائي محاولا ان يكشف فيها عن العلاقة بين الرواية والمؤلف والقارىء ، وفيها يحلل طبيعة هذه العلاقات ومختلف اساليب الاتصال بين الروائي والقارىء .

فيم تؤلف الروايات ؟ لقد طرح هذا السؤال على الروائيين ، آلاف المرات ، ولم تكن اجابتهم مقنعة قط ، ولا يمكن ان تكون مقنعة ذلك بان الروائيين يخترعون قصصاً ، وان اختراع القصص هو الخط المشترك بين بني البشر . أما كيف يكتب الروائيون هذه القصص التي يخترعون فهنا هو السؤال الوحيد الذي يمكن ان يطرح عليهم بالتدقيق .

والواقع ان الاجابة عن هذا السؤال نفسه تكاد تبدو غير مجدية ، لان مايهمنا ليس المخطط الداخلي للخيال والتعبير ، ولكن تجسيد الابداع في النص . وبعبـــارة اخرى القدرة على خلق ارتباط بين اشخاص الروائي وقرائه .

ان الاسئلة الحقيقية يجب ان تطرح على القراء : لماذا نقرأ الروايات ؟ ولماذا نهتم بالاشخاص الخياليين الذين ابدعهم الآخرون ؟

يرى كثير من الناس ان الغاية من قراءة الرواية هي الهرب . وفي الحق ان عدداً من الآثار الروائية تلبي هذه الحاجة ، وان قراءة هذه الآثار معناها ان تحمل مخيلة الروائي السرور الى القارىء ، وينتقل الى عالم ، نعرف معرفة تحمل الينا العزاء ، انه ليس عالمنا ، ولا يهم القارىء كثيراً أن يكون هذا العالم فردوساً أو جحيما ، عالما ورديا او عالما اسود لأن المهم ان يكون عالما متجانساً مغلقاً على نفسه ، وان تكون مشاعر العجب والخوف التي يثيرها في نفس القارىء غير ذات اتصال بالمشاعر التي تبعثها فينا الحياة الواقعية . ولكن أليست هذه الخاصة القائمة على استبدال حياة متخيلة بالحياة التي نعيشها هي الخاصة التي يمارسها قراء الروايات جميعاً مهما اختلفت هـــذه

الروايات قوة وضعفاً ؟ أليس التماس القارىء في اكثر الروايات واقعية نوعاً من التعويض بالنسبة لحياته اليومية ؟

واذا كانت الحياة المتخيلة لشخص ما تسيطر علينا سيطرة قوية ، واذا كنا نشعر ان الصور والمشاعر التي تثير فينا مشاركة وجدانية شديدة الايلام ، تمس اعماق نفوسنا ، فاننا نستطيع دائما ان نطرد هؤلاء الاشخاص بان نغلق الكتاب ونستيقظ ، ونصنع صنيع النائم الذي يستفيق فيطرد عنه الكابوس ويمضي ليتأمل من نافذته المشهد الثابت المألوف من حياته اليومية .

اذن فما هؤلاء الاشخاص الذين يدعي المؤلف انه يسكنهم ضميرنا ؟ انهم اشخاص مبتدعون ، هو الذي خلقهم ، ولا يمكن ان يكون بيننا وبينهم شيء من الشبه الا اذا كانوا احراراً ، وكانت آمالهم ومخاوفهم تتعلق بمستقبل مجهول . ولكننا نعلم ان مستقبلهم موجود منذ الآن وان الصفحة الاخيرة من الكتاب مكتوبة ، وان هذا الكائن الذي يقاوم كحشرة بين اصابع ضخمة قد نجا أو هلك .

هل يصح ان نقول انه يقاوم ؟ اننا نعلم ان ابسط حركاته قد املاها عليه المؤلف ، وان المؤلف هو الذي يحركه بوساطة احد خيوطه التي يقوم فنه على تعميتها عن ابصارنا ، لكنها موجودة على كل حال . ولا يبدل من الامر شيئاً ان يكون المؤلف شاعراً بهذه الخيوط او غير شاعر بها . ان هنالك عدداً كبيراً من الحواجز التي يمكن ان نطبقها على الرواية وعلى العلائق التي توحد بينها وبين كاتبها . وليس من الصعب في شيء ان نحلل الايهام الظاهري للعوالم الخيالية .

لماذا نقرأ الروايات اذن ؟ ألكي نكشف هذه الاكاذيب والاوهام والآمال الخائبة والمخاوف التي اسيء اخمادها ؟ ألكي نكتشف حقيقة الانسان الكاتب القابع خلف ستار من الدخان ؟

أليس امامنا اذن الا ان نختار بين الهرب في الحلم الخالي من القيمة وبين التحليل الوضعي للوثيقة المزورة ؟

ولكن هل هناك من اثر لما نعرفه عن حياة الروائي في الشعور الذي تخلقه فينا روايته ؟ ديون بلزاك ، وصرع دوستويفسكي ، ومغامرات مالرو في الصين ، كل هذا نعرفه ونحن نقرأ (سيزار بيروتو) و (الاخوة كرامازوف) و (الشرط الانساني) .

كلا ، ان الحوادث نفسها في القصة لاتستمد تأثيرها علينا من مصدرها ، بل في النقطة التي تمسنا فيها . وحول هذه الحوادث تتوسع موجات متمركزة حول نفسها ، ويمتد حقل مغناطيسي يجذبنا اليه ، لقد استيقظ شيء ما ، واتضح ضمير غامض ومشوش . اننا نعرف ان الشخص

لاوجود له : ولكننا نجد انفسنا فجأة في مكان الشخص وان امكان حياتنا كلها قد دخلت في هذه المواقف الممكنة حيث يقودنا الروائي . لقد تحطمت دائرة حياتنا اليومية ، وبهذه الثلمة انكشف تعدد العوالم الاخرى . عوالم مجهولة قاصية اودانية ، ولكن رؤيتها في الرواية توحي الينا بوجوه مجهولة ، هي كائنات مصنوعة من المادة التي صنعنا منها نفسها ، وترتبط بنسج الزمان والمكان الذي نرتبط به ، والتي تحمل فجأة حقل انسانيتنا بواسطة سلسلة من التجانس والتشابه والتغير .

* * *

ان الاسئلة الحقيقية لتكمن ههنا . ان فن الرواية هو فن ارتباط لافن معرفة . ولقد راح فن الرواية يتطور تطورا واسع المدى لانه بدأ يعي رسالته . واذا كان الناس يتحدثون عن ازمة الرواية فان ذلك يعني ازمة نمو وازمة مراهقة . ان الرواية تتحرر من المفاهيم التي ورثتها عن عدد من الفنون الادبية المختلفة ، فلم يعد بوسعها ان تكون اداة للتحليل الاجتماعي ولا للتحليل النفسي انها لاتبحث عن قوانين بل عن كائنات ، ولا عن نماذج انسانية بل عن اشخاص .

وان تطور فن الرواية ليدلل على ذلك ، ويمكننا اذا نحن بسطنا الامور ان نحدد المراحل التي قادت اشخاص الرواية للقاء القراء خلال العصور .

ان الرواية الكلاسيكية تعطي القارىء دور المشاهد ، انه مشاهد محظي ، للروائي القدرة ان يدخله في اعماق ضمير اشخاصه . وقد يتيح هذا الضمير للكاتب بعملية سحرية ان يحتمله وينقب فيه بكثير من الرضى ، او ان الشخص — والفرق بين هذا وذاك كبير — يستسلم بنفسه لبعض محدثيه . ان الروائي الكلاسيكي كاتب اخلاقي ، كالمؤلف المسرحي وصانع الحكم والامثال ، فهو يحكم ويزن الامور ويركبها ، ويدعو القارىء الى ان يصنع صنيعه .

وحين تنجم الرغبة في وصف الاهواء ، لا من الخارج ، بل من خلال هذه الاهواء نفسها يظهر آنذاك اول شكل روائي يتيح للقارىء ان يتحد على التوالي بمختلف الاشخاص :

وهذا هو شكل الرواية المكتوبة بطريقة الرسالة التي استعملها بصورة خاصة في انكلترا ريكاردسون في روايته (كلاريس هارلو) وجان جاك روسو في فرنسا، في روايته (ايلوئيز الجديدة) ولاكلو في (العلاقات الخطرة) ولكن الرواية المكتوبة بطريقة الرسائل تفترض كذلك وجود تواطؤ، فعلى القارىء ان يقبل بادىء ذي بدء المصادفة الغريبة التي حملت الى انظار انسان واحد كل هذه الرسائل المتبادلة، وتبقى هذه المصادفة بحاجة الى تفسير او الى جعلها واقعية على اقل تقدير. وفي عام ١٨١٥ ظهرت رواية (ادولف) لبنجمان كونستان، وهذه الرواية التي تقوم بأكملها على دفتر اعترافات قد مهدت لها مقدمة يروي فيها الكاتب على نحو مفصل، كيف وقع هذا الدفتر بين يديه.

وان تاريخ الرواية في القرنين التاسع عشر والعشرين من (ادولف) الى (اعترافات منتصف الليل) لدوهاميل مروراً بجزء كبير من (طبيب الريف) لبلزاك و (اللذة) لسانت بوف و (اللا اخلاقي) لجيد (والبحث عن الزمن المفقود) لبروست (وهذه الامثلة مستمدة من الادب الفرنسي وحده) نرى في تاريخ الرواية في القرنين التاسع عشر والعشرين انتشار هذه الآثار التي تريد ان تنقل الى القارىء ضمير الاشخاص نفسه، لا من خلال تحليل موضوعي خارجي، بل من خلال رؤية الشخص لنفسه وللعالم الذي يتحرك فيه، الا ان الاعتراف هو سرد يتعلق بالماضي، فهو يدعم ويقوم العنصر الاساسي للضمير واعني به الزمان. كيف يمكن اشراك القارىء في قصة انسانية رهن الضرورة؟ وفي قصة تعاش في تقلب الحاضر من خلال وجدان مجزأ محدود، تخميني، يشعر به المرء نحو نفسه والآخرين؟

ان عدداً كبيراً من الاساليب الروائية يحاول منذ خمسين عاماً ان يجيب على هذا السؤال. هناك اولا شكل اليوميات الذاتية الا انهالاتعطينا الا فضالة ضمير، غربلته وزادت فيه الحاجة الى الصيغة الكتابية. وشكل الاعتراف المنطوق به الذي يتبع الحادثة فوراً ويعود عليها:

ومثال هذا رواية (الامير هبسبيد) لستفن هدسون و (الغريب) لكامو و (يكلمونك) لجان كايرول، وشكل مونولوج الانعكاس الذي يأخذ شكل ردود على الافعال في ضمائر متيقظة دائماً كابطال رواية (الامواج) لفرجينا وولف. وشكل المونولوج الخام اذ يعبر عن ضمير

مضطرب كشخصيات فولكنر في روايته (الصخب والعنف) و (بينما كنت احتضر) .

وينبغي ان نتوقف قليلا عند الجهود التي بلغت تخوم الوضوح في بعض فصول (أوليس) لجيمس جويس ، لكي نلمس مشاكل التعبير هذه في صميمها . ففي (اوليس) في الواقع مايسوغه، بتعبير عام جدا ، المونولوج الداخلي ، وهو يأخذ مظاهر تختلف فيما بينها اختلافاً بيناً ، بحسب الاشخاص ، فاستيفان ديدالوس في اول الرواية ، يتنزه على الشاطئ ، ونطلع نحن على عالمه الداخلي من خلال مزق الجمل التي تكونها لغة صامتة في اعماق نفسه : ان استيفان يتحدث الى نفسه بصيغة المتكلم او المخاطب والروائي يقنعنا بانه ليس الا الوسيط الذي يحمل الينا هذه الكلمات. وليس هذا ممكناً الا لأن استيفان انسان « مهذار » يبحث دائماً عن الكلمات ويديرها على نحو غير محدد في ذهنه (بل انه يسجلها على قطعة من الورق حين يجد التعبير موفقا) الا ان هذه اللغة تتأرجح باستمرار بين تدخل توضيحي مفرط يعطي الجمل الداخلية بداهة غير معقولة ،وتغمض في الوضوح كلما الحت جمل ستيفان الى معلوماته التي تختلف عن معارف القارئ .

ويصبح لهذه الجمل ، في هذه الحال ، معنى لا يدركه القارئ ، وينبغي لكي يؤدي هذا المونولوج دوره ، الا يصبح امام القارئ نصاً عليه ان يحل رموزه، كأنه فكرة خارجية ، بل يجب ان يعيد خلق ضمير استيفان نفسه في ذهن القارئ .

وفي هذه الصفحات يظهر كذلك ، على نحو واضح جداً ، ان من المستحيل ان تعاد الافعال من خلال المونولوج ، وان الروائي مضطر لان يتدخل ، ويقطع النص بتعليقات ، بضمير الغائب ، لكي يعيد اظهار تصرفات الشخص ووضعه الذي يمر عبر ستيفن ، وهذا كله لا يشكل الا جزءاً من المونولوج . وتبدو الصعوبة اكبر في فصول اخرى ، في الفصل المخصص مثلا لنزهة (ليوبولد بلوم) في ارجاء المدينة . ان ضمير بلوم اكثر غموضاً وتغيراً ، واشد تمغنطا بالمشاعر والانطباعات التي تجتاحه . ولقد اضطر الروائي لكي يعطي حداً ادنى من الوضوح للتداعي الداخلي وللاستمرار الحي في الضمير الى ان يقدم باستمرار وجهة نظره الخاصة كملاحظ خارجي. اما النجاح العظيم الذي احرزه جيمس جويس فيتجلى في المونولوج الختامي لمولي ، اذ قد سبق لنا ان عرفنا كل سياقه ، ولم يعد ثمة من حاجة الى الشروح لكي يتحقق توحد الضمائر ، ضمير القارئ وضمير الشخص ، حيث يبلغ الفن الروائي ذروته .

ويمكننا ان نحلل على هذا النحو كل اشكال ضمير المتكلم التي اثرناها فيما سلف ، ونظهر من خلال الامثلة ، الى أي حد يحدث منولوج التداعي كما تستخدمه فرجينيا وولف التباسا بين المشاعر وتحليل هذه المشاعر ، والى أي حد ايضاً يشل الشعور بالزمن ويفسده . ويمكننا أن نظهر

كيف أن تداخل المونولوجات في السرد الموضوعي في رواية (وقف التنفيذ) لجان بول سارتر قد حاول أن يحل هذه الصعوبات ولكنه ضاعفها من غير شك .

ان الطابع المميز لكل هذه المحاولات هو الرغبة في جمع الشخصية الروائية والروائي والقارىء ضمن ضمير المشترك ، والرغبة في جر القارىء الى اعماق تجربة البطل لاطلاعه على العالم من خلال المشاعر الخاصة (١) . وان الصعوبات التي نجمت عن هذه المحاولة هامة جداً لانها متناقضة فيما بينها . فعفوية الضمير قد تخلت عن ذاتها على حساب وضوحها والعكس بالعكس .

ثمة اشكال اخرى ممكنة . وانا اعتقد شخصيا ان الانتقال الى ضمير الغائب يحمل كثيراً من الامكانيات الفنية . ان استعمال ضمير المتكلم والزمن الحاضر ، رغم كل مظاهر السهولة فيه حيلة غير مأمونة الجانب في اغلب الاحيان ، وكثيراً ما تغدو متعبة : هي حيلة لان الرواية لا وجود لها الا عن طريق شخص ثالث واعني به الروائي الوسيط بين اشخاصه وقرائه . وهذا ما يحدد العنصر الخيالي ، فهو اشتراك اساسي بين ضمير كائن وضمير آخر . ولماذا لا نشير بجلاء الى هذا التماثل مع الاتفاق الذي يجعله ممكنا ؟ ان ضمير الغائب اذ يستعمل وسيلة لنقل ضمير الشخصية الروائية الى ضمير القارىء يمكن أن يحتفظ بكل امكانياته الفنية في التعبير المستمر عن ضمير الشخصية ، ويتيح للروائي في الوقت نفسه أن يعطي شكلاً لما ليس له شكل ولغة لما ليس بلغة ، ويعبر بالكلمات عما هو فوق الكلمات أو وراءها لدى الكائن . ولكن ضمن شرط اساسي ذي نتائج هامة اهم مما قد يبدو للوهلة الاولى : ذلك بان الامانة التي تعطى لهذا الصوت يجب ان تكون مطلقة فكرياً .

ان الرواية وهي اداة من ادوات الشعور ، وسبيل لتقريب الكائنات بعضهم من بعض ، وانفتاح على الاخرين : ذات حقل واسع لا حدود له . كيف يمكن ان يقال اذن ان المواضيع قد استنفدت ؟ ليس هناك الا موضوع واحد وهو آلاف المواضيع معا : « قريني واخي » على حد تعبير بودلير .

ليست الرواية اداة للمعرفة ، لان الخيالي يظل خيالياً ولا يمنحنا شيئاً يمكن أن تملكه ونحتفظ به في ايدينا . ان الاشكال الروائية هي جهد شديد لنسيان المعرفة وحمل الانسان على نسيانها .

---

(١) ان جهود روب ـ غرييه تجري على عكس التطور الذي اثرناه هنا .

التجربة والايمان

قصة بقلم يوسف الخطيب *



« وكان شديد اللهجة » ..

يقصدون بشدة اللهجة ، هو ذلك الكتاب الذي اتصوره الان كسحنة طفل مسلول ، والذي اختيرت عباراته من أندر كلمات التوسل والهوان . . ورفع الى ذلك الشيء المعنوي ، « الضمير » ، الذي حقق لنفسه اتباعاً من الخائبين في كل بقاع الارض . .

---

* من مجموعة قصصية تصدر قريباً ، عنوانها « عناصر هدامة » ..

انى لأشعر بالحاجة الى فكر غير عادي .. فكر لم يتأت لانسان قبلي اسلطه على هذه الرموز العجيبة ، عسى ان اوفق في كشفها .. وانها لرموز عجيبة حقاً ، تلقاك اينا اتجهت في هذا الجسم الارضي .. انني حتى هذه اللحظة عاجز تماماً عن فهم ما يقصدونه بـ « شديد اللهجة »... أي معنى لهذه العبارة المريضة التي غدت لازمة في اغنية الشيطان . . وما معنى ان يكون التوسل الذليل ، شديد اللهجة ، مترعاً بكل هذه العصبية .... تلك مسألة اخرى لم اجد مفتاحاً يفضي على اسرارها البعيدة .. واني لاشعر في معظم الاحيان كأنني اطالع اسطورة عن الاشباح في ظهيرة يوم قائظ .. وفيما بين لذع الحقيقة ، وارتخاء الخيال ، اتعثر دوماً بهذا الاله المعنوي الذي حقق اتباعاً لنفسه من الخائبين في كل بقاع الارض .. اي شيء هو الضمير .... طلسم آخر أرتطم به، فيتنازعني قطبان هائلان من الشك واليقين في أحليته ان يكون إلهاً ، احداً ، لكل هذه الارقام البشرية الملوثة على سطح الارض . .

* * *

في صبيحة أمس الاول ، كانت الف نفس تحترق ألماً وغيظاً في قرية « بتير » .. بل لقد غدت القرية كلها قطعة من جهنم .. بينا كان ذلك الفكر الحجر قابعاً في مكتبه الانيق ، يعتصر شرايين الفلسفة ليلد احتجاجاً رقيعاً يرفعه الى « الضمير » .. الى لجنة الهدنة المشتركة . . الى أسياده أكلة اللحم البشري . .

واذن ، فانا عنصر هدام ...

عند هذا الوصف ـ الذي لا استحق ـ أكاد انفجر كحبة الملح اذا القيت في النار . . فأولا .. ، ما الذي بناه الاغبياء وهدمته انا ؟ .. وثانياً ، كيف املك الهدم وانا الذي يعيره الرفاق بالمتخاذل الجبان !.. يشهد الله انني لم اكن هداماً ذات يوم . .

ـ واقسم لك ياسيدي الضابط .. وانت ياسيدي المحقق .. وانت ياسيدي الحاجب خلف الباب ..واقسم لكم جميعاً انني لم اقو يوماً لا على الهدم ، ولا على البناء ، وانا المنطوي على نفسه، القانع بالسلامة ، المتواري في الظل ، اللائذ بالجدر .. المتخلف ، فوق ذلك كله ، عن نفرة الشباب الى « كفر عصيون » ...

كان ذلك منذ خمس سنوات . .

ويا له من عار ، لم تمض عليه تلك المدة فعلا ، وانما حبا وترعرع حتى بلغ الخامسة . . ذلك بأنه يعيش فيّ ، وينمو معي ، ويلتصق بجبيني كالوشم الذي لا يزول .. عار يتشبث ويتصلب في شرايين جبيني التي لم تعرف الشموخ من بعد . . وهل أستطيع ان أنسى ، ما حييت ، يوم

أن نودي في المدينة على نجدة سريعة للمناضلين حول كفر عصيون ، والا افتتهم المستعمرة ، بعد ان قضوا ليلتين في الجبل بلا امدادات؟.. هل أنسى ذلك ابد الدهر .. وكيف لي ان انساه!!.. وانها لتلك المستعمرة الحصينة الى حد اللعنة .. المستعمرة الشوكة ، قاتلة الاطفال ، خاطفة الماشية ، قاطعة الطريق ، والتي اقسمت المدينة على اقتلاعها من حيث هي ولو تكلف ذلك الف شهيد .. فكيف لم أخرج يومذاك مع الوف الشبان ؟... وأي حرص شدني الى البقاء في المدينة ضالا عبر ازقتها ، او مشدوداً الى مقعدي في ذلك المقهى الرخيص بالذات .... لا اعلم ، بل لا اجد سبباً لتخلفي ذاك سوى الخوف من المجازفة .. واقولها بصراحة اكثر : كنت اخشى ان اتعثر بواحد من مئات الالغام المبثة حول المستعمرة ، فأفقد يداً او رجلا ، واقعد في الدار عالة على غيري من الاسرة .. ولكن ، ها أنذا اليوم اشعر اني غدوت عالة ثقيلة على اسرة اخرى اكبر واوسع الوف المرات .. وحتى هـذا النسيم الذي حركه الله منذ بدء الخليقة في شعاب جبالنا ، او على بحيرات الذهب القمحي في سهولنا ، اشعر بالاثم اذ اتنشقه ، واذ ازفر فيـه ، ذلك بانه نسيم الاخرين الذين تنفسوا فيه الحب ، والاحلام ، والجنون .. نسيم الذين اشرعوا فيه زنود الثورة ، وتقربوا اليه بعرق الجباه .. فماذا اقول اذن عن هـذا الثرى الذي أطأ ؟ ... ترى خطاي فيه خطى زائر ثقيل ، لا كما يمشي عليه فيصل ، وعبد الرحيم ، وصليبا ، ومحمود ، وآلاف غيرهم تواجدوا معه في اللحظة الحرجة ، وفتحوا جراحاتهم بين يديه ليروى .. ويروى ، ويطلع كرمة ، وشقائق نعمان ...

لذلك ، كلما عادتني تلك المعركة ، الظافرة ، شعرت بعداء نحو نفسي ، وحز الالم في قلبي ، لانني لست شريكا في نصرها الرائع ، ولقد حاولت ان اوهم نفسي بأن في حياة كل واحد منا عارا ما ، وكان ذلك في الواقع عاري الخاص ، الذي سعيت الى محوه في صبيحة أمس الاول .. سعيت ان أطغي عليه بضربة واحدة شافية .. ولكنني عوضاً عن الارادة الواثقة ، أوتيت في وقت واحد كل غباء الارض ، وقلة العقل ، وسوء التدبير .. فالهم يطلقون علي هـذا اللقب العريض اليوم ، وكيف لي ان أكون « عنصراً هداماً » وانا الخائب ، المتردد ، البليد ..

* * *

قصتي أيها السادة ، ليست من نسج الخيال ، ولا نصيب للخيـال فيها ابداً ، ولو كانت كذلك لاستطعت ان أسوقها في نظام اكمل ، ولاستطعت مثلا ان احيلها ، واطرزها ، وأضع لها نهاية سعيدة .. ولكنها — على اعتبار انها حدثت بكل فوضاها — شتات افكار كاثرون ، واخلاط مفككة من الالم ، والتفجع والتأنيب .. ثم انها غدت حديث القرية كلهـا فيما بعد ، وهاهي اللحظة ، أعذب فكاهة يتندر بها حراس هذا السجن الذي لا اعلم موقعه من الارض .. ثم أخيراً ، من منكم يدلني أين يباع النظام ، بل المنطق ، بل العقل ، كي اسوق في دائرته هذه

القصة العجب ... لقد آمنت نهائياً ، في صبيحة امس الاول ، ان لامنطق على وجـه البسيطة ، وآمنت ان ما يعني شيئاً قد لايعني اي شيء ، وان الفضيلة قد تكون الرذيلة ، وان الجمال قد يكون القبـح ، وان كل شيء في هذا الكون يجري عرضاً ، وبلا نظـام .. فكيف لي ، ولـكم ، ان نخرج بأي فهم من هذه الثرثرة المتأزمة ــ اذ لا إمتاع في القصة ولا أدب عال ، فلا أقل من مجرد الفهم بشكله البسيط ...

على انني اعود ، سادتي ، فأعتذر عن كل هذياني السابق ، اعتباراً من ظلم الضمير ، الى اولئك الذين تعرق جباههم في طراوة النسيم ، ويتنفسون فيه الحب ، والاحلام ، والجنون .. اعتذر حقا ، واحاول ان احدثكم عما وقع امس الاول في قرية بتير ، باسلوب غير مرجوج ..

* * *

سحابة بيضاء ضالة على سماء ايار ، ترجيها على الصحو السماوي بقية من النسيم وافدة من دنيا الموج ، والصدف ، والبرتقـال .. وفي الارض مويجات التلال تتداوى اكواخا قرميدية السطوح ، تتهدل من دونها اغصان الزيتون ، وجدائل الدوالي المتكئة على اسوار القافي .. وكانت ذرات الماس الـتي لاحصر لها تتوهج في الارض ، من أثر الندى تحت الشمس .. وخلال تلك السعادة الصباحيـة التي تهيج الى حد البـكاء ، كانت قرية بتير تستلق على مسيرة هينة جنوبي القدس ..

والقرية ـــ لا اعلم كيف انتقيت لها هذا الوصف الحقوقي ـــ عربية الارض ، والسيادة والسكان . . .

تلكم قرية بتير ..

وأما خط الحديد الذي يخترقها كالسفود المحمي .. الخط الذي ينحدر من محطة القدس جنوباً ليخترقها ، ليغرب بعد ذلك في وادي الصرار الى محطة اللد .. فما يدعو الى الدهشة انه صار اسرائيليا هو الاخر ، في جملة اشياء هذه الارض التي اغتربت فجأة في غير اناسها ..ولوانني لم اقطع العهد لـكم بأن اسوق القصة في اسلوب غير مرجوج ، لتحدثت لـكم طويلا ، ودونت نظام ، عن الجامعة العبرية ايضا ، وعن مستشفى هداسا .. وعن الارواح اللعينـة التي قبل ان تبيع الارض ، باعت الانسان بما فيه من نوازع المروءة والثقة ، والتضحية ، وحتى مجرد الفهم البسيط لما يحدث خارجا عنه ، وداخل نفسه ..

ـــ هذا هراء ايضاً ..

وكي لاشت ثانية عن القصة ، التي لا اعلم كيف اسوقها ، احاول البدء بهـا على هذا النحو :

ها انني الان اقف معتدلا في جوف الصنم ، وتكاد رأسي ان تبلغ سقف الزنزانة ، وفي مواجهتي تماما باب حديدي صدىء ، ذو كوة تعترضها ثلاثة قضبان ، وجو كريه ينبعث من كل صوب ، والجدر الاربعة التي تأكل كلسها من زمن تركي مجهول ، تبدو كجذوع الذكريات في غابة عفاريت ، ولا شيء يجرح الصمت سوى اصداء احذية ثقيلة ، وقد أقرأ احيـانا ذكريات الجدر التي كتبت بوسائل شتى ، وبخطوط تتراوح بين الجودة والرداءة المتناهية ، فأستعيدملامح العالم الخارجي من خلال هذه الجرائد الحائطية .. والحق ان اخلاقيـة القصة ، كما هي بينة حتى الان ، لاتساعد على اقتطاف الكثير من ذكريات السلف في هذه الزنزانة . فمعظمها خاص بمعنى الكلمـة .. والقليل جدا من اخلاط هذه الحفرية العجيبة ، يمكن اقتطافه ، كعبارة : « المجد لامة العرب » .. أو « الموت للاذناب » .. أو « الى الجولة الثانية » .. وما اليه ...

وهنا ، ربما كان من الأنسب ان اعرفكم على نفسي بايجاز ..

فقبل يومين فقط ، كنت معلم المدرسة ومديرها ، في قرية بتير .. ولم يكن ثمة مايسمى بهيئة التدريس ، ماعدا الشيخ حازم ، الذي كان يقتصر دوره على تحفيظ القرآن للاطفال ، حتى نهايـة جزء « عم » .. وما عدا آذن المدرسة « ذويب » الذي كان يتسع نفوذه بين الطلاب بشكل عرفي مكتسب .. واما قبل ان أكون مدرسا في بتير ، فليس ماأذكره عني سوى ذلك العار الذي يتشبث ويتصلب في شرايين جبهتي ، منذ خمس سنوات .

كم احببت تلاميذي الصغار .. وكم اعملت عصاي في اجسادهم الناحلة ، لالتقصير فيوظائفهم الابتدائية التافهة ، ولا لتلك الضوضاء التي كثيراً ما كان صداها يصحبني الى ساعات النوم .. وانما لوقوفهم فوق المقاعد كلما مرت قاطرة يهودية ، فـكانوا يتطاولون باعناقهم ليعدوا عرباتها ويعلموا ما اذا كانت قاطرة شحن ، اوقاطرة ركاب .. وقد يشرع سليمان — وخاصة في حصة الشيخ حازم — بمحاكاة صفير القاطرة ، ليشرع الجميع بعده في جوقة : تشيك تشيك .. تشيك تشيك .. تشيك تشيك .. تشيك تشيك ..

آه يا احبائي الصغـار .. لوتعلمون كم كان عذابي وانا أهوي بذلك الغصن الرماني على أكتافكم واطرافـكم .. ولكني كنت اخاف عليـكم من لؤم تلك القاطرات ، وانـتم بعد في صحوة العمر ، ولا تعرفون مامعنى « رصاصة طائشة » قد تذهب بابتسامة احدكم الى الابد .. آه ياأحبائي ، لعلـكم تتساءلون عني اين أنا الان ، بعد ان اختطفتني سيـارة الجيب يوم امس

الاول .. واخشى اذا عرفتم اين انا ، وفي اية زنزانة قذرة اتلق اللحظات الثقيلة ، ان تتألموا من اجلي ، من حيث لااحب لكم الالم .. لابأس يا احبائي ، فبعد ايام قليلة ، سأذكركم دائما لانكم اعز مافي حياتي .. فان لي عارا قديما لاتعرفونه ، وقد حاولت جاهدا ان اكفر عنه ، بأن ازرع في نفوسكم مالم يزرعه احد في نفسي وانا لين العظم ..

* * *

ياعقلي المشتت المسكين .. ياعقلي المتبلد .. اية كتلة فاسدة من النخاع تملأ هذه الجمجمة .. ماذا لو تراجعت قليلا ، وتحفزت بكل قوتي ، واهويت برأسي على القضبان ... لم لم افعل ذلك .. لا لكي انتحر ، وانما لانتقم لنفسي من نفسي .. من هذه الجمجمة الفارغة ، العميقة ، السيئة التدبير .. الجمجمة التي سنحت لها الفرصة بعد الفرصة ، ولم تحسن استغلالها .. ولكن ، ماذا يجديني الان ان اهشم رأسي في هذا الباب الحديدي ؟.. لن يكون في استطاعتي أن ابصر الصدمة بتفاصيلها المروعة ، واتمنى لو ابعث شخصاً آخر يتفرج بتشف على هذا المشهد العنيف .. ولكن كيف .. كيف لي ان اقف بنفسي على نهايتي المفجعة ، وأن اتذوق لذة الانتقام من عقلي المتحجر .. لافائدة من كل ذلك .. وانا لم افكر يوما أن انتحر .. اريد الانتقام .. الانتقام العنيف فقط ..

— أهذا اذن اول الجنون ؟!..

احس بدوار شديد ، وتلك ذبابة كبيرة تطن وراء القضبان بخلاعة فاجرة .. يا إلهي .. ما الذي جاء بهذه الحشرة اللعينة داخل سراديب السجن .. ما الذي جاء بها خلف نافذتي بالذات .. وما شكل هذا الطنين المرتفع ، المتزايد في الارتفاع .. أذبابة تلك أم مذيع سخطته الجن في هيئة ذبابة .. الان يعودني صوته الخافت من خلال المذياع ، فها هو يقرأ نبأ العدوان بتثاقل كئيب .. ثم ها هو يحتد فجأة ليعلن عن كتاب الاحتجاج الذي رفعته الحكومة الى لجنة الهدنة ..

— وكان شديد اللهجة ..

أحس بدوار واختناق .. والمذيع يعيد النبأ المرة تلو المرة .. لا بل الذبابة .. بل المذيع .. بل الذبابة والمذيع معا في ثنائي داعر يتبجحان باحتجاج الحكومة .. ألا استطيع ان اسكت هذه القاذورة خلف القضبان .. وكيف لم يخطر لي ذلك من قبل .. حسنا .. فلأحاول اختطافها اولا ، ويجب ألا اخطىء في هذه المرة .. لاينبغي للفشل ان يلاحقني حتى مع الذبابة .. زنقاً بيدك يا أحمد وانت تنفذها خلال القضبان .. ها .. لماذا افلتت منك .. لكنها لن تفلت في المرة الثانية .. في الجولة الثانية .. هيء لها كينا آخر .. سننسف خط الحديد اذن .. كل شيء مفهوم .. سأختطف الذبابة .. لكنها تراوغني .. لن تقع في يدي ابداً .. صوتها الفاجر يعلو كثيرا .. يشتد .. لم يعد صوتها عاديا ولا حجمها .. اقسم انها لم تعد ذبابة .. فها هي في حجم

الغراب ، وصوتها يرتفع ويرتفع .. ها هي في حجم القرد وبناحها يملأ الزنزانة .. كل شيء فيها ينمو برداءة مميتة .. وهي الآن تمرد جناحيها على كامل الدنيا ، فلا أرى ، ولا اتنفس .. أكاد اختنق ولا احد يصدقني .. الذبابة .. انها هي التي ستنتقم .. الذبابة .. انها تتكلم .. تذيع نبأ الاحتجاج لتغيظني .. لتقلقني .. لتجعلني انتحر .. لا .. لن انتحر .. لن انتحر .. الذبابة .. لن انتحر ..

اعقلي المشتت المسكين .. ماذا كنت اقول .. الذبابة ... لقد فاتني موعد الحصة الاولى .. ولكنني لست في القرية .. أين أنا اذن ؟... هنا ؟.. أجل ، هنا .. وتلك اخبار السلف على الجدر الكلسية المتآكلة .. واصداء احذية ثقيلة في المكان ..

أخلاط كثيرة من الاشياء ، والمشاعر ، والافكار ، تتحد الآن في نفسي بلا أي تجانس ، وهي في مجموعها تهوي على رأسي كطرقة خشبية هائلة .. وابشع ما اعترف به لنفسي هو ان قواي العقلية لم تعد اياها ، والا استطعت ان اجد سياقا لكل هذه الامور القابضة .. ولكن كتاب الاحتجاج يشل ذا كرتي عما سواه ، ولا أقوى على تمييزه من صوت تلك الذبابة .. ولا أظن أن سياط الصباح التي تناولتها في موعد الافطار تماما ، اشد ايذاء من هذه المطرقة الخشبية التي احسها ولا ابصرها .. ثم هذه القضبان الصدئة ، أين ابصرت شبيهة لها في احد الايام .. ما الذي يستعيد في ذاكرتي مدينة بيت لحم ، ولماذا تحضر في صورة الماريستان هناك ، ونوافذه المتشابكة ..

— يا للروعة اذن .. ماذا يقول الناس ؟ مجنونه ايها فجن من شدة الخوف ؟... أهذا ختام القصة يا احد .. أحمد المجنون !!..

ان هذه العبارة التي ملأتني ذعرا ، ولم يتناقلها احد من الناس بعد ، قد نفضت عن نفسي غبار الاحداث ، كقشعريرة ترج البدن وتفتح الحواس .. ولعل في وسعي الآن ان ابحث عن احداث امس الاول لاجد فيها نفسي ، وصحة عقلي ، وذا كرتي المعافاة .. فما الذي حدث تماما ؟.. رويدا رويدا ، ولا بد ان اتذكر كل شيء ..

كانت ساعتي تقارب السادسة صباحا ، ومعنى ذلك انني متأخر قليلاً عن موعدي اليومي في الذهاب الى المدرسة ، لذلك اسرعت الى خشبية خارج حجرة النوم ، اسميها المطبخ ، وغليت فنجان قهوة ، واسقطت وجبة الافطار من حسابي ، لأكون في موعد الحصة الاولى في المدرسة ..

— لابأس .. بداية القصة اصبحت في يدي ..

وبعد ان رضيت عن نفسي داخل ثيابي ، تناولت كتاب « القراءة الجديدة » للصفين الاول والثاني ، وتأكدت من ان النافذة محكمة الاغلاق ، والقيت نظرة اخيرة على اشياء الحجرة ، واغلقت بابها وباب الخشبية بمفتاحين بلديين لا يقلان عن نصف كيلو .. وانصرفت بعد

ذلك مباشرة في الطريق الى المدرسة ، مارا بدكان عوض اللحمي الذي كان مغلقاً على غير العادة .. متسللا لصق الحيطان الهرمة ، دون ان اصادف احداً يطرح علي التحية .. «عالعافية ياستاذ» .

ـ لا بأس ابداً .. ذاكرة كالذهب ..

وقبل أن انعطف الى ساحة القرية ، انصرفت فجأة عن نفسي ، وجاءتني تلك الدمدمة الخافتة من صوب الساحة ، وخطر لي اول الأمر انها جلبة سوق الماشية ، ثم تذكرت انني لم أبصر ابداً سوقاً للماشية في بتير ، ولا اعلم كيف جاءتني تلك الخاطرة السخيفة حقاً .. واذكر انني اسرعت قليلاً حتى أصبحت داخل الساحة الغاصة بكل احياء القرية من انسان وحيوان ، وقد شدهت لحظة ، وتثاقلت نبضات قلبي مذ ابصرت هذه الدنيا الصغيرة بأسرها تتصايح وتتلاغط ، وكان جماعة من الرجال يتحلقون بازدحام خانق حول شيء ما .. ولم استطع حتى تلك اللحظة ان أخمن ، ولو تقريبياً ، معنى تلك الجلبة العويصة ، الا انني رأيت بعض النسوة يبكين ، خلال حوار بينهن ضاعت فحواه في حركات ايديهن ولغطهن المبهم ، كما ابصرت تلاميذي ـ وذلك ما توترت له حقاً ـ يتداخلون في الزحمة أو يتملصون منها دون أن اظفر باكتراث احدهم ، وكانوا حفاة ، والقذى يملأ جفونهم ، بمعنى أن لا مدرسة اليوم .. وخلال الازمة التي اجتاحتني على غير توقع ، وجدتني التحم بالآخرين ، وكنت على وشك أن اسأل أيما شخص عن كل ما يجري ، ولكني خشيت أن اكون « كالاطرش في الزفة » ، فتهيبت عن السؤال في اللحظة الاخيرة .. غير انني استطعت أن التقط حواراً عصبياً شارك فيه ثلاثة أو اربعة من الشبان .. واتذكر الآن انني سمعت :

ـ بلا مسخرة يا شيخ .. ماتت الرجال .. والله مافينا رجل ..

ـ خل البشر يدفنوا حالهم طيبين ، أشوف ..

ـ بلا مختار ، بلا ذنب الجحش ..

والواقع أن تلك كانت اول مرة اسمع فيها خروجاً على المختار من أي نوع ، فكان لا بد أن يكون له شأن ما في كل هذه اللمة الصباحية ، وقد حاولت أن اخترق بؤرة الزحام باحثاً عنه خلال الاكتاف البشرية المتراصة ، الا انني ما كدت اضغط نفسي بمنكب احدهم حتى شهر راحته الى اعلى ، وصاح دون أن يلتفت الي :

ـ دم يا عالم .. دم يا ناس .. فرجة هي ؟ .. سينما ؟!..

نكصت عائداً ، وقد احتقنت بالخوف فعلا من سماع كلمة الدم ، وتساءلت من يكون الميت .. القتيل .. وخطر لي انه ربما كان المختار نفسه قتله احدهم لسبب ما .. من يدري ..

ربما تدخل في شجار حول ملكية ثلاث زيتونات أو اربع .. أو ربما سعى لزواج فلانة من فلان فأرداه ابن عمها قتيلاً ..

ولكن ، لا ..

في لمحة عارضة لمحت المختار جالسا بعباءته أسفل جدار حجري خرب ، وكان يعض على انبوبة غليونه الطويلة بفمه الأعزل ، تقريباً ، من الأسنان .. وحين مضيت اليه شعرت ان رجلي مقيدتان في الارض بأثقال من الحديد ..

ـ صباح الخير عم ابو رمضان .

ـ الله يصبحك بالخير يا ولدي .. ولو انه صباح شؤم ..

وجلست الى جواره ، اذ كان لا بد لرجلي المتهالكتين من الجلوس ..

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ..

قالها ، وعض على انبوبة الغليون يتدارك انفاسه الاخيرة . ولكن الغليون احترق ما فيه من التبغ ، وكان لا بد من تعبئة جديدة ـ اذ لا يتحدث ابو رمضان عادة الا وهو يمج الدخان من رئتيه ، فيكون له ذلك الصوت الأخن العميق ـ والواقع أن اعصابي المتوترة ، عاشتدهرا طويلاً مضطرباً خلال الفترة التي اعاد فيها تعبئة الغليون .. واخيراً تكلم ، وكأنما سكنت روحه سلحفاة هرمة ..

ـ مسكينة الحاجة فاطمة .. فقدت كل ثروتها ..

ولم اصل من عبارته الى أيما شيء .. فقلت بين حسرة المشاركة ، ولهجة السؤال ..

ـ فقدتها ...

واغفل المختار كلمتي البلهاء .. وخاطب نفسه بأسى عميق ، كمن يدلني على الصيغة المناسبة التي كان يجب أن اقول :

ـ العوض على الله .. هو خير وابقى ..

وهنا ، وجدتني انهض من جواره ، وأشق الجمهور المتصايح المتدافع ، عسى أن افهم شيئاً حول ثروة الحاجة فاطمة .. وقد سمعت احـداً يقول « الاستاذ » ، واحسست يدا ثقيلة تشدني من المعصم ، الى أن وقفت تماما على تلك الدائرة الدموية الواسعة .. ولأول وهلة لم ادرك شيئاً ، فأغمضت عيني قليلاً ، لاستجمع نظرة مركزة على الجثث البشرية الهامدة امامي .. اذ لم يكن القتيل واحداً ، ولكنها اربع جثث غارقة في الدم ، وكانت مسجاة على بعض العبي القروية الخشنة ، التي جاد بها اصحابها لتقي دم القتلى من دنس التراب .. وفيما كان احدهم لا ينفك يردد هذه العبارة بصوت مخنوق :

ــ الله ينكب اولاد الحرام .. نكبوا العائلة كلها ..

كنت بدوري ثابت النظرة ، بالحاح خارج عن طوقي ، على جثة الاب الشيخ بالذات ، ومن ثم على جثة ابنته ، وجثتي ولديه .. ولم استطع في ذلك الحين ــ رغم التركيز القوي الذي اهلك اعصابي ــ أن الاحظ أي معنى أو تعبير في الوجوه الاربعة الساكنة .. ولكنني الان اذ استحضر صورتها في الدم المتخثر ــ واقسم انني قادر على استحضارها في أية لحظة اشاء ــ فانني اعي كل تعابيرها بين فاحصة باردة ، كلوحة رسام همجي ماثلة امامي .. وقد افهم الان ايضا لماذا ألحت عيناي على جثة الاب الشيخ بالذات .. كانت عيناه تتهمان هذا العالم كله بالبشاعة والعار .. وربما تصايح اطفاله من حوله ، لحظة ان غاص الرصاص في اجسادهم القليلة ، فتشنجت راحتاه على نية احتضانهم .. وظلت تعرجية شفتيه على آخر حرف ، من آخر كلمة له .. وربما كانت :

ــ حبابي .. اولادي ..

وأما ابنته ، امينة ، فكانت مسجاة الى جانبه في تلك البؤرة من ساحة القرية ، بلا اي تعبير مذعور ، كأنما استقبلت الموت بذلك الاستسلام الانثوي الشجاع .. على حين كان التعبير المرسوم على وجه محمد ، البكر ، مزيجاً من الخوف ومحاولة الاحتماء بشيء ما .. واما اصغر اولاده ، طلال ، وربما كان في السادسة أو السابعة ، فأقسم ان الف سنة من الموت ، والتحلل ، لن تفقد عينيه ذلك الصفاء الخالص ، كمن يتطلع الى لقاء الآلهة في حدائق السماء ..

لم ادر كم وقفت على ثروة الحاجة فاطمة .. زوجها وفلذاتها الثلاث .. ولم ادر ابدا ما اذا كان في اخيلة الشياطين ، ان عزمت على تصميم جريمة ، ابشع أو اشد حقداً من تلك الصورة المفزعة .. بل أن قوة الخير ، اذا كانت موجودة حقاً ، فلا حاجة الى اكثر من تلك الجريمة للتعبير عن اندحارها المخجل .. والا ، أين كانت تلك القوة الخيرة .. في أية ارض سابعة تحت الارض كانت تنام .. أم انها رفعت اعلامها للشياطين .. أم تؤجلهم الى حين .. أم هي الاخرى في هدنة مع الشر لا تنتهي الى اجل ، ولا تقف فيها الدماء البريئة عن تفجرها بلا خلاص ..

واذ انا في الجمهور اللاغط ، استطعت دون سؤال ، أن التقط اطرافا من التفاصيل التي قتل فيها الحاج مبارك ، وابنته ، وولداه .. كان يحتدم الخلاف بين جماعات الشبان حول تلك التفاصيل ، الى أن يتدخل زيد من الناس أو عمرو ، فيقسم انه كان على مبعدة ثلاثين مترا فقط من الحادث كله .. وقد يقسم غيره انه رأى الجندي اليهودي وهو يفلت رشاشه من نافذة القطار ، أو انه كان بدوره في مرمى الرشاش ، لولا أن اتقى فجأة بين الصخور .. والحق ان اهتمام الشبان بالحادث كان يمازجه نوع من الغضب .. والحيرة ، والغليان .. على عكس اهتمام

المختار الذي ربما كان مشغولا طيلة الوقت في اجراءات الدفن ، وتبليغ المسؤولين في بيت لحم ، وتدبيج عريضة مؤثرة ، تكفل قرشين للحاجة فاطمة ، لعلها تستعين بهما على اخريات ايامها ..

وفجأة ، ومن خلال اللغط الذي كان يدمدم في جو الساحـــة ، وفي لحظة شاردة من التفكير كنت ابحث فيها عن تلك القوة الخيرة .. سمعت صوتا اجش ينبعث من مسافة قصيرة :

ـ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا ...

والتفت ناحية الصوت ، فكان أعميان من قرية مجاورة قد وصلا توا ، واقتعدا التراب، وشرع الاول يتلوالآية دون بسملة ،وتعجيلا للدخول في لب الموضوع، بينما ظل الاخر يعضعض شفته السفلى بعصبية ظاهرة ، ويأتي بجذعه ويروح على وتيرة واحدة ، كأنما هو يستشهد القرية كلها على شراكته في الاجر مع زميله المقرىء ..

آنذاك لم اتمالك نفسي من ثورة طاغية اجتاحت شخصي الداخلي ، ولا أدري كم حطمت من اعصابي المتهالكة .

وصاح احدهم في مجموعة من الشبان كانوا يصغون اليه :

ـــ لا ، أبداً .. اسألني انا .. الصغير كان في حضن والده على الحمار ، والبنت والولد كانا يجريان الى كرم العنب .. ومع مجيء القطار وقعت الطامة .. اسألني أنا .. وبالأمارة ، حين جريت نحوهم كان دم الصغير يدفق من خشمه ، واصابعه تتحرك ، وكان وجه البنت ـــ يشهد الله ياعالم ـــ مكبوبا على رغيف الطابون الذي سقط قدامها .. الرجل ياسيدي لم يكن ماشيا جنب السكة .. كان فوق الحمار ، والا عدمت عيني .. وبالامارة كانت السلة فارغة ، بدليل انه ذاهب للكروم .. هو الحاج مبارك ياعالم ، كان هاجا ليعرقل القطار ؟!..

* * *

في هذه الحفرية العجيبة ، في سجن ما ، تحت التراب .. لاتسعفني الذاكرة بكل الذي حدث صبيحة امس الاول ، فثمـــة امور استحضرها بجلاء تام ، وكأنها تقع اللحظة .. وثمة امور اخرى ، كمراسم الدفن مثلا ، استعيدها كمشهد غارق في الضباب .. ولا اعزو ذلك الى عيب في الذاكرة ، ولكنني كـنت أغيب احيانا عن دنيا القرية كلها لاستغرق في خواطر حانقة .. وقد تساءلت طويلا عن سبب العجز الذي يقعد بهذا الجمهور القروي عن الانتقام ـــ لماذالاتحمل القرية السلاح خارجة على العالم كله ...

ـــ كما خرجت بدورك الى كفر عصيون ... هل نسيت ؟!..

وعند هذه الخاطرة القطرانية ، تأزم حواري الداخلي ، واجبت كيفما اتفق :

ـــ لكن ذلك مضى .. ونحن اولاد هذه الساعة ..

— ذلك حسن جدا .. هيا اذن .. قم بأي عمل ..
— احمد ... ماذا تقصد ؟!..
— ان تقوم بأي عمل ..
— مثلا ؟...
— أنت الاستاذ هنا ، وقد تستطيع ان تفعل شيئاً ..
— دعني افكر ..

ولأول مرة ، منذ خمس سنوات ، أحسست انني اتنفس ، بجدارة ، هـذا النسيم الذي حركه الله في ربوعنا منذ بدء الخليقة .. ولاول مرة ايضا ، شعرت أنني متواجد مع هذا الثرى الطيب في اللحظة العزيزة .. وكأن شلالا من الطهر كان يغسل مابين أضلعي ، فاستحم فيـه الى حد النشوة والغياب..ولقد عجبت لروح الثقة ، التي لم اعهدها قبلا ، والتي اندلعت في كبركان.. فأنا مدير مدرسة القرية ، ويجب ان افعل شيئا .. ان كلمة حماسية قصيرة سيكون لها فعل السحر في هذا الجمهور الغاضب .. وهنا رجعت الى حواري الداخلي :

ـ فماذا اقول ؟..
ـ ما تحسه بصدق ، وعفوية ، وحضور تام ..

كانت الشمس في اوجها .. وانصرف النساء والشيوخ والاعيـان الى المقبرة ، على حين ظلت الساحة غاصة بجماعات الشبان .. وكنت انتقل من جماعة لاخرى دون اى هدف ..واذكر انني هجبت لنفسي بأننا جميعا في الساحة اشبه بكومة هائلة من الخشب المتيبس ، وان عود ثقاب واحد يكفي لان يجعلنا لهبا غاضبا يشوي جنوب القتلة الادنياء ..

ـ خط الحديد ..

ولا ادري ان كنت انا اول من نطق هذه العبارة ، او انني التقطتها من فم شخص آخر، ولكنها ، على اية حال ، سرت في الجمهور الصغير كشحنة مترعة ينقلها موصل جيد ..

وتشابك اللغط باصوات عالية :

ـ خط الحديد .. القطار التالي .. ليست لدينا الغام .. معنا ساعتان فقط .. استنجدوا بالحكومة .. انصبوا كمينا للقطار .. سننتقم .. فؤوسنا تكفي .. لا حاجة للالغام .. باستطاعتنا تحريك القضبان .. نقيم عليهـا كومة من الصخور .. لا يوجد رصاص .. البنادق .. خط الحديد .. الكمين ..

ـ سماع يا اخوان ..

واخذت نفسي الى جدار مرتفع لاقول كلمة ، بينما كان عبد الحميد يصيح بملء صوتـه :

ـ سماع يا اخوان .. فضيلة الاستاذ يريد ان يخطب ..

وصفق يديه فتلاشى اللغط مرة واحدة ، واستدارت نحوي العيون واسعة متسائلة ، وكدت ان ارتبك لولا ان عادني ذلك الهاتف الداخلي : « قل ما تحسه ، بصدق ، وعفوية ، وحضور تام » .. وتحدثت ، فعلا . بطلاقة واتساق عجيبين . . وحين بدا لي ان الساحة كلها تصغي الي بأناسها ، وترابها ، وجدرها المتهدمة ، أيقنت ان عود الثقاب اشتعل ، ولكن في أسفل الكومة بعد ..

لم تكن ثمة اية خطة في أذهاننا ، وإنما كان هنالك اجماع عصبي على نسف القطار التالي ، بأي ثمن ، وبأية وسيلة .. وأما ماهي الخطة المفصلة لنسف القطار ، فهذا السؤال لم يخطر على بال أحد .. وكانت الآراء تتعدد بعدد الاصوات المتعالية في الساحة : فالاطفال والنساء مثلا ينبغي ابعادهم عن القرية .. والبنادق الخمس المتوفرة يجب ان يتنازل اصحابها عنها لأمهر الرماة ، وكذلك أمشاط الرصاص التي تقارب الاربعين .. مجموعة من الشباب تحدد موقع الكمين الصالح لمهاجمة القطار .. كل مالدينا ساعتان من الزمن .. مجموعة اخرى تتجه فوراً لتحريك القضبان في مواجهة الكمين .. قد لاتكفينا البنادق الخمس وأمشاط الرصاص .. عبد الحميد يركب فرس المختار ويطلب النجدة من بيت لحم .. لن نسامح القتلة عن دماء الاطفال .. عبد الحميد انطلق فعلا لمركز بيت لحم .. لن ندع مجرما على قيد الحياة .. بئير لن تكون ديرياسين ولا قبية الثانية ..

— اتفقنا ياشباب ؟..
— على الله الاتكال ..
— كل شيء مفهوم ؟..
— كله مفهوم ..

غير انه لم يعد ثمة اي شيء يمكن فهمه على سطح الارض ، بعد الذي حدث يوم امس الاول .. واعتقد ان هذه هي اللحظة اللائقة التي يجب ان أهشم رأسي فيها بين القضبان .. اللحظة التي يبدو لي فيها ان حبة جوز فارغة ، اكثر فهما وتدبيرا من هذه الجمجمة التي أنوء بحملها .. يا الهي .. كم انا خجل من مواصلة الكلام .. وماذا ينفعني الآن ان اتمنى عودة الزمن الى امس الاول ، فهو لن يعود ابدا ، والذنب ذنبي ، وانا الذي حرصت ان اكون خطيب الساحة الأهوج ، ولكني لم احرص على التفكير لحظة واحدة في معنى طلب النجدة من بيت لحم .. ياللعار .. كيف وقع كل ذلك .. وأي منطق يمكن ان ينظم اجزاء هذه المهزلة .. لربما كان عبد الحميد في مثل زنزانتي الآن ، وربما نهشت السياط جلدة وجهه هو الاخر ، وربما تساءل ايضا عن معنى اعتقاله ، دون ان يصل الى جواب ..

سيلعن عبد الحميد ، في دخيلته ، شرف اولئك الجنود الذين كبلوا يديه ، وساقوه رفسا

الى حيث هو الان .. وأما أنا ، فليس من حقي ان العن احدا سواي .. سوى عقلي الخائب المتبلد ، الاجوف ..

لم نسمع صفير القطار مساء ذلك اليوم .. لقد تأخر عن موعده بقصد .. ولكنا ابصرنا كوكبة من الجنود تسرع في اتجاهنا ، وربما كانت ثلاثين فارسا ..

كل شيء مفهوم اذن ؟..

ولكن شيئا على وجه الارض لم يعد مفهوما ابدا ، حين اقتحمتنا خيول الفرسان ،واخذ فارس بالذات — يبدو انه آمر الكوكبة — يهوي بسوطه ذات اليمين وذات الشمال ، وقد ملأ المكان بصراخه المجنون :

— ليوتكم يا كلاب .. أتظنون انفسكم رجالا .. أين هو الرجل فيكم .. ألا توجد حكومة تؤدبكم يا أنجاس ...

على أنني لم اكن واثقا من نفسي تمام الثقة ، حين اجبته من خلال الجمهور المتفرق :

— عد الى اسيادك الانكليز .. واتركنا نعمل ..

كان صوتي محيراً بين الدهشة والتعقل ، وكان ينبغي ان افعل اى شيء في مقابل تلك العبارة الرخوة .. ولكنني لم افرغ من عبارتي حتى احسست بالسوط ينهش وجهي ، واذكر اني سقطت على الارض ، وان سوطا كالنار كان يلتوي على جسدي ، ومن خلال الغبار الذي اثارته حوافر الخيول ، لمحت سيارة جيب عسكرية تهل نحونا ، ولمحت اشباحا تتراكض ،وسمعت اصواتا مختلطة آخذة في الخفوت ، وشعرت انني أغيب .. وملأ نفسي سكون عميق ..

وحين عدت الى نفسي رأيت قميصي ملطخا بالدم ، وألفيتني داخل سيارة الجيب على طريق لا اذكر اني سلكتها من قبل ، وعندها ، أيقنت أني سأمر بالتجربة ..

* * *

كان والدي يحدثني في ليالي الشتاء ، عن تجربة المؤمنين يوم القيامة ، كيف يدخلون النعيم على شفرة الصراط الحاد .. كان ذاك أيام الطفولة . وها إن حكاية والدي تعودني اليوم .. سوى ان الارض ، وليست السماء .. أرضنا هذه المعذبة الطيبة ، هي المكان الحقيقي ، في تصوري ، لتجربة المؤمنين .

من كتب وزارة الثقافة والارشاد القومي

صدر حديثاً

وداعاً يادمشق

قصص

لالفة الادلبي

* * *

تاريخ الحضارة الاوروبية

تأليف كلود دلماس

ترجمة كوليت حبيب

مراجعة ابراهيم ابو حيدر

الفنون

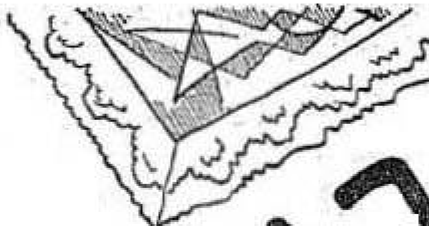
الكتاب والموضوعات

* أين هو التجريد الآن

ترجمة : قتيبة المعروفي

* ما هو الفولكلور

عثمان الكماك



أين هو التجريد الآن؟

بقلم أندريه بارينو

ترجمة قتيبة المعروفي

André Parinaud

يواجه الفن الجديث العالمي الآن منعطفاً جديداً في دربه، وهو يدلف اليه ونذر الأزمة تتوالى .. فبالأمس في نيويورك، وفي متحف الفن الحديث، محراب الفن التجريدي. عدلت هيئة تحكيم جائزة بورديل Prix Bourdelle عن المفاضله بين تمثال تجريدي ونتاج تشخيصي Figuratif . وكان ذلك المعرض الاول منذ خمسة عشر عاماً للفن التشخيصي في

متحف الفن الحديث . أما الموسم الذي يبدأ الآن فليس من ريب في أنه سيكون الفرصة التي سيتاح فيها النظريتين الفنيتين أن تقفا وجهاً الى وجه.

ونحن نرمي من التحقيق الذي نقدمـــــه هنا الى المساهمة في النقاش الدائر ، عن طريق الطلب الى عدد من الفنانين المعاصرين ليس فقط الاعراب لنا عن نظرياتهم الشخصية في التعبير عن الجمال بل أيضاً عن تحليلهم للتطور الفني المعاصر .

اندريه باريتو – ما الذي يعنيه بالنسبة اليك تعبير « الفن التجريدي » ؟

شابلان ميدي – إن الطلائع الجديدة تتوالى يسابق بعضها البعض بسرعة تجد أنفسنا معها وقد أضحى تعبير (الفن التجريدي) مبهماً واسع المدى. فهو يشمل ذلك التابع الذي هو التعبير عن فاعلية فكرية شديدة احساسية والتوتر . كما يشمل – فيما يشمل – أعمالا مملة تتراوح فيها درجة الحذاقة .. وهو يذهب – التجريد – من التعبير عن طريق أشكال مختلفة مرتبة بطريقة ماتحكمية لاتجد لها معنى محدداً .. الى الغياب الشامل لـ « شكل » .. بل ويذهب إلى ابعد من ذلك ؟ إلى اللوحة المادية الوحيدة اللون . وقد يذهب الى أبعد من هذا المدى ذاته أيضاً ، أي إلى اللوحة التي تكونها حركة يد رسام يرشق الألوان كيفما اتفق .. وحيث تمحى الالوان ..

إن هذا التعبير كما ترى ليس سوى نطاق واسع يجمع فيه عـــدد من المحاولات التجريدية التي قد لاينسب اليها المستقبل مرتبة ما من حيث ترتيبها الزمني !.. ولكنها محاولات صادقة وجديرة باضفاء قيمة إنسانية عليها . وترى الى جانبها كمية ضخمة من التزييف اليدوي والرسوم المزعومة الداعية التي لاتمت الى الفن بصلة ..

فلنطرحن جانبا – وهذا من الطبيعي – كل هذا الزيف البدعي الذي لم يكن يمكنه الآن ان يخدع سوى بعض النقـــاد الضالين ، هذا البعض المقتنع سلفاً ! بكل شيء شريطة أن يكون ذلك الشيء خاليـــاً من كل معنى .. وبضعة من المشرفين على متحف هنا أو هناك يزعمونه تقدمي الاتجاه .. والى جانب هؤلاء بعض تجار اللوحات .

فاذا طرحنا ذلك نستطيع القول إذ نلمس القاء الضوء على الحقيقة – وهذا ممـا يصعب حين يتعلق الامر بجمالنا هنا ، التجريد في بلد ديكارت Descartes وبوالو Boileau « فرنسا » الذي يعتبر فيه الغموض نقيصة ورصيداً – نستطيـع القول أن **التجريد رسم تمكن أخيراً من التخلص من العالم المحسوس** » وهذا هو التعريف الرسمي له ، فهو رسم يرفض اللجوء

الى التعبير عن الواقع بصورة تشخيصية تمثل أشكال الواقع كما هي فنتعرف عليها فيها .. هذا الى ان تشخيص أشكال الواقع يتبدى لك ـ أو يكاد ـ في نهاية المطاف أمراً مستحيلا .

اندريه بارينو ـ فلنضف اعتبارنا اذاً على هذا الجزء الحقيقي من الفن التجريدي .

شابلان ميدي : ـ إن المسألة بالنسبة إلي سهلة لاتعقيد فيها : هنالك نتاج يثير مني مشاعر وآخر لايوحي إلي بأي احساس .. هنالك ماهو حقاً رسم وهنالك ماليس بالرسم .. إن تعبيري « التشخيص » «والتجريد » مبدئيان كل المبدئية وتبسيطيان موجزان .. وذلك حين يتخذان المعنيين اللذين يضفيان عليهما في مجال الفن الحالي .

إن التجريد الحقيقي واقع بدهي ، وهو جزء من فن الرسم لم يتجزأ منه يوماً . وقد كانت الخطوط القاعدية الأولى التي خطها رسامو عصر النهضة La Renaissance نابعة عن علم حقيقي كما كانت — والى مدى شاسع — اكثر نقاء في « تجريديتها » من كل ما ينعته عصرنا الحاضر بالتجريدي .. بل لعله يجب علينا ان نقول بان الرسم بدأ من « التجريد » ، وان نضيف قائلين ان « التجريد » يكاد أن يتلاشى في أغلب الحالات في عصرنا الحاضر .

إن التجريد ، وأعني به التجريد الحقيقي لا كل هذا الذي يأتينا من كل جانب ويراد منا ان نصدق بانتمائه الى التجريد ، إنه التنظيم الداخلي للوحة ، وانت حين تجعل من هذا التنظيم الداخلي هدفاً بحد ذاته والسبب الوحيد والكافي لوجود اللوحة فانك بذلك تقلص عالم الفن إلى أبعد حدود التقليص وتحيله إلى مجال محدود المدى ، إنك إذ تفعل ذلك تدفع الفن بعجز خطير وتجعله قاصراً عن التصدي للصعوبات الرفيعة التي تمكن سابقونا من قهرها بالعديد من الطرائق المختلفة .

ان مسألة تنسيق العلائق بين الاشكال والالوان تشكل عنصراً اساسياً في اللوحة . فهي التي ستكيف رد الفعل الذي سيبدو لدى تلقينا البصري للوحة ، والذي سيبدر بالتالي عن قسم ـ وقسم فقط ـ من مراكز تجمع الحساسية ، في كياننا الداخلي . وتتجلى هذه المسألة بادىء ذي بدء في تلك الحقيقة المعروفة منذ القدم والتي برهنت عليها كل الابداعات في عالم الرسم ، أي في مدى تأثير اللوحة على الناظر اليها . ولكن هذه المسألة لاتعدو كونها **عنصراً** فقط ،وحين تجعل من هذا العنصر السبب الأساسي لوجود اللوحة **فانك تحيد عن الغاية** وتجعل من احدى **العمليات** ، او بالأحرى من احدى **الوسائل** غاية بحد ذاتها .

وأنت حين تنطلق من هذه الخطوة الاولى واصل لابد الى النتيجة المنطقية ، وهي أنه حينما يكون هدف مسألة العلائق بين الاشكال والالوان

اثارة حساسية الناظر عن طريق التراكيب المختلفة التي ينتهي اليها الرسام في تنسيقه لهذه العلائق ، دون أن يستلهم في خلق هذه التراكيب سوى عناصر لاتتمتع بقيمة انسانية ما ، ويعمد الى اختيارها بحيث تكون وليس هنالك مايماثلها في عالمنا الحقيقي المنظور ، فان الرسام يجد نفسه ملزماً باختراع تركيبات جديدة كل مرة .. ووسائل جديدة للوصول الى هذه التراكيب تزداد غرابة على غرابة في كل مرة كيما تصبح « كالمتفجرة » بحيث تتمكن من جلب النظر اليها والتأثير في الحساسية الكامنة وراءه .. ولكن هذه الحساسية تقل قابلية تأثرها بالغرابة وتعتادها بنسبة اعتيادها « الجرعات » المتزايدة شدة ..

اندريه بارينو ـ إنك حين تستبدل « الكونياك » شيئاً فشيئاً في تركيب « كوكتيل » بحمض الكبريت فلابد من ان ينتهي الامر بان يصرع الشراب من يتجرعه ..

شابلان ميدي ـ هذا مما لاريب فيه .. ان السخف والمهازل التي نشهدها الان باسم الفن التجريدي نتيجة حتمية لما كان في البدء **تنقية أو تطهيراً** ناجماً عن فاعلية فكرية أكثر منه عن حساسية ومشاعر . ذلك ان هذه « النقائية » ذات قيمة فكرية لاريب فيها ولكنها **عقيمة** حين يتعلق الامر بالاسباب التي تدعو الفنان الى خلق أثره الفني او بالتأثير الذي يحدثه هذا الاثر في **أعماق** المشاهد الذي لابد من أن يقيم الفنان لرأيه وزنا ، لان المشاهد هنا هو قبل كل شيء ـ من يعرض عليه الفنان عمله ، ومن يقتني اللوحة اخيراً ..

اندريه بارينو ـ لنعد الان الى مسألة العلائق بين الاشكال والالوان .

شابلان ميدي ـ لقد نوهت بمسألة تنسيق هذه العلائق مراراً ، وما يجعلني **أدين التجريد الشامل** هو الابداع في هذا التنسيق او ما أسميه **لعبة** هذه العلائق .. ليس الفن بالنسبة لي لعبا لا علاقة له بماحوله وليس باللهو الرخيص أو الغريب الذي يعيش ضمن نطاقه الذاتي ، بل هو ـ وعلى وجه التدقيق **مجابهة خطيرة الشأن للعالم الذي ننتمي اليه ..** انه عهد قدسي بالتعبير عن عالمنا بتمثيل له ابداعي عن طريق أنبل جزء في كياننا وأعظمه قابلية « للتلقي » . . انه محاولة للسمو بنفسنا الانسانية وتحريرها عبر نتاج ابداعي يمنحنا جماله وعظمته وعبقريته الساحقة المقياس الذي يكشف لنا عن ضآلة كياننا الواقعي ويجد لنا مثلاً أعلى يجب علينا ألا نتنكر له أو أن نحاول تلطيخه بل أن نحبه ونفهمه ونشيد به .

تلك هي الحقيقة الهامة ، فليس الامر الاساسي ان يطابق الفنان او يطابق الامر السائد في عصره أو أن ينساق أو لا مع التيارات الآنية ، بل هو ان تكون الحقيقة التي تمتلكه حيا

التعبير عنها هي بعينها التي يشعر بها في أعماقه وأن يتمكن من الوصول الى نقل مشاعره عنها الى الآخرين دون أن يجد نفسه مجبراً على اللجوء الى طريقة ما معينة للتعبير أو نظرية لا مناص له من اتباعها.

وهنالك أمر آخر يبدو لي أنه يقود ـ أيضاً ـ الفن التجريدي نحو طور التحطيم الذاتي. إنه موقفه الذي قد نستطيع نعته بالفلسفي .. فهو يقدم لنا مثالا عجيبا يقلب دور الانسان رأسا على عقب !.. ذلك أنك ترى فيه الانسان الفرد ـ دون وعي منه ـ تائهـا أمام نفسه بسبب من ذلك التورم hypertrophie الذي يجد فيه شخصيته .. فيجد نفسه وقد امتزج كيانه بالفن ، **بل وأصبح هو نفسه الفن** ، أي أنه أصبح موضوع اللوحة وحدنها ليس من رغبة أخرى تساوره سوى تجسيد نفسه عن طريق شارات وأشكال وألوان لاقيمة لهـا ممكنة الا بمقدار ما تعبر عما يعتبره هو كيانه الداخلي .. فلابد للوحة والحالة هذه من أن يتقلص مداها حتى تنقلب الى نوع من التخطيط الذاتي التصويري لكيان صانعها électrocxrdiogramme .

أما صانعها هنا فتجده سجيناً لكيانه الذاتي وكأنه حبيس قفص ذي جدران زجاجيـة يعجز عن رؤياها فهو مجبر على «التجوال» حول مركزه الذاتي كمن اختطفته دوامة Maëlstrom طاغية الشدة قد يكون طابعها المأساة احياناً .. كما حدث من قبل لـلكاتبة فذة الفكر هي(مدام دي ستايل) De staël وهي ذات الموهبة الرفيعة .

ان هذا **الرفض** للعالم الخارجي ، أي للطبيعة ، وبالتالي فلابد للطبيعة من أن تفرضه من تواضع حتى على أشد الجميع عبقرية ، يعبر عن **اعنف ازمة كبرياء لاواعية** تعرض لها الفن طوال تاريخه . وهو اولا واخيراً قلب لدور الفنان الذي **يكف عن الاتصال بالكون** الخارجي اذ يعتبر نفسه وقد اصبح هو بذاته **الكون** فهو لايتصل الا مع نفسه ويقلص كل شيء بالتالي الى حدود مقاييسه الذاتية .

اندريه بارينو ـ لقد فهمت مماقلته لي فيما سبق أن المحاولة التجريدية القائمة على عدم اقتباس أي من الاشـكال المعروفة في العالم الواقعي ، أي المألوفة للانسان ، انتهت الى الفشل ؟

شابلان ميدي ـ أجل .. اذ يبدو ان الـكلمة الأخيرة للطبيعة دائماً ، وهذه لاتلبث أن تثأر لنفسها . فقد انتهى الامر بالفن التجريدي عندما وصل الى ختام مطافه القائم على رفض تمثيل الطبيعة أن تشبث دون وعي منه بالتقليد الحرفي الدليل المحدود للطبيعة ، وهو تقليد بدائي وعنيف في الوقت نفسه. **ذلك أن عدداً كبيراً من اللوحات التجريدية يشخص بعض الاشياء المادية في عالمنا الواقعي كقطع الرخام او الصخور مثلا ، او قشور الشجر والوحل واسفلت الارصفة ومقاطع النباتات ، او تكبيرات لصور ميكروسكوبية او صور اخرى للفضاء**

الخوجي. أي أن هذه اللوحات تقدم لنا اشكالا غير متخيلة أو مخترعة او مسبوكة لهذا العالم الواقعي، وتنعدم بذلك الصلة بين الطريقة التي تقل الينا فيها هذا العالم و بين خط السير الاساسي للفن، ونحن هنا نجد انفسنا في طور **الرسم المعاكس** واقصد به الطور الذي لامناص للفنان فيه من أن يرتد من حيث هو ليتمس من جديد في المادة الاولية تلك المادة التي انطلق منها، وهو **يرتد اليها** في اللحظة عينها التي يظن نفسه فيها قد **تحرر منها بصورة كاملة**.

وكيف تعلل اخيراً ذلك النوع من الانهيار الذي يحدث في اللحظة القصوى، والذي يحمل « التجريديين المتطرفين» على اعطاء لوحاتهم اسماء جديرة بالسخرية او ذات دلالة فكرية تركيبة.. واذكر منها على سبيل المثال اسماء كـ « معركة البقرات » أو « النفسية تحت الارضيــة » او « وحدة كيانية اثنائية » الخ ...

انك لاتستطيع تعليل ذلك الا بالدوار الذي ينتاب التجريدي المتطرف امام دوامــة التيه التي خلقتها تجريديتهم ذاتها .. فيحاول آنذاك استعادة بعض الثقة بنفسه .. وهنالك تعليل آخر يجدر بنا ـ تأدباً ـ ألا يخامر ذهننا .. وهو رغبة الرسام في خداع الجمهور ..

اندريه بارينو ـ لعل الفنان التجريدي يريد بكل بساطة طمأنة الجمهور، وجذب انتباهه في الوقت نفسه ؟

شابلان ميدي ـ بل لعلك لوتفحصت الامر جدياً وبحثت عن الدوافع العميقة في هذا الذي يبدو لك لأول وهلة كنوع جديد من الاعيب السحرة لوجدت البرهان على ان التقــاليد المتوارثة في الفن والتي تقوم ـ مذ وجد الفن ـ على اعتباره « نقلاً لواقع » او « حكاية له » لاتزال تعيش خفية في اعماق هؤلاء انفسهم الذين اعلنوا انفسهم الاعداء الألداء لهذه التقاليد .. وهذا مايعود بنا الى احدى القواعد الاساسية لفن الرسم التي نسيناها كل النسيان وهي أن للفن واجبا هو **واجبه في أن يعني شيئاً ما**، وأنا اكرر هنا التعريف الرائع البسيط الذي وضعه « أندريه بروتون » André Breton لهذه القاعدة .. أو ليست هي التي منحت الفن مكانه الحي النبيل الضروري في القلب من المجتمع الانساني .

وهنا نصل الى العقدة في معضلتنا، ذلك أن الصعوبة الكبرى هي في أن **يعنى الفنان شيئاً ما وأن لايخون الفن** في الوقت نفسه .. والسر الذي يجعل من الفنان عظيما ويسمو به الى ذروة من الفن يكمن في هذه النقطة بالذات : **انه الانتصار** في هذا الصراع الازلي بين هذين الواجبين .. وانت لن تملك الا الشعور بالاعجاب امام العديد العديد من الحلول والوسائل

التي استنبطها الفنانون منذ « لاسكو Lascaux » و « آلتاميرا Altamira حتى الآن للوصول الى النصر في هذا الصراع .

وعندما يرفض الفن أن يقوم بدوره **كناقل انساني للواقع يحكيه** ويقدمه **للآخرين** من أفراد الاسرة الانسانية فهو يتنكر لكل صدى عميق يجب أن ينتجه ولكل امكانية في الخلود ولكل تأثير فعال بل **لطابعه الاخوي** الاساسي بالنسبة لهؤلاء الذين لم يوجد الفن الا من أجلهم .

اندريه بارينو ـ ألا تعتقد ـ بالرغم من ذلك ـ انهذهالفقاقيع التيتنفجر علىصفحة عصرنا ذات علاقة ما مع الفن ؟

شابلان ميدي ـ بلى وبالتأكيد ، ولكنيلا أعتقدأنهامتصلة بالقسمالرفيع من الفن .. ان لكل عضو امجاده من ناحية وعثراته وخرافاته أيضاً من ناحية أخرى .. ان البلدان القديمة مثل فرنسا تنتهي فيما هي تجد وراءها كنوزها الثقيلة المبهظة وذلك في عصر كعصرنا يتطلع نحو المستقبل ، تنتهي بالشعور بالحاجة لأن تبرهن على انها لاتزال بلداناً شابة ، لاسيما اذ تواجه بلداناً حديثة في شرخ شبابها ، خفيفة حمل التقاليد شديدة القوة .. وهكذا يتولد السباق ثم يثير مزايدات ثم يدفع هذه البلدان العريقة الى نسيان روحها الاصلية التي تميزها عن غيرها والتي هي المنبع الحقيقي لعظمتها .. فلاتلبث ان تنساق في تيارات لامبرر لوجودها ـ حين توجد في بلد ما ـ الا حداثة هذاالبلد وضآلة تقاليده وحصته من التراث الفني والفكري .

وهنالك ناحية اخرى تتعلق بالوثبة الرائعة الحالية للعلم مما سيكون الطابع المميز لعصرنا الحاضر .. فقد كان لهذه الوثبة أثرها العميق في كل احساس بالعالم ورؤية له لدى الانسان الحالي .. ولايمنع كون الفن والعلم منتميين الى طرفين مختلفين من أن انقلاباً سرى في كيان الفن الذي شعر فجأة بتفوق العلم عليه فكان لابد من ان يعيد النظر في اسسه الذاتية التي قام عليها .. ولكن الفن لايزال أقدم الفاعليات الانسانية ، وسوف يظل دائماً فاعلية تتجمع فيها الذكريات والآثار الماضية والنظريات المسيطرة والاسرار المهنية و « التكنيكية » والغرائز الموهوبة والتجارب المكتسبة ، وهذه جميعاً لايمكن تصنيفها في قوانين وقواعد كما لايمكن نقلها للآخرين ، بل انها تموت مع الاستاذ الذي يمتلكها .

أما من الناحية الروحية فالفن يكون عالماً آخر للتعبير الانساني تختلف الابعاد والمقاييس فيه بصورة جذرية عن عالمنا الواقعي .

اندريه بارينو ـ لاريب في ان الحركة التجريدية أثارت رد فعل مالديك . فاهو رد الفعل الذي شعرت به .

شابلان ميدي ـ ان لدي القدرة لحسن الحظ على اللامبالاة بمايثير ضجري .. وقد اخبرتك فيما سبق انني اشعر بالتوجس امام كل ماهو منهجي او نظري فقط .. وتجد الرد على سؤالك لي في نظرتي الى الفن التجريدي التي عبرت لك عنها .

والخص لك رأيي بأنني أحاذر دائماً من ان اجد نفسي حبيس طوق ما او شيء ما مهما كانت مميزات هذا الطوق أو الشيء . . لان هذه الدائرة المغلقه قد تصبح طبيعة ثانية في كياني تجعل العنصر الفكري فيه يطغي على العنصر الغريزي . . إنني أندفع دائمــا بصورة تلقائية نحو ما أشعر بالحب له سـواء كان منتميا الى الماضي او الى الحاضر وسواء كان مطابقا لنظرية ما أولا .

اندريه بارينو ـ عندما ترسم أنت بالذات تفاحة مثلاً ، فما هو غرضك من نقل هذه التفاحة إلى اللوحة ؟

شابلان ميدي ـ إن هذه التفاحة — قبل كل شيء ـــليست وحيدة منفردة بالنسبة إلي . . إنها دوماً ثنائية الوجود : فهي ذلك الشيء الذي صنعه الله وهي أيضاً الفضاء الذي تسبح فيه . . واني اعتبر العلاقة بين التفاحة والفضاء الذي يحيط بها شديدة الاهمية لأنها وليدة مقياس لايعيرها التيار التجريدي الحالي أي مبالاة . . وهذا المقياس هو البعد الثالث . أما الرسم المعاصر فهو رسم يهتم **بالسطح** فقط ولعله لايبالي إلا بالبعدين الواقعيين للوحة : الطول والعرض . .

ويعبر هذان البعدان الماديان عن الناحية **الأشد اغراقاً في الرجعية** و « البدائية » في طريقة « تلقي الأحاسيس » المعاصرة . انهما يعبران عن تذوق سطحي أو « قشري » لعصر شديد السرعة .. يمنعه إعياؤه من أن يتعمق فيما وراء الالقاء السطحي الاول « بالمادة الاولية » التعبيرية التي يقدمها السطح المستوي للوحة . . ولكن هنالك البعد الثـالث **غير الموجود** . بسبب من كون اللوحة مستوية السطح . . وهذا هو البعد السحري العميق . . لأنه يمثل الفضاء والحيز . وهو البعد الذي كان يمكننا أن نسميه البعد التجريدي لو لم تزدحم كلمة التجريد بمعان غريبة عنها . . وإني أفضل تسميته **بالبعد الروحي** . . ذلك أنه البعد الذي يتمتع بميزات تمنحه القدرة على التأثير في مشاعر المشاهد ، لأنه هو الذي يتيح للمشاهد أن ينفذ « إحساساً » وفكرياً وروحياً عن طريق حاسته البصرية إلى **داخل اللوحة** . . فتصبح هــذه بالنسبة اليه عالماً خاصاً قائماً بذاته يتنفس فيه ويلحظه ويعيش فيه بكلية كيانه .

هذا الفضاء الذي تتوقف فعاليته بالطبع على ابداع الفنان في التعبير عنه قادر على التـأثير بأحاسيسنا أو حتى امتلاكها كلية ، فهو أحد المفاتيح السحرية للفن التي تفتح أمام أعيننا عالما من الاسرار والالغاز المحيطة بنا .

ولعل إحدى أسمى مميزات الرسام الموهوب هي طبيعة وروح « فضائه » الذي يقدمه لنا رد الفعل الذي يثيره هذا الفضاء في أعماقنا . ولكل من الفنانين الموهوبين طريقته الابداعية المختلفة في التعبير عن « بعده » وروحه الخاصين وطريقته الشخصية في التنفس داخل فضائه الذي خلقه . . وهو يصل بذلك **وبصورة غريزية الى خلق الفضاء فوق الطبيعي** الذي لاريب في أنه هو ذلك **البعد الرابع** الذي جعل منه أحد تيارات الرسم التجريدي موضع تطلعه وهدفه الاسمى واصفا هذا الهدف بأنه « جديد » .

وهكذا أبدع لنا رامبراندت Rembrandt فضاءه فوق الطبيعي الخاص به وكذلك فيرمير Vermeer وبييرو Piero وسيزان Sézanne وبراك Braque ودوفي Dufy . . وكلها فضاءات تنبض بالحياة ولا يتسم كل منها بطابعه الذاتي ويوحي لك بالحنان أو بالمهارة أو بالطغيان أو بالسرية أو بالرثاء . . ولكنها تفيض جميعا بالانسانية وبالاخاء .

إن هذا الفضاء فوق الطبيعي Métaespace أو فلنسمه الفضاء الغريزي هو العامل الجذري الذي يكيف « وجود » اللوحة واللقيا العاطفية اللذين أتمنى الوصول اليهما في تعبيري عن الشيء الذي أرسمه .

أندريه بارينو ـ لعل في ذلك البرهان على أن الشيء الروحي ليس ما يظنه الماديون بل ان له جذوراً في الحقيقة الواقعية ؟

شابلان ميدي ـ إن العالم الروحي أشد عمقاوانساعاًفي أبعادهمن العالم المادي . ولكل شيء مادي محاط بفضاء ما ـ أو جو ما ـ قدرة وهمية على « الوجود » أو **فرض وجود** لايستطيع التعبير عنها أو نقلها سوى الرسم .

واللون ايضاً قدرته على «الوجود » ومميزاته ، تستطيع عن طريق مزج طبقات الالوان خلق جو خاص قائم بذاته . بل ان بعض الابداعات اللونيــة تكاد ان تمتلك « وجوداً مادياً » والامر الاخيرالذي اود قوله هو أن هذا البحث عن العلاقة بين الفضاء ـ او الجو ـ وبين الشيء أي بين الفراغ وبين ماهو مليء وليد بحث عميق عن نظام ما للتوازن لعله ليس بالبعيد عن احد ظواهر القلق في عصرنا الذي يفتش هو ايضاً بدوره عن نظام للتوازن مستمد منمقاييسه الذاتية .



١ – تعريف الفولكلور :

الفولكلور هو دراسة الانسان كفرد وكجماعة . فيدرس الانسان :

١ – من حيث اطوار حياته Rites de passages

٢ – من حيث ضرورياته المعاشية :

أ – الملبس

ب – المأكل

ج – المشرب

د – المسكن

٣ – من حيث كالياته المعاشية :

المشموم . أ – العطور . ب – الحلي

ج – الزينة : (الوشم ، التحمير ، الصبغة ، الدبغة تحسين الشعر ، الخضاب ، الحناء .. الخ) .

---

(١) دراسة قدمت الى وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية لتكون معتمداً في العمل في ميدان المأثورات الشعبية (الفولكلور) .

٤ ـ من حيث حاجياته العقلية : التعليم والعلوم الشعبية ، الاوهام ، المفـاهيم الشعبية ، التعقيل الشعبي .. الخ

٥ ـ من حيث ادبه الشعبي : أ ـ القصة الشعبية . ب ـ الخرافة والحكاية . ج ـ الامثال د ـ الاحاجي Calembours الاغلوطات . هـ ـ الشعر الشعبي . و ـ التمثيل الشعبي (قارا كوز المسرحيات الشعبية ، تمثيل الاشارة mimique ، المحاكاة Parodie .. الخ)

٦ ـ من حيث فنونه الشعبية : أ ـ الموسيقا الشعبية ، ب ـ الرسم الشعبي ، ج ـ النقش د ـ الصناعات التقليدية ، هـ ـ الزخرف ، و ـ الرقص الشعبي .

٧ ـ الملاهي الشعبية : لعب الورق ، الشطرنج ، النرد ، الداما ، الشيش بيش ، الخربقة .. الخ

٨ ـ من حيث العقائد الشعبية : أ ـ تأثير النجوم ومعرفة الطـالع ، ب ـ تأثير القوى الطبيعية (الينبوع ، الجبل ، النهر ، الريح ، الرعد ، الصاعقة ، الكسوف) ج ـ الخوارق والغيبيات : الجن وتسخيرها واستخراجها ، الاولياء والكرامات ، الحيوانات التوتمية ، الاشجار التوتمية ، الاحجار ، الاضرحة ، المغاور المسكونة (الغول ـ الجنيـة ... الخ) الطلاسم ، السحر ، وساطة الاولياء .

ثم ان الفولكلور يدرس لا الفرد فقط بل الجمـاعة وعلى الخصوص الجمـاعة الشعبية : أ ـ في العائلة . ب ـ في الحارة . ج ـ في المدينة . د ـ في القرية . هـ ـ في البادية . و ـ في الجبل . ز ـ في البحر .

فهو حضارة الشعب وما خلقه الشعب لنفسه من ماديات وضروريات وكماليات وعقليـات واديات وعمليات وتقنيات واوهام وعقائد وتقاليد وعادات وشعائر ...

٢ ـ موضوع الفلكلور مفصلا :

شعائر أطوار الحياة

أولاً ـ **الولادة** : وسائل التأثير في حل العاقر ـ اختيار الولد دون الانثى أو العكس ـ تسليط الغيبيات ليكون الولد صالحاً . القابلة ـ كرسي القابلة ـ عملياتها ، دعوات تسهيل المخاض ، التعاويذ ، مناداة الأولياء ، كتابة الأدعية في الصحون ثم تحليلها بالماء الذي قرئ عليه اسم اللطيف أو غيره وشربهـا ، تعليق الخروز والختم بالخواتم الخاصة ذات النفع الخاص بالموضوع ، الولادة ، قص السرة ، القماط ، لباس الطفل ، التبشير بالولادة ، طعام الضيوف المغيقة ، الهدايا ، علاج أمراض الطفولة ، حفلات السابع .

يدرس هذا اقليماً اقليماً ، وبلداً بلداً ، وقرية قرية ، وحارة حارة .

ب ـ الفطام .

ج ـ ظهور أسنان اللبن } وما يتبع ذلك من طقوس وشعائر وعادات .
د ـ سقوط السن الاولى }

هـ ـ اغاني الدهدهة Berceuses .

و ـ شعائر المهد .

ز ـ اغاني الطفولة الاولى .

ح ـ العاب الطفولة الاولى .

ط ـ الخرافات والحكايات والقصص التي تحكيها الجدات أو المربيات والطفولة الاولى .

ثانياً ـ الختان : اختيار السن ، لباس الختان ، خرجة الختان مع ابناء الكتاب بلوحة القرآن والاناشيد .

وصلوا وكبروا تكبيراً   صلوا على محمد كثيراً

اعداد البيت ، المزين وهو الختان ، آلاته وأدويته ، معينه ، طريقة الختان ، تكسير الفخار عند اجراء الموس لالهاء الطفل وابعاد صدمة العملية ، الهدايا ، التهاني ، حفلات السابع .

ثالثاً ـ الزفاف : الخطبة : أ ـ بواسطة الام ، ب ـ بواسطة الخاطبة المحترفة ، ج ـ بواسطة متوسطة بين العائلتين .

عادات الخطبة : الفاتحة ، الاملاك(١) ، العقد ، اعدادات الزفاف ، الوطيئة(٢) ، حمام الوطيئة ، تزيين الماشطة للعروس ، الدخول ، التجلية ، عادات الخروج من بيت الاب والوداع ، موكب الزفاف من الوالد الى بيت العريس ، الترحية ، الشموع ، التصبيحة ، حفلات الثالث ، قميص الافتضاض ونشره والاشهار عليه ، حفلات السابع ، اغاني الزفاف ، ولائمه ، لباسه ، هداياه ، أثاثه ، حفلات نقل الاثاث من دار العروس ، الراسون (اصدقاء العريس) ، الحضارات (صديقات العروس) ... الخ

---

(١) دفع المهر .

(٢) الوطيئة ليلة الدخلة ؟

رابعاً — **الوفاة** : الاحضار، تلقين الشهادة ، التسبيحة ، الغسل ، التحنيط ، التكفين، القراءة على الميت ، التوديع ، الخروج بالجنازة ، اللحد ، التعزية ، طعام الميت في الفرق الاول (ثالث يوم) في الفرق الثاني (سادس يوم) في الزيارة (نصف شهر) في الاربعين ، في اغلاق العام ، القرا ين ، لباس الحداد ، أثاث الحداد ، الفاظ التعزية ، طقوسها ، عاداتها .. الخ النواحات ، النادبات ، النعش .. الخ .

ثانيا — الضرورات المعاشية

١ — **الملبس** : أ — من حيث النوع (صوف ، حرير ، قطن ، كتان) ب — من حيث السن (رضاع ، طفولة ، شباب ، كهولة ، شيخوخة) ج — من حيث الجنس (رجال ، نساء) د — من حيث المناسبات (نفاس ، ولادة ، ختان ، زفاف ، كفن ، زيارات ، مواسم) هـ — من حيث المهنة : شيوخ الدين ، رجال العلم ، ارباب الصناعات التقليدية ، فلاحون ، متسولون ، جنود .. الخ

و — من حيث المكان : في البيت ، في الحمام ، في الساحة ، في الحقل ، في السفر .. الخ

ز — من حيث الزمان : في الشتاء ، في الربيع ، في الصيف ، في الخريف .

ح — من حيث العنصر : عرب ، اكراد ، اتراك ، ارمن ، جركس .

٢ — **المأكل** : أ — من حيث الجهة : المدينة ، القرية ، البادية ، الجبل ، البحر ، الصحراء .

ب — من حيث العنصر : عربي ، كردي ، تركي ، ارمني ، جركسي .

ج — من حيث المناسبة : ولادة ، ختان ، زفاف ، وفاة ، عيد ، عاشوراء ، مولد.

د — من حيث السن : رضيع ، طفل ، كهل ، شيخ .

هـ — الاطعمة الاستشفائية .

و — المالح — الحلويات ، الاشربة ، المربيات ، الخ .

ز — عادات الانفاق والطبخ ، طقوس المطبخة وبيت المونة ، اهداء قطعة من الطعام لاهل الدار (الجن) اهداء الشهوة للجارة اذا كانت حاملا .. الخ .

ح — الطعام حسب الفصول .

ط — بيت السفرة ، ادواتها ، آداب الاكل ، آداب الضيافة ، الفاظ آداب الطعام .

٣ — **المشرب** : الماء ، المشروبات ، ادواتها ، عاداتها ، حسب المكان والزمان والجنس والمناسبة والعنصر .

٤ ــ **المسكن** : أ ــ من حيث جنسه : الخيمة ، الكوخ ، البيت ، القصر .

ب ــ من حيث فصله ، مسكن الشتاء ، الربيع ، المصطاف ، بيت البحر ، عادات الانتقال الى المرابع والمصايف والمشاتي .

ج ــ من حيث مرافقه : صحن الدار ، المطبخة ، بيت المؤونة ، المرحاض ، المخزن ، السقيفة ، الغرف .

د ــ من حيث معماره حسب الجهة والعنصر .

هـ ــ من حيث الطبقة الاجتماعية

ثالثا ــ الكماليات المعاشية

المشموم : نوع الزهور المستخدمة ، طريقة صنع الباقات ، محل وضعها بالاضافة الى الرجل والى المرأة حسب العنصر والطبقة الاجتماعية واليسر .

ب ــ العطور : انواعها ، اعدادها ، استعمالها حسب الجهة والجنس والعنصر والطبقة الاجتماعية .

ج ــ الحلي (للرجال والنساء والاطفال والكهول والشيوخ) وحسب العنصر (عرب ترك ، ارمن ، اكراد ، جركس) وحسب الوقاية من العين ومن المرض وحسب المادة المصنوع منها ذهب ، فضة ، عنبر ، عاج ، صوف ، ودع ، وحسب الترتيب التاريخي (الحلي الحثي ، الفينيقي ، الروماني ، العربي ، التركي) . الخ .

د ــ الزينة : الوشم ، التحميم ، الذرور (بودرة) الصبغة الدبغة ، الزنجار ، التشجير ، تحسين الشعر ، الخضاب ، الحناء ، وما يتبع ذلك من عادات وطقوس واغان وتراتيب ومناسبات.

رابعا ــ الحاجيات العقلية

١ ــ **التعليم الشعبي** : الكتاب ، محله ، المؤدب ، طريقة الهجاء ، طريقة التكرار ، محو اللوحة وكتابتها ، حفلات عاشوراء ، الاناشيد المولدية ، الخرجات ، المشاركة في الختان ، حفلات الختمة ، العوائد والرسوم وما يتبع ذلك من عادات .

المدرسة ، المسجد ، الجامع ، الوعظ في المساجد ، القاص في المسجد ، التعليم المهني في دكان العريف

٢ ــ **الاوهام الشعبية** : الاعتقاد في التوغية وهي ان الحيوان الفلاني او الشجرة الفلانية اصل للعشيرة الفلانية فيجب تغذيتها واقامة شعائر لها والاستئناس بها في البيت مثل القط

والدلخفاة والافعوان وتعليق الخرق في الاشجار التوتمية أو الاحجار التوتمية للنذور وربط الصلة بين التوتم الحامي والانسان المحمي لها .

٣ ــ **المخلوقات الخارقة** : (الشيطان ، الجن ، الغول) .

٤ ــ **المفاهيم الشعبية**

٥ ــ **التعقيل الشعبي**

خامساً ــ الادب الشعبي :

هو أدب مكتوب او متناقل شفهياً صاغراً عن كابر . ويتألف من العناصر الآتية :

١ ــ القصة او الملحمة الشعبية التي تمجد بطلاً من الابطال épopée (العنترية ، سيف ذى يزن عند الفرنسيين Roland الشاهنامة عند الفرس)وهذه تفيدنا في تاريخ الشعبوشعورهبامجاده.

٢ ــ الخرافة والحكاية والنوادر والحكايات على السنة الحيوانات . وهذه هي لغةالشعب وحكمته وفلسفته .

٣ ــ الامثال والشواهدوالقوليات .

٤ ــ الاحاجي énigmes .

٥ ــ الاغلوطات calembours .

٦ ــ الشعر الشعبي على اختلاف انواعه .

٧ ــ التمثيل الشعبي(قاراكوز ، المسرحيات الشعبية ، تمثيل الاشارات mimique ، المحاكاة parodie).

وتدرس هذه الاداب بجمعها وتدوينها وتسجيلها ثم نسخها عن التسجيل ونشرها .ويدرس الاشخاص الذين يقومون بهـا الشاعر ، المداح ، القوال ، محافل الشعراء الشعبين ، تهاجيهم ، الحكواتي ، مقاهي الحكواتيين ، نوادر الحشاشين .. الخ .

ويدرس الادب الشعبي من حيث العناصر : ادب عربي ، كردي ، جركسي .أوبالمحاكاة عن العناصر المختلفة نوادر الاعرابوالاتراك والجركس والاكراد والزنوج والفرنسيين .. الخ المهاجاة بين العناصر (المثالب) .. الخ .

سادساً ــ الفنون الشعبية :

١ ــ الموسيقا : أ ــ موسيقا الحرف والصناعات والمنـاداة على المبيعات (فواكه ، حلويات ، موسيقا ايقاعية للاعانة على الحمل او النقل او ازمنة سلسلة العمل او وقوع اليد أو خطوات الرجال .. الخ .

ب ـ موسيقا اطوار الحياة (ولادة ، ختان ، زفاف ، وفاة) .

ج ـ موسيقا دينية (آذان ، تجويد ، مولدية ، رجبية ، معراب ، مدائح نبوية ، اغان ظرفية ، اغاني المسحر .

د ـ اغاني العناصر (عربية ، كردية ، تركية ، ارمنية ، ، جركية .. الخ) .

هـ ـ اغاني الجهات (مدينة ، قرية ، بادية ، جبال ، بحر) .

و ـ اغاني الترتيب التاريخي (كنعانية ، حثية ، رومانية ، بيزنطية ، اموية ، فاطمية ، مملوكية ، تركية ، اغاني وطنية ، اناشيد الثورة) .. الخ .

ز ـ اغاني الطوائف : دروز ، نصارى ، سامريون ، يزيدية ، شيعة .. الخ .

٢ ـ الرسم الشعبي : أ ـ النقوش الصخرية ، ب ـ الدهن بالزيت على الجدران (بيوت ، حمامات) الدهن على الزجاج لارساليات قاراكوز ، الدهن على الخشب للاثاث ، الصور الدينية ، الصور الحماسية (عنترة وعبلة) صور المعلمين ، صور الزهور والحيوانات ، صور السحر .

ج ـ النقش : على الحجر ، على الخشب ، على الجبس ، على الفخار .

د ـ الصناعات التقليدية : ضبطها وضبط اسواقها وجعل دكاكين نموذجية كل صناعة بدكان ، جعل حفلات للصناعات التقليدية بالمسرح على طبق دوار ، جعل معارض للصناعات التقليدية .

هـ ـ الزخرف بـ : زخرف النسيج (طراز ، مخرم ، طبع ، شبكة ، كرشان .. الخ) زخرف السجاد (هندسي مستقيم ، هندسي مدور ، نباتي حيواني ، خطي ، مشاهد مرسومة في السجاد . الخ) على الفخار ، بالقطران ، بالطلاء ، بالبوية .. الخ) على الزجاج : الزخرف الخطي (كوفي ، نسخي) على الحجر ، على الخشب ، على الزجاج ، مرصع بالصدف ، بالعاج ، على القماش (طراز) على الورق (تخطيط) على الجلد (سراجين) .

و ـ الرقص الشعبي : أ ـ الفردي ، الجماعي ، الانعوائي (توقية) ، الجزري (بالمزود والقسان والطبل) ، الدبكة والحيدوس والتمشي (كتاب الاغاني) .

الرقص العنصري (عربي ، كردي ، جركسي ، ارمني .) .

الرقص الديني (شطحات الصوفية ، اليزيدية ، الدروز ، الارمن)

الرقص الاستشفائي (استخراج الجن)

سابعاً ـ الملاهي الشعبية :

أ ـ للكبار (لعب الورق ـ الشطرنج ـ النرد ـ الشيش بيش ـ الداما ـ الخربقة (نوع داما شعبية) وتقسيم ذلك حسب البدو والقرويين والحضريين ، ثم حسب العناصر .

ب ـ للصغار (الخروف ، الاكر ، الدجاجة العمياء ، وتقسيم ذلـك الى طفولة اولى وطفولة مدرسية وشباب حسب الجهات والعناصر .)

ثامناً ـ العقائد الشعبية :

أ ـ الطرق والاولياء والكرامات .

ب ـ المتبقيات الوثنية : التوتمية الحيوانية والنباتيـة (تقديس بعض الحيوانات والنباتات وتأليهها باعتبارها جداً اعلى) .

جـ ـ القوى الغيبية : الجنون ، السحر ، الطلاسم ، تسخير الشياطين والمردة الكرامات ، المعجزات ، العين .

د ـ القوى الطبيعية : الشمس ، القمر ، الخسوف والكسوف ، الينبوع ، النهر ، الجبل ، والمغاور وما لها من قدرة على النفع والضر . الطلاسم ، السحر ووساطة الاولياء ، الحروز ، التعاويذ ، الاوفاق .

تاسعاً ـ العلوم الشعبيـة :

أ ـ التنجيم ، الطالع ، ومعرفة الغيب والكهانة النجومية . والتنجيم الزراعي ومعرفة الانواء والروزنامات الزراعية الشعبية .

ب ـ الحيوان : البيطرة ، ومعرفة الخيول وطيور الصيد (البيزرة Fauconnerie) وتربية الكلاب والطيور المغنية وعلاجها وحياتها وتلقيحها .

ج ـ النبات : النبات الطبي والنبات الزراعي واصول الطب النباتي الشعبي ، كتب العشابين وكنانيش الدواء والنبات الزراعي وعلم الزراعة الشعبية وعادات الجز واغانيه ومباهجه والحصاد والدراس والتقاط الفواكه وعصر الزيتون وعادات حفلات الكروم وقطف العنب .. الخ

د ـ الطب الشعبي : أ ـ الطب الغيبي (كرامات الاولياء ، استخراج الجنون) ٢ ـ الطب اليدوي بالوشم والاعشاب ودق الابرة في العروق ٣ ـ طب التعاويذ والحروز والحجب والاوفاق ٤ ـ طب الاوليـاء واحفادهم المعطى لهم علاج مرض بعينه كل فيما يخصه ٥ ـ الوقاية من العين والعلاج منها بالاشكال الحادة (يد فاطمة ، الخمسة قرون ، قرون المرجان ، العنبر ، البخور ، حروز السينوح « نوع يشبه اسود » الخ) ٦ ـ الجراحة الشعبية : المجبر ، البيطار ، الحجام الفاصد ٧ ـ طب العيون والحمامات والمياه النابعة مع العلم بأن العين تشفي لانها منسوبة لولي ٨ ـ طب الاقامة بمقامات الاولياء والزوايا وسكن المغاور والجهات الجبلية او البحرية المنسوبة للاولياء .. الخ

هـ ـ الكهانة ومعرفة الغيب: ١ ـ بالرمل ٢ ـ بتقاطيع الكف ٣ ـ بالفحم ٤ ـ بالاكتاف بزجر الطير .. الخ

عاشراً ـ العادات الشعبية :

أ ـ المواسم الدينية ـ رأس العام الهجري وما يلبس فيه ويطبخ وعاداته وشعائره . عاشوراء، عيد الاضحى، عيد الفطر، الرجبيات، الشعبانيات، الرمضانيات، المعراج، المولد، الايام الفاضلة.

المواسم الشعبية : الفلاحية (حرث ، قطف ، حصاد ، دراس ، كروم « رأس العام اليولياني » الاربعينيات ، الخمسينيات ، الامثال الزراعية) .

ب ـ الفأل : وهو ١ ـ قلب كلمة الى عكسها اذا كانت مكروهة : في تونس لايقال اسود بل اخضر ولا يقال ملح بل ربح ولا يقال فارغ بل عامر ، ولا يقال فحم بل ياس ولا يقال اعمى بل بصير ولا يقال مريض بل عيان . ٢ ـ التركينة عن اشياء مضرة اذا ذكرت باسمائها ربما تحضر لايقال الصاعقة بل هاد اللي ماتنساش ولا يقال تيفوئيد بل منعولة ـ ملعونة . ولا يقال بوم بل معروفة او ام الصبيان ولا يقال عقرب بل « ذكرها في حجرها » الخ .

٣ ـ التفاؤل بالاسماء : يعيش ، فاطمة ، عائشة ، يزيد ، تيسير ، خير ، ابو الخير ، ويسمى هذا الاسماء التفاؤلية ويكون فعلا مضارعا تفاؤليا : يزيد ، يعيش ، قاضي تغلب ، اسم فاعل تفاؤلي : عائشة ، فاطمة ، عادل ، عارف ، امل تفعيل : احمد ، ارشد ، اغلب ، اكرم ، ويكون مصدراً : نجاة ، رجاء ، صفاء ، ويكون باضافة الياء ، عدلي ، خيري ، زهدي حسني ، ويكون بالصيغة التركية : ثروت ، عفت ، رأفت .

٣ ـ تصغير الاسترقاق والاسترحام : عائشة عيشوشة ـ شوشة .

خديجة ـ خدوجة ـ خدوج ـ دوبج ـ دوجة ـ ددو .

ويكون بعد لفظ العبودية (عبد ...) بصيغة فعول أو فعولة ـ عبد القادر ـ قدور قدورة ـ عبد الله ـ عبود ـ عبودة ـ عبد الرحمن ـ رحوم ـ رحومة .. الخ

ويكون بزيادة ـ ون ـ خالد ـ خلدون، عمر ـ عمرون ، حفص ـ حفصون ـ زيد ـ زيدون .

٤ ـ أخذ الفأل ـ من القرآن ، او الحديث ، اوسماع كلمة عند الخروج في الصباح تكون طيبة ، او زجر الطير او الدعاء الطيب .

ج ـ الممنوعات : كاعطاء الدبوس او القط او تربية بعض الحيوانات عند بعض العائلات . الخ

أشياء فولكلورية

١ ـ العين : ولها دور عظيم في حياة الانسان حتى الآن .

٢ ـ البركة : ولاسيما عند النساء والفلاحين والتجار .

٣ ـ الماء : مظهر أساسي للجرائم الفولكلورية كالعين والحسد والجنون ومفاسد السنة والجفاف .

٤ ـ الملح : له دور في قمع العين .

٥ ـ القرابين لها دور عظيم في شفاء بعض الامراض .

٦ ـ التعاويذ ـ والشفاء والكشف عن الكنوز .

هذه جملة ابواب الفولكلور وهي في الحقيقة ليست تحديدية .

٣ ـ حفظ الفولكلور ودراسته :

ويكون ذلك بالوسائل الآتية :

أولاً ـ معهد الفولكلور :

ويشتمل على مسجلة discothéque فيها :

١ ـ جميع الاغاني مرتبة حسب المواضيع والجهات والعناصر .

٢ ـ الاذان والتجويد .

٣ ـ المولديات والمراجيات والمدائح الدينية .

٤ ـ اغاني المناداة على المبيعات .

٥ ـ مناسبات الحياة .

٦ ـ اغاني الاطفال والصغار والمدهدهات مع المقارنة دائماً حسب الجهات والعناصر والطوائف .

٧ ـ صنوف الادب الشعبي مسجلة ادباادبا ونوعاً نوعاً حسب الجهات والعناصر والطوائف.

٢ ـ **المصورة** : وتشمل على المصورات photothéque : ١ ـ القديمة ومجموعات بطاقات البريد والصور iconographie الموجودة في كتب الافرنج والرحلات القديمة .
٢ ـ المصورات الحديثة حسب الوضوعات الفولكلورية المبينة قبل هذا . وتكون مرتبة ترتيباً ابجدياً .

٣ ـ **المصادر الفولكلورية** : وتصنف حسب الموضوع . فما كتب عن الزفاف يكون في حرف (ز) وما كتب عن الختان في حرف (خ) وما كتب عن الوشم في حرف (و) .. الخ ويعتمد على المصادر حسب الترتيب الآتي :

١ ـ القديمة ـ ٢ ـ الحديثة ـ ٣ ـ الدوريات ـ ٤ ـ الافرنجية .

والمصادر القديمة هي : ١ ـ كتب التاريخ ٢ ـ كتب البدع ٣ ـ كتب الحسبة ٣ ـ الكنانيش والدفاتر الخاصة ٤ ـ كتب الحكاوية ومجامع الامثال . ٥ ـ مناقب الاولياء . . الخ

٤ ـ **المكتبة الفولكلورية** : وتكون جامعة لكتب الفولكلور : ١ ـ الكتب العامة في الفولكلور ٢ ـ مصادر الفولكلور الوطني ٣ ـ مصادر الفولكلور العربي بلداً بلداً ٤ ـ مصادر الفولكلور الاسلامي والاجنبي ٥ ـ المجلات الفولكلورية المشهورة ٦ ـ منشورات الفولكلور بوجه عام .

ثانياً ـ مدرسة الفولكلور : وهي تعلم :

١ ـ العلوم الآلية الفولكلورية : التصوير ، التسجيل ، الوصف الفولكلوري العلمي حسب الكتب التي تنشرها .

Institut d'Ethnographie
» d'Ethnologie
» de mvsique
» de lingoistique

٢ ـ اصول الفولكلور حسب العائلة الفولكلورية التي بيناها في **الباب الاول** .

ثالثاً ـ متحف الفولكلور الوطني

يكون وفق متحف pittré بالرم في صقلية بجعل غرفة لكل موضوع فولكلوري حسب العائلة الفولكلورية التي بيناها .

رابعاً ـ الفرقة الفولكلورية الوطنية :

وهي موجودة في سورية وناجحة وقد أتت بالعجب العجاب .

خامساً ـ الفرقة التمثيلية الفولكلورية :

وهي موجودة ايضاً في سورية.

سادساً ـ فرق التسجيل الفولكلوري :

تكون في كل ولاية فرقة بحث محلية ، تمشي وفق الارشادات الصادرة من المديرية وتستقبل الفرق الجوالة وتتعاون معها . وتكتفي هذه الفرق بارسال الوثائق المسجله او المصورة وغيرها الى المركز بدون تمحيص حتى يقوم هو بتمحيصها وتصنيفها . وتتولى ايضا جمع الوثائق الفولكلورية الموجودة بالجهات : البسة ، العاب ، ادوات تكييف ، فخار ، مصنوعات تقليدية اسماء اشخاص وعائلات اسماء حارات وارباض ، اسماء اسواق ، مناقب اولياء كنانيش حروز تعاويذ اوراق مختلفة .

وتكون الفرقة المركزية بالعاصمة ولها شعب جوالة مختصة تطوف على الولايات .

سابعاً — بعثات فولكلورية :

١ — الى متحف pittré بالرم من جزيرة صقيلية . ٢ — الى متحف الانسان بباريس . حسب برنامج مدقق وتتألف ايضا بعثات فولكلورية بين مختلف البلاد العربية للاطلاع والتعاون .

٣ — المصادر الفولكلورية بطريقة منهجية

٤ — مبادىء الموسيقى والرقص .

٥ — مبادىء مخارج Phonétique الحروف والابجدية العلمية Transliteration المسماة بالنقل الحرفي .

أ	A
ب	B
ت	T
ث	C
ج	G

الى آخره حتى يكون ضبط الاصوات الشعبية واقعيا بصورة علمية . ودفاتر Institut de linguistique تعطي هذه البيانات للمبتدئين في اول صحفها .

ثامناً — عقد ملتقيات ومؤتمرات فولكلورية

تاسعاً — تنظيم حفلات ومهرجانات فولكلورية

١ — في البادية تحت الخيمة . ويؤسس في اهم المدن « ركن البادية » فيه اطعمة بدوية واثاث ومصنوعات وتقام به مهرجانات بدوية ٢ — في المسارح الرومانية ٣ — في قصر العظم وقلعة حلب ويستعمل في ذلك الصوت والضوء .

عاشراً — النشرات الفولكلورية

وهي : ١ — مجلة وطنية للفولكلور ٢ — منشورات فولكلورية منفردة ٣ — مصورات فولكلورية وموسيقية ووصفية album .

٤ — تترجم اهم الكتب العامة في الفولكلور مثل Van gennep : le folklore

٥ — ينشر مايصنفه الناس في المواضيع الفولكلورية اذا كان ذا اهمية .

أحد عشر — يقع تأسيس الجمعية الاقليمية العربية للفولكلور والمركز الاقليمي للفولكلور العربي

اثني عشر — يقع الانخراط في جمعية الفولكلور العالمية


المعرفة
مع
التيارات الفكرية
العربية والعالمية

فكرة
حول
الروايات

للمركيز دي ساد

عرض وتلخيص احمد رشدي اسماعيل



كتاب
الشهر

من الآراء المألوفة في تاريخ الفكر ان جميع المشاكل الاساسيـة قد طرحت منذ البداية ولم يضف اليها شيء جديد بعد ذلك . وهذا مايمكن ان يقال في تاريخ الرواية ، ولا سيما انه قد اتيح لهذا اللون من الانتاج الثقـافي عدد من الرواد الموهوبين استطاعوا ان يثيروا جميع التساؤلات المتعلقة بفن القصة وارتباطها بالحياة.

وعلى الرغم من ان مؤلف هذا الكتـاب ، وهو المركيز دي ساد (١٧٤٠ - ١٨١٤) لم يكن روائياً بالمعنى المألوف ، فان هذه الصفحات التي كتبها عام ١٨٠٠ ولم تنشر الا في اواخر ايام حياته ، تضم كل مايمكن ان يبحث في هذا المجال .

وقد اقترن اسم ساد بنزعة العنف في الطبيعة البشرية « السادية » وشاعت هذه الكلمة اثر عدد من المؤلفات منها « جرائم الحب » و « جوستين » ، عمد فيها الى تصوير النزوات الانسانيـة عارية من كل طلاء ، وكانت موضع نقد واتهام لما تضمنته من صور فاقعة عن جموح الرغبات وانحرافها .. وقد كانت هذه الدراسة عن فن الرواية ، محاولة اراد بها « ساد » تبرير مذهبه في فضح الواقع البشري وتعرية الحياة — اذا صح التعبير — وهو مايذهب اليه معظم كتاب الرواية في العصر الحاضر .

واذا كان ثمـة مبرر للاهتمام بهذه الجذور البعيدة لنشوء الفن الروائي ، فهو ان انتصار هذا المذهب — على الرغم من محاذيره الكثيرة — يدل على ارتباط الحياة الحديثـة بالتحرر من جميع مظاهر التستر ، والوقوف بجرأة أمام حقيقة الانسان ..

* * *

يطلق اسم الروايـة عادة على المؤلفات التي تسرد المغامرات الفريدة في حياة البشر ، وبذلك تبدو أقرب الى الخيال . فلماذا اطلق عليها هذا الاسم ؟ وأي الشعوب يعتبر مصدراً لهذا النوع من الانتاج القصصي ؟ وما هي القواعد التي ينبغي اتباعها لكي نتوصل الى الكمال في الفن الروائي ؟.

تلك هي المسائل الرئيسية الثلاث التي نستطيع في معالجتها ان نتبين ماهي الرواية وما هي علاقتها بالحياة الانسانية .

ان المعنى اللغوي لهذه الكلمة Roman يشير الى لغـة تحمل هذا الاسم ، كانت مزيجاً من المصطلحات السلتية واللاتينية . وبهذه اللغـة

انتشرت بعض الحكايات العاطفية أو مغامرات الحب ، ومن ثم كانت كلمة روماناس Romance تدل على المعنى ذاته . وليس هناك تفسير آخر للفظة ، وان كان هذا المعنى هو أبسط من ان يحدد الملامح الحقيقية لفن الرواية .

غير اننا نستطيع ان نلتمس هذه الملامح في نشأتها التاريخية . والرأي السائد أن الرواية ظهرت لأول مرة عند الاغريق ، ثم نقلها العرب الى الاسبان في الاندلس ، وانتشرت بعد ذلك في انحاء اوروبا عن طريق الشعراء الجوالين Troubadours الذين علموا اوائل الشعراء والكتاب في العصور الحديثة فن السرد الروائي ، ومن ثم كانت اولى المحاولات الادبية في هذا المضمار ، لدى كتاب قصص الفروسية .

ولكن هذا الرأي الدارج ، على الرغم من أهميته التاريخية ، لا يقدم شرحاً واضحاً لظهور الرواية ؛ لان انتقال الحكايات بين الشعوب يقتضي سهولة الاسفار ، وهو ما لم يكن متوفراً في الازمنة القديمة ؛ كما انه ليس من السهل ان نقر بان ما يروى في بيئة ما ، يمكن ان يقبل في بيئة اخرى ؛ ذلك لأن اختلاف المشاعر والاذواق ووجهات النظر ، يجعل لكل شعب عقلية خاصة تفرض عليه اشكالا معينة من ميادين الخيال . ولذا فان من الاصح ان نعتبر القصص والروايات من ثمار البيئة المحلية ؛ ان لكل شعب تجاربه وعواطفه وخياله ، وله حكاياته ايضاً ...

واذا تأملنا في تاريخ الشعوب من خلال هذه النظرة ، فاننا نجد ان الشكل الروائي لهذه الحكايات قد ظهر أول الامر في البلاد التي كانت تعترف بالآلهة . وهو اعتراف يدل على نزعة دفينة الى نسج الخيالات وانشاء الاساطير . وقد كانت مصر القديمة ينبوعاً لهذا اللون من الحياة الثقافية؛ لانها كانت مهداً لاولى العبادات . غير أن الرواية لم تصدر عن عبادة الالهة ، بل اطلت على الخيال البشري منذ ان بدأ الناس يرتابون بتلك الكائنات العلوية الخالدة التي تمثل الآلهة . وهي ريبة طبيعية . لأن الخلود الذي كان يضفيه الانسان على الآلهة ، هو شهوة بشرية ايضاً . وقد كان القدامى يجدون آلهتهم في كائنات حية تتصرف كما يتصرف البشر وتتكلم مثلهم ؛ ولم يلبث اشخاص القصص والروايات ان اصبحوا ابناء للآلهة ، ثم تحولوا الى ابطال من البشر ينجزون الاعمال الخارقة . غير ان فكرة الاسطورة لم تبرح خيال الناس ، فحين يكون ثمة مجال للرواية كانت تحوم الاطياف العجيبة التي يعبر بها الخيال عن نزعته الى ماوراء الواقع . ان هرقل هو قائد عظيم حارب اعداءه في شجاعة وانتصر عليهم. هذا هو هرقل البطل في التاريخ . أما هرقل الروايات فهو آله يقهر العمالقة ويقضي على المردة. ان سرعة التصديق هي اساس الرواية «القديمة»، ولكنه تصديق معقول لانه يستجيب للكثير من النزعات الانسانية العميقة، كما ان جميع الاشخاص الذين عمدهم الخيال هم في الاصل ابطال لعبوا ادوراً في حياة شعوبهم .

ومهما يكن في الحكايات الاسطورية من جموح في الخيال ، فان اشخاصها

جميعاً كانوا يحملون طابع الحياة البشرية ؛ حتى الآلهة مثلاً كانوا ينفعلون ويتحدثون على غرار الناس . وليس في ذلك مايدعو الى الدهشة ؛ لان سرد الروايات كان يهدف منذ البداية اما الى إثارة الخوف في نفوس الناس ، وإما الى اغرائهم والتأثير في عواطفهم ، وهما في الحقيقة غاية القصص التاريخي نفسه ؛ وبذلك يقول العالم « هويه .. Huet » : « منذ القدم كانوا يعتبرون الرواية مجموعة من الحكايات التاريخية ، ثم استخدمت هذه الكلمة للدلالة على الاقاصيص الخيالية ، وهو يشير الى ان الرواية ترجع في نشأتها الى الواقع البشري .. »

وعلى هذا النحو نرى ان الرواية هي ذات طابع قومي في كل حين . وتلك احدى صفاتها الاساسية خلال جميع العصور . ففي كل امة كانت الروايات تسرد باللغة الاصلية ، والاسلوب القومي ، وتصف العادات والاخلاق وتعبر عن الآراء والنزعات في هذه الامة .

ولكن لماذا كانت الروايات ؟ ما هي الحوافز الداخلية التي املتها على الشعوب ؟.

في طبيعة الانسان انه ضعيف من ناحيتين رئيسيتين : الاولى أنه فريسة للخوف . ان وجوده مثقل بالرهبة ، على الرغم من كبريائه الصارخة . انه يرهب الالم والقدر والموت .. ولكنه مع ذلك يتطلع الى الخلاص . وسواء كان هذا التطلع رغبة في ابعاد الخطر أو املاً في المستقبل فانه قد دفع الانسان منذ البداية الى الابتهال أو العبادة ، أو الرجاء . وذلك هو اول بواعث القصة . ولما كانت المخاوف مقترنة بالارتباك والانفعال ، فان الروايات التي تعبر عنها كانت مزدحمة بالاكاذيب والمغامرات الخارقة . (وهو مايغلب على الكتاب المبتدئين الذين لايرون الواقع الانساني كما هو ، لأنهم يخافون من الحقيقة).

اما الناحية الثانية من الضعف البشري فهي الحب . فحيث وجد الانسان كان قلبه يتفتح لهذه العاطفة الفذة ، وكان ينسج الاقاصيص الرقيقة - أو المثيرة - لكي يعبر عن انفعالات الحب في نفسه .. وعلى الرغم من أن الحب هو اكثر ارتباطاً بواقع الحياة اليومية فان نزوات الخيال كانت تفتح امامه آفاقاً رحيبة من الصور الشعرية التي تزيد العاطفة ارهافاً وتملأ الشعور عذوبة . غير ان روايات الحب كانت واقعية قبل كل شيء ، لان وصف الناس والاشياء والمواقف الصغيرة هو المحور الاول في تجربة الحب.

وليس من الصعب أن نتبين هذين الينبوعين في جميع الاعمال الروائية المعروفة منذ القديم ،

وحسبنا أن نـــذكر أن روايات ايسدوراس Esdoras عن حصار بابل ـ وهي اقدم اشكال الرواية ـ تقدم لنا حشداً لا نهاية له من الصور المخيفة . وكلها تصدر عن الخشية والخوف . كما أن اولى الروايات التي تصور الحياة في وقائعها اليومية ، يمكن ان تعتبر قصصاً غرامية لغلبة الحب على ابطالها . وأول روائي تحدث عن القدامى في هذا المجال هو اريستيد الملطي Aristide de Milet ولكن مؤلفاته ضاعت جميعاً . وقد عرف انطوان ديوجـين Antoine Diogéne معاصر الاسكندر ، برواية رشيقة الاسلوب تدور حول غراميات ديناس Dinias وديرسيليس Dercillis ثم تلتها رواية هليودور Héliodore ، وهو كاتب شعري العبارة ، عن حب تياجين Theagéne وشاريكليه Chariclée ورواية كاتب آخر يدعى لونغوس Longus عن غرام دافنيه Daphnis وكلوه Chloe ، وغيرها .

وقد كان الرومان أميل الى النقد والمكر ، فلم يعنوا بروايات الحب ، بل تركوا قصصاً هجائية ساخرة تعبر عن ضعف الانسان وضآلته . وبذلك استقوا من الينبوع الاول للرواية .

وكان الغاليون Gaulois اكـثر خضوعاً للخشية والحب ، ومن ثم فقد لجأوا الى الروايات الغنائية ، ويذكر لوكين Lucain انهم كانوا ينظمون الاشعار وينشدونها ليذكروا الاعمال العظيمة التي كان يقوم بهـا الابطال في تحديهم الموت . وبهذه الروح كتبت معظم الروايات في العصور التاليـة : الدائرة المستديرة ، تريستان وايزولت ، الفارس لانسلوت ، وغيرها . وهي تحفل بسرد المغامرات الفظة التي تبلغ حد التوحش لانها ثمرة الرهبة .

ثم ظهر الشعراء الجوالون ؛ فكانوا بداية انطلاق جديدة في روايات الحب . وعلى الرغم من انهم كانوا يغنون الشعر ، فانهم تركوا روايات نثرية ساحرة تضعهم في مصاف كبار الروائيين . والغالب ان هؤلاء الشعراء قد نقلوا فن الرواية الى ايطاليا فكانت اولى مراحل الانتاج في هذا الفن كما مثلها دانتي Dante وبوكاشيو Boccace وتاسوني Tassoni ، حتى بترارك Petrarque نفسه لم ينج من هذا التأثير . والمعروف ان معظم قصص بوكاشيو هي حكايات شعبية نقلها الشعراء الجوالون . (من المفيد ان نذكر ان الكثير من هذه القصص قد ورد على نحو او آخر في « الف ليلة وليلة » .)

ثم رفدت فن الرواية موجة جديدة تتمثل في الاساليب المتقنة التي نقلها العرب الى الاسبان . وقد استطــاع العرب ان يجمعوا الكثير من الاقاصيص الاغريقية ويؤلفوا روايات شيقة . وقد قلدهم الاسبان الذين أثروا بدورهم في كتاب الرواية في جميع انحاء اوروبا . وكان في طليعة هؤلاء ، دورفي Durfé الذي كتب رواية استريه Astreé عن حياة الرعاة ؛ فكانت اجل مايقرأ حتى القرن الثاني عشر . غير ان مريديه اساءوا تقليده ، فاستبـدلوا الرعاة بالملوك ،

واضطرهم ذلك الى المبالغة في وصف الواقع . ففي رواية سكوديري Scudéri مثلاعن سينا Cinna لانجد هذا الامير العادي كما وصفه هيرودوت في العصور السالفة ؛ بل نجد شخصاً مجنوناً ، على الرغم من مهـابته الكلية ، عاشقاً لايعرف الا البكاء من الصباح الى المساء ؛ وقد اصبحت هذه المبالغة من التقـاليد المألوفة في الرواية خلال عصور بعيدة ..

ولم يتح للرواية ان تتحرر من هذا الانحراف في طبعتها الا بظهور ميكيل سيرفانتس Cervantès الذي رسم في روايته الخالدة « دون كيشوت » اغرب شخصية يمكن ان توجد في خيال كاتب روائي ، ولكنها مع ذلك اقرب نموذج الى الحياة اليومية ،ورواية دون كيشوت هي اول اثر فني كامل في هذا الميدان . انها تقدم الفن الرائع والتسلية الممتعة ، والثقافة الواسعة في آن واحد . وقد قال عنها القديس ايفرموند Evremond .. : « الكتاب الوحيد الذي اعدت قراءته دون سأم واردت ان اكون مؤلفاً له .. »

وقد انطوت محاولات الكتاب بعد ذلك على جميع القضايا الاساسية التي يمكن ان تثار في طبيعة فن الرواية وعلاقته بالحياة الانسانية . ففي رواية مغامرات تيلماك Télémaque اثار فينيلون Fénelon مشكلة التوجيه في القصة . لقد استخدم اسلوباً شعرياً جميلا ، ولكنه بعيد عن الواقع الحي ، لأنه اراد ان يقـدم للحكام درساً في الاخلاق يعرف انهـم لن يتبعوه . واندثرت صفحاته في ركام العصر .

وحاول فولتير اقحام الفلسفة في الرواية ، وهي محاولة جريئة ولكنها لم تقدم فناً بل فلسفة . ولولا موهبة فولتير في فن الكتابة لما كانت كانديد Candide وزاديغ Zadig من روائع الكتب النثرية . وقد تجاوز روسو هذه المشكلة نفسها (استخدام الرواية من اجل الفلسفة) باسلوبه العاطفي الحار ؛ لقد ترك صفحات لامثيل لها في روعة العبارة وقوة التأثير . وكان بذلك نموذجاً فذاً للكاتب الذي تجري الفلسفة في روحه ..

غير ان الرواية بمعناها الصحيح لم تجد ارضاً صلبة الا حين تناولت الواقع في تفاصيله اليومية الصغيرة ، وقد كانت خلجـات القلب البشري اكثر هـذه التفاصيل ارهافاً واشدها اغراءاً للكتاب . وذلك ما اهتدى اليه الروائيون الانكليز وفي طليعتهم ريشاردسون Richardson وفيلدنغ Fielding ؛ ان مؤلفات هذين الكاتبين هي درس بليغ لكل من يحاول فهم الفن الروائي على حقيقته . في هذا الدرس تتبين ضرورة التحليل العميق للاهواء البشرية التي تستهلك وجودنا جميعاً ولا يقتصر هذا التحليل على وصف الرغبات والنزوات كما يحياها الناس في الواقع ، بل انه يكشف ايضاً عما يمكن ان تؤول اليه جنونها الرذيلة في طريقها العاصفة . وها هنـا تكمن النقطة الاساسية في الرواية التحليلية . ان المحور

الذي تدور حوله هو مايمكن ان يكون عليه الانسان مثلما يعنيها ماهو عليه في الواقع . ان الروائي الحق ينطلق الى ابعد مايستطيع في تصوير المصائر البشرية . وبهذا كانت تجربة ريشاردسون وفيلدنغ ميلاداً حقيقياً لفن الرواية . انا نتعلم منها انه لا اهمية لانتصار الفضيلة مادام الناس يخشون الصراحة ، ويحجمون عن تعرية نفوسهم خوفاً من ان يذرفوا الدموع . ان الفضيلة ايضاً هي الجرأة على رؤية الشقاء البشري كما تنبض به الدماء ، لانه الحقيقة التي يعانيها الجميع .

على هذا النحو تصبح الرواية فناً بكل معنى الكلمة ، مرآة امينة للقلب الانساني ، لابد من ان تعكس على صفحتها كل مافيه من صدوع وجراح . بهذه الروح كتبت رواية « مانون ليسكو » Manon Lescaut والمعروف ان مؤلفها الاب بريفو Prévôt قد ترجم ريشاردسون الى الفرنسية وكان من دعاة الواقعية الانكليزية في الرواية .

قبل ان ننتقل الى المشكلة الثالثة في بحثنا : ماهي قواعد الفن الروائي ؟ نقف امام تساؤل هام طالما أثار الباحثين هو : لماذا الرواية ؟ ماالذي يعنيه هذا النوع من الانتاج الادبي ؟ وما جدواه ؟

مثل هذا السؤال لايصدر الا عن المرائين الذين هم أول من يعرفون بانه تساؤل مضحك . تقولون ما فائدة الرواية وهي التي تضعكم أمام نفوسكم ، وترسم صورة امينة لعاداتكم وتقاليدكم وتفضح كل ماتتذرعون به من الكبرياء والغرور لكي تخفوا حقيقتكم ، من دون ذلك تعيشون وراء الاقنعة الزائفة ، خائفين من الاغوار السحيقة المبهمة التي تمثلها في اعماقكم كوامن النزوات .

ولكي تكتب الرواية على النحو الذي يجعلها صورة الحياة . لابد من ان نعرف الحياة جيداً ، ان نجمع كل مانستطيع من الاسرار والحقائق عن وجود الانسان في جميع مواقفه وطباعه . ومن ثم فان هناك مصدرين أوليين يستقي منهما الكاتب مادة فنه هما الشقاء والسفر . ان الآلام تكشف عن حقيقة الانسان ، وكذلك تفعل الاسفار . ولا يكفي ان نعرف الناس كما نراهم ، بل نتبادل التجارب معهم ، يجب ان يخدعونا احياناً لكي نستطيع فهمهم ، وان نصمت كثيراً لكي نصغي اليهم .

ان الروائي هو ابن الطبيعة الوفي ، ورسالته ان يصف العالم كما هو ويمتد بخياله الى جميع الآفاق التي يمكن ان ترتادها تجربة الانسان . ومن اجل هذا فهو يحب الحياة ويحرص على كل نبضة في اشيائها واحيائها . ان الأحمق يقطف الوردة وينثر اوراقها ، اما العبقري فانه يتنسم عبيرها وصورها وهذا مايفعل الروائي .

غير ان تصوير الحياة يفرض على الروائي ان يجمل الوقائع ويضفي عليها الواناً زاهية ، لكي يستهوي الاخرين ؟ وهي من خصائص الفن

المألوفة . ولكن حذار من الكذب . ان قوة الواقع والصدق في تصويره ، هما أجمل ما فيه ؟ ينبغي ان تكون الرواية كالحياة ، خالية من كل ما يمكن الاستغناء عنه .

ولكي يكون التعبير الروائي في حرارة الواقع يجب ان يكون في بساطة الحياة . ولكن هذا لايعني ان يتوقف الخيال . فالرواية هي فن مبدع ، وعلى الرغم من انها مشدودة الى الواقع ، فهي ملزمة بان تكون جميلة ، بان تبهر وتمتع . ان ما يقرأ في سأم هو اثر رديء ؟ والخيال وحده يجعل من الاشياء المألوفة مصدراً للغبطة . ولكن ينبغي ان نفرق بين الخيال والمستحيل . فالرواية الجيدة تستطيع ان تشعرنا بان اغرب الامور يمكن ان تقع ، لمجرد انها معقولة ، ممكنة .

اذا كان لابد من الحديث عن قواعد الفن الروائي ، فمن المحتم ان نشير الى ان العمل هو اساس كل قاعدة ، العمل في حرارة واستمرار . وبعد هذا ، فان لكل كاتب ان يضع القواعد التي يريد . فمنذ ان ترتسم في ذهنه ملامح الرواية ، يجد نفسه ملزما بطريقته الخاصة في الاداء . ومثلما تأتي الافكار الجديدة اثناء الكتابة تجدد اشكال جديدة لكل اسلوب . اننا لانريد من الروائي طريقة تتبع ، بل نريد وثبات جديدة في آفاق التجربة الانسانية . وها هنا يمكن ان تعترضنا مشكلة الاخلاق . الا ينبغي ان يكون للرواية هدف توجيهي ؟ . . لا . . لامكان للوعظ والارشاد في الرواية . ان تصوير الانسان على حقيقته هو غاية مثلى ، ما دامت الحياة بكل متناقضاتها جديرة بان تعاش وتفهم وترسم . بل ان هذه الغاية هي السبيل الوحيد للتحرر من الاوهام والأحكام الخاطئة . فحين تهرم امة ما ، وتتعرض النفوس للانهيار والفساد ، لا يكون ثمة مجال للخلاص الا بتعرية الطبيعة البشرية ، وتحليل نزعاتها في مزيد من حب الحقيقة . كيف يمكن القضاء على الرذيلة اذا لم تفضح ؟ . . على ان هناك بوناً شاسعاً بين الذين يقولون الحقيقة في صدق لانهم يحبون الانسان كما هو في واقعه ، وبين الذين يسلبونه كل جدارة ، حين يلفقون عنه الاكاذيب ، من هؤلاء من يكتبون عن مفاسد الحياة في مغالاة مقصودة وتزييف مصطنع ، لانهم أجبن من ان يعترفوا بنزواتهم الأنانية البائسة ، ومنهم من يزخرفون الوقائع بألوان من التفاؤل الكاذب وتبدو آثارهم اشبه بنوع من الثمار في امريكا ، الوانها مشرقة ولكنها مفعمة بالسم القاتل .

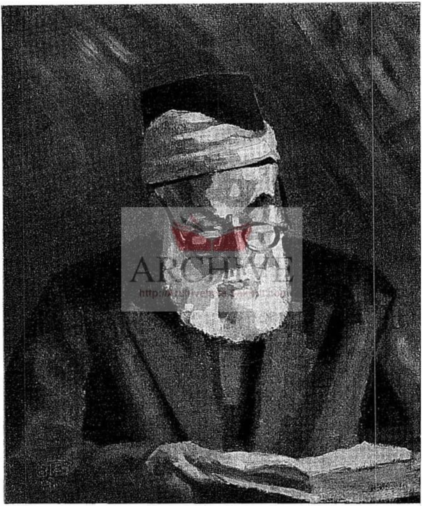
ان الرواية هي ظل للتاريخ . والتاريخ لا يحابي بل يجابه الانسان بجميع الوقائع التي تخط له مصيره . لقد روى المؤرخ العربي ابو القاسم طريف بن طارق ، قصة عن البرج المسحور تبدو لأول وهلة حكاية عادية ولكنها كانت اساساً حياً لرواية كبيرة لم تخرج وقائعها عن السطور الموجزة التي سرد فيها المؤرخ بداية الحرب بين العرب والاسبان . غير ان الوقائع التاريخية تبدو جافة مملة من دون الدقائق الحارة التي تمثلها النزعات المتناقضة في حياة البشر . وهي التي تجعل الواقع رواية .

الفنان

ولد عبدالعزيز النشواتي في دمشق عام ١٩١٢ وقد عرف بتفوقه في فن الرسم منذ نشأته الاولى، حتى اصبح في عداد الفنانين البارزين ، فـفـاز بالجائزة الاولى في المعرض الرسمي الذي نظم عام ١٩٥٧ ، كما اشترك في كثير من المعارض الفنية الخاصة والرسمية ، وهو يعمل حاليـا مدرساً في ثانويات دمشق .

اللوحة

اسلوبه واقعي وانطباعي ، وقـد تفوق في رسم الوجوه وفي مواضيـع من حياتنا الواقعية وتمثل هذه اللوحة وجه دمشقي عريق تظهر فيها انسجام في الالوان وبراعة في رسم الملامح التي تدل على ايمان عميق يكاد ينطق من الشفتين .



مجلة المعرفة (والدي) عبد العزيز النشواتي

— في المكتبة العالمية —

من الادب الامريكي والالماني

الفردوس المستعاد

تأليف : هالدور لاكسنس

امضى هالدور لاكسنس معظم حياته في البحث عن جنة الله على الارض . وقد حاول – دونما فائدة – أن يراها في ملكية اللوكسمبرج أو بين السرياليين في باريس ، او في صفوف الحزب الشيوعي . وقصصه تعكس ابحاثه بصدق وامانة . ففي رواية (العصاميون) التي منح من اجلها جائزة نوبل سنة ١٩٥٥ يعرض موضوع الصراع بين ملاكي الارض الصغار وبين الاقطاعيين . اما وقد اصبح لاكسنس في الستين فقد هدأت حدة الصراع لديه وصار قادراً على التأمل الساخر والهزل الممتع في تصوير الفردوس الخادع الذي يحلم به الكهول في سنه .

وستينر هيدار بطل قصة (الفردوس المستعاد) نموذج مثالي لابطال لاكسنس من الفلاحين . وقد شب عنيداً يكافح في مزرعته التي ورثها عن اجداده ، وينهك نفسه باقامة جدار حجري بدأ به جده الاكبر وهو يسلي ابناءه الذين يعاونونه بسرد حكايات لهم . إلا أنه كان يشعر بفراغ روحي سرعان ماملأته عقيدة (المورمون) حين جاءت اليه ارسالية تبشيرية واقنعته بأن الفردوس المفقود الذي يبحث عنه موجود في منطقة اوتاه حيث يطبق المورمون تعاليم شريعتهم . وقد طالبوه بأن ينبذ اسرته ويتخلى عن ارضه ليجاهد في سبيل العقيدة التي يؤمن بها بدلا من ان ينغمس في الترف والراحة في وطنه . وقال له المبشر : « قد يجوع ابناؤك ذات يوم ويقعون في حبائل الجوع والفاقة ثم يموتون . وسوف تحفر بيديك قبورهم وتدفن احباءك في الثرى وتهيل عليهم التراب ثم تركز الصلبان فوقهم لتعبث بها الريح » .

وقد اوحي الى ستينر بأن يترك زوجته وولديه الى (اوتاه) . ويعرض الكاتب هذه الرحلة بأسلوب عاطفي متهكم ، كما انه يصور مجتمع المورمون الذين يبيحون تعدد الزوجات كانصاف من عدالة الله للضعف الانساني ، ويعتبرون ممتلكاتهم دلالة على نعم الله ورضاه .

اعجب ستينر في البداية بالمجتمع الجديد وطلب من زوجته وولديه المجيء ليشاركاه في الحياة المثالية التي اختارها . وفي احد الايام يحتاج ابنه

الى حذاء ويصر على أن يكون قريباً من حذاء الكاهن ان لم يكن هو نفسه . لكن الكاهن يرفض ان يتخلى عن حذائه بعد ان تعذر الحصول على مثيل له . ويفلسف الكاهن رفضه بقوله : « ان هذا الحذاء افضل برهان على قوة الحجة اثناء المناقشة مع الكفار . انه افضل من ترديد اقوال القديسين لهداية الناس » .

ويكتشف ستيفن انه استبدل مجتمعه بآخر دون ان يظفر باليوتوبيا التي يحلم بها . فيشد رحاله ويعود الى حقله ليتابع بناء الجدار ورواية الحكايات .

•

الى جهنم أيتها الثقافة

تأليف : هوبرت ريد

هذا هو العنوان الذي اختاره الناقد الفني هربرت ريد لمجموعة مقالاته الفنية والاجتماعية التي تضمنت فلسفته الاجتماعية وجوهر هذه أن في كل انسان امكانية فنية ليس من الضروري أن تتجلى في عمل معين ، بل تظهر في الاعمال المنزلية العادية .

ويقول المؤلف إن أسمى قيم الحياة لا يمكن أن تتحقق الا في مجتمع اشتراكي ، لأن الاشتراكية في العصر الحديث تعادل الديمقراطية اليونانية في العصر الوسيط من حيث افساحها المجال للمواطنين في العمل . وهو يرى أن الثقافة ليست ما قيل أو عمل بل هي ما يقال ويعمل الان وفي كل مكان . ولاريب في أن مثل هذه الافكار تؤدي الي مناقشة الجو الصناعي ، والى الاعتبارات الجمالية التي تتدنى كلما توخى المنتج الفائدة في انتاجه . إن المجتمع المثالي الذي كان كتاب القرن التاسع عشر يتغنون به ، تطور في هذه الايام على يدي ريد الى المجتمع الطبيعي الذي لايترك مكاناً لكائنات مترفة تسمي نفسها « فنانين » فلا مكان لغير العمال ، ويقترح المؤلف أن يكون العمال الذين ينتجون الادوات ، مسؤولين عن ادارة المعمل ووضع التصاميم وتسويق الانتاج .

وهذه الفكرة مبنية على نظرة تفاؤلية مفادها أن العامل المتوسط الذكاء لديه من الحساسية الفنية ما يجعله أهلا للابداع . لكن هذه الحساسية لن تتنبه إلا إذا « شعر بمعنى عمله اليومي، وسنحت له الفرصة لابداع ثقافته الخاصة به . » . لكن هذا يستبعد وجود فئة من الناس يظل العمل من أجل الفن جزءاً من حياتها ، مهما كان أسلوب التصنيع ثورياً . وفي معظم الاحيان ينصاع المرء للروتين اما لانه يلائم مزاجه ، أو يرضي نزعته الى ضمان حياته ، أو لقناعته بتفوق ابداع الاخرين فاذا شعر أن روحه تطمح الى نشاط أسمى سعى الى نبذ العمل الصناعي وكرس حياته للفن خلال صراع لابد منه حتى يستطيع أن يفرض نفسه على المجتمع .

وينهي المؤلف دراسته بقوله : « الثقافة شيء طبيعي في المجتمع . واذا ضمن المجتمع حرية المواطن وحاجاته الضرورية ، في اطار من الحياة الديمقراطية ، فان الثقافة تضاف الى حياة المجتمع دونما حاجة الى جهد خاص لفرضها » .

شكوك حول جاك

تأليف : يو جونسون

هنـاك أحياناً فن عظيم يستشفه القارىء في صمت الفنان . وهذا سر نجاح الكاتب الالماني يوجونسون الذي لم يتجاوز الثلاثين . فقد كتب رواية مثيرة مليئة بالغموض والاشارات الخفيـة والصمت الفني الذي يدعو القارىء الى أن يعمل مخيلته ليملأ المواضع التي تركها الكاتب فارغة عن عمد .

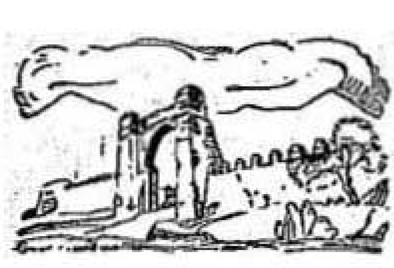
تبدأ القصة بمقتل جاك تحت قضبان قطار حديدي في احدى مدن المانيا الشرقية في ليـلة ضبابية . ثم مايلبث الكاتب أن يضع القارىء في بناء قصصي شديد الإحكام ، فيسرد نتفاً من الاحاديث المتبادلة بين زملاء جاك من العمال . ويعرض بطريقة فولكنر مونولوجاً داخلياً طويلاً على لسان أحد مفوضي الشرطة الذين لحقوا جاك من خلال الضبـاب . يتخلل ذلك كله حديث خاطف عن كيفيـة هروب والدة جاك الى المانيـا الغربية وحديث آخر من ابنة جيران جاك عن حياته .

هذه القصاصات اذا جمعت توحي بعقدة .

لكن القارىء حين يتقدم في استنتاج العقدة من خلال الاحداث يكتشف أن الكاتب خدعه حين زج به في مشكلة الحياة في المانيا الشرقية .

ذلك أن جاك شخص مشبوه في نظر سلطات المانيا الشرقية . فأمه وجيرانه قد هاجروا الى المانيا الغربيـة . ويتساءل المسؤولون عن سبب بقائه مع أن سلوكه لايدل على ولاء للسلطـة أوعصيان لها . وبذلك أصبحت حياته تتوقف على الثقة به أو استمرار الشكوك فيه . ومع ذلك فان قضية موته مازالت موضع تساؤل : هل قتل؟ هل وجد من يدفعه امام القطار ؟ أم ان موته مجرد حادث ؟

ويظل السؤال المثير معلقاً في ذهن القارىء حتى يجد نفسه مضطراً الى ربط هذه القضيـة بالتنافس القائم بين المانيا الغربية والمانيا الشرقية ثم الى الوضع القائم بين الشرق والغرب بعبارات انسانية بعيدة عن الكليشهات التي يستعملها كلا المعسكرين .



كان لي قلب

باكورة شعر لراضي صدوق

نشر دار الكتاب العربي بلبنان ١٩٦٣

عرض وتحليل : الدكتور زكي المحاسني

يكتب هذا العنوان : « كان لي قلب » شاعر أوفى على السبعين ، إذ يلتفت فيرى وراءه السنين تطل عليه بأعناقها ، وكأنها حشد خلفه ، فهو مثقل به لا يستطيع التخفف ، وكأنه ينشد بلسان ابن الرومي :

فكرت في خمسين عاماً مضت
كانت أمامي ثم خلفتها
لهفي على الدنيا ، وهل لهفة
ترد شيئاً إن تلهفتها ؟!

ولكن الشاعر الذي اختار لديوانه الاول هذا العنوان مازال في شرخ الصبا لم يدلف بعد الى الكهولة!! وهو الشاعر الاستاذ راضي صدوق .

القلب ياصاحبي مازال بين جنبيك خفاقاً مراحاً نرجو ان يظل يعطيك شعوراً ، لتعطينا شعراً .

أما الاهداء ففيه غرابة اكثر من هذه ، إذ قال شاعر الديوان : (الى شمس لم تشرق في حياتي ..)

فوقف على باب المجاهيل الدنيوية ورفع رأسه الى سماء تظله وحده بلا شمس ، وأحسبها بلا قمر ونجوم ايضاً ، لأن الشمس اذا لم تكن دوارة في فلك دنيانا فليس معها كواكبها والأنجم .

وأحسب أن هذه الشمس مستعارة لحسناء مثلها مازالت نظرات صاحبي مدومة في فضاء شبابهـا تبحث عنها ، ولكن بغير مصباح « ديوجين » وهذه من طبائع الشعراء في صدور حياتهم تظل اعينهم شوارد وقلوبهم خوافق وأنفاسهم تصعد الزفير وبأيديهم أقلامهم . يرفعون رؤسهم الى العلاء يستمطرون الايحاء من عوالم بعيدة شاردة ثم يكبون بين الفينة والفينة على القرطاس يخطون

بيتـــاً أو بيتين ثم يعاودون الكرة مثل طيور واقفة على مهـاد منثور عليها الحب الذي تلتقطه مناقيرها الحين بعد الحين .

كذلك دلف الشاعر « راضي صدوق » مثل شاب اغريقي في يوم عيد من اعياد « باخوس » الى الهيكل ، ومعه قربانه «ديوان شعره الاول» قدمه الى المذبح هدية لانسانة مجهولة لم تطلع بعد شمس حسنها على آفاق وجوده .

وكيف تم الأمر ، فلندلف الى الديوان نفسه ، الى هذه الباكورة الشاعرة . فاذا نحن نتلقاه القصيدة الاولى التي هي « قصة شاعر » وفيها يصور نفسه وكأنه انبعث اسطورة عالقة في خاطر الوهم ، ثم اخذ يردد بمضض وغصص ، ما جرعته حواء ــ ولا يقصد الاولى التي هبطت من الجنان الى الارض ، وانما يريد بنتها ــ التي تعيد في كل يوم سيرة الام الاولى . واذا هو يجد نفسه في اهاب آدم نفسه فيقول : انه آدم في حيرته ... ضل حواء ولم يقترف خطاها ، وجميل من الشاعر ان يعالج سيرة الام الاولى التي جلبت لأولادها عبء الهموم ، والاب الأول الذي عنته اساطير الاغريق في شخص بروميثي المعذب .

وشاعرنا صدوق لم يتناول قصة آدم وحواء فيعرضها من خلال تصوره إلا بسبيل الحب وعبور الذكرى وما تطل به الاحداق النجل وما تفوه به الشفاه الحمر ، فهو قد استغل قصة آدم لنفسه ، ولم يفلسفها فيعطيها وضعاً اكثر خلوداً في دنيا الشاعر ، وكنت اعجب لشعراء الغربيين كيف استغلوا ذنب آدم وحواء فجالوا بهما كل مجال في الخواطر والتأمل وفي الفلسفة والتأسف ، وكذلك صوروا بروميثي حين أهبطـه « زوس » رب الارباب على الارض فأودعه سر تكوين الانسان وقال له مهدداً وناصحاً .

ــ إياك وخلق الانسان ؟

وحين وجد بروميثي نفسه وحيداً في الدنيا ، داعبه خاطر السر الذي يرقد في اعماق نفسه ، فباح به واخرج الطاقة من يده ، فأبدع الانسان في الرجل والمرأة معاً ، فغضب عليه رب الارباب وأمر به فصفد بالأغلال وربط الى قنة من قنات جبل الالب ووكل به نسرا ينقر كبده حتى مات .

ولكم وجدت هذه القصة آسرة مهتاجـة لخلاوات التأمل وشقائه ، في شعر الشعراء الغربيين .

واذا لم ابارح كلمة الحب فاني واجدها تموج في الديوان كلهفة تطاق في كل قصيدة ، وتريد أن تنزل كل بيت وهي حاملة الاسى ، ويدها مشعل منطفىء هاجه الرياح ، كذلك اختل تلك الكلمة وحياتها في شعر «صدوق» الذي سمي «راضياً» وبان رضاؤه بالمقسوم من القدر ، على الرغم من ثورته وقلقه ، انه اشبه بجائع يثور امام مائدة الطعام ، لانه لايجد عليهـــا مايشتهي من المطاعم لكن الجوع يلحف به فيأكل . انه يأكل ارغفة حظه على مائدة نصيبه .. وهو في شعره يكرر ذكر حواء في ابيات ومقطعات رامزاً بها المرأة ، وهـــذا لست اقبله من الشعراء ، اذ اوثر لديهم التصريح على التلميح ، فعهد التقية أفل في ازمنة اوائل واواخر . وادب القرن العشرين ينبغي أن يمتع قراءه بأوجه سوافر .

ومن العجب ان تسيطر على صدوق فكرات خابرات من الجنة الاولى ، فيقول :

نحن روحان وابليس من الخلد سبانا

حتى عددته قد مارس نكبة في فؤاده نزل بها من سماء الحب الى دنيـا الهجر ان والقطيعة فاهوى معه بقصة آدم وابليس، وجعل يمارسها في شعره وبنديها تهاويل خياله .

ثم لست اعجب حين اجده كتب خمس قصائد سمى كل واحدة منها رسالة، فان تسريد الرسائل بالشعر يطيب لي صنعه وقراءته . وهذه الرسائل الخمس من اجل شعره في باكورته ، فان اوزانها كانت ممهدة لما فيها من خواطر وهواجس ،وعلى لمحاتها ترى تهاويل روحية ،واجد روح هـذه الانغام عند الفريد دوموسيه في لياليه الاربع ، بديوانه الذي سماه (الاشعار الاولى) . واكثر الشعراء يمرون في هذا المضيق الذي ينبت الشوك على ضفافه وتهدل الافواف بالازاهير ، انهم ليلهيهم قطف الزهر عن الدوس على الشوك وقديماً احترقت يدا قيس وما شعر ، اذ كان يرى ليلى، وهو يحمل بيده قبس النار .

ولقد فرغت من النظرة بهذه المجموعـة من شعر راضي صدوق فآمنت بها أنـه شاعر ، ورأيتها ليست ديوان شعر وانما هي مأساة نفسية يمور لهيبها في قلب صاحبها فيطلع ابياتاً وقصائد كلها فيض ألم وعتاب وتبيان لارهاق روح جريح وجد في الشعر العزاء والوفاء .

والديوان جميعه صدى صوت عميق ما يزال يصرخ من ألم خيانة المرأة ومن الحب وانسكاب الحسرات عليه ، وكنت أوثر ان أجـد قصيدة واحدة ذات وجهة في غير هذه الاصداء الشوارد قلبت على شعر حماسي ، أو في وصف الطبيعة ، او في قصة تاريخية فلم اجد ، اذ كان الديوان ذا وحدة موضوعية كما نقول حين نريد أن نسم كتاباً مدرسياً بميسم (اكاديمي) .

وليس هذا غرض الشعر فيما ارى الا اذا جاء على نحو من هذا الديوان الجديد .

وقد كتب للديوان مقدمـة ضافية تحليلية الكاتب قـدري القلعجي الذي يعيش حياة قلمه الهادىء بانياً لا يعرف التهديم ، وقد استقى طبع ادبه من طبيعة خلقه الكريم ، وكنت اوثر ايضاً لصاحب الديوان ان يكتب هو مقدمة كتابه ولعله فاعل في ديوانه الثاني .

واذا عدت الى اسم الديوان « كان لي قلب» فان الشاعر الموهوب راضي صدوق يقول في القصيدة التي لها هذا العنوان :

كان لي قلب وذاب
وتوارى في الـتراب

واضيعة مكاوي لومي فأين نجد اشعاره القوابل وهي زواهر بالوصف والحماسة ومقاصد العروبة اذا كان قد ترك قلبه ،ولعله تركه لاسر مستتر في طيات نفسه ،كما ترك ذلك المخلوق قلبه في قصة من قصص كليلة ودمنة فلقد قال :

— تركت قلبي في الشجرة

وكان يركب ظهر الفيل والفيل سابح به في اليم أخذه المزوجة لتأكل قلبه، ولما ادرك مصيره قال للفيل :

— ردني الى الشجرة لآتيك بقلبي .

واحسب شجرة صاحبي في جنة الدنيا ،وعند قطوفها قد وقف ، وعيناه الى السماء ،يرتقب بهما مطل شمسه الحسناء التي لم تطلع عليـه بعد ... وستطلع ان شاء الله فتملأ نفسه نوراً وحبوراً .

مع القصة العربية

قصص

مجموعة قصصية تأليف وليد اخلاصي

نشر دار مجلة شعر ـ بيروت

عرض وتحليل ياسين رفاعية

عندما يتاح لنا ان نقرأ قصة ما . نتساءل عما اذا كان الكاتب قد استطاع ان يعبر عن ذاته أم لا ..؟ ومن خلال هذا السؤال يكون حكمنا اكثر عدلا عندما نناقش الكاتب قيمة ماقدمه لنا من الناحية الفنية والانضباط المشروط بالنسبة للقصة الحديثة .

وجدت نفسي ، وانا اقرأ هذه القصائد في « قصص » وليد اخلاصي التي صدرت عن دار مجلة « شعر » أمام احد أمرين . اما ان أنظر الى الناحية الفنية في المجموعة دون ان أعير مالبيئة من وجود اي اهتمام ، او ان اطرح على الكاتب السؤال الواجب طرحه امام فنان يملك من الامكانية ماتجعله قادراً كل القدرة على ان يمنح أدبنا الحديث دفقة حارة جديدة تكون لبنة قوية لدفع عجلة ادبنا الى العالمية ؟

« قصص » تضم القصص التالية : بعد الظهر الميت ـ اللوز في تشرين ـ شتاء النقمة ـ سباق شرقي ـ لوحة زيتية على الرف ـ قضية اخلاقية الاشبيلا ـ آثار العنكبوت ـ بانتظار صلاة القمر نافذة على قلب اسود ـ الطحلب ـ التحدي ـ الفارس والصبي ـ موت الرجل المتعب ـ زواج موزون .

وقد قدمته دار مجلة شعر قائلة : وليد اخلاصي كاتب سوري شق لنفسه بهذه الباكورة طريقاً في القصة القصيرة يختلف عن الطرق المألوفة في العربية : طريق الغرابة الشفافة ، والاحاسيس الطفولية ، والاحلام الضاحكة ، واسلوبه الحي عفوي ، خفيف الظل ، يتدفق بغنائية رشيقة تمنحه طعم الشعر وتفرد له في ادبنا الجديد مكانا يطل منه على المستقبل .

انه في « قصص » يجيب عن مسألة طالما شغلت البال : **هل يمكن تكوين قصة صغيرة أو حكاية ، من لاشيء ؟ هل**

يمكن الاستغناء عن التأثيرات الباهظة وبناء عالم متكامل على الطرافـــة والتفاصيل ..

ولعل السؤال الاخير الذي طرحته دار النشر له من الاهمية مايجعلنا نناقشه بكل اخلاص ، لأن المعنى الكامن فيه قد يغير الاتجاه السائد في القصة العربية في محاولاتهـا المستمرة للتعبير عن الجيل العربي بكل قضاياه ومآسيه وآمانيه وآماله ..

قبل كل شيء ، لانقدر بحال من الاحوال ان نسمي قصص وليد اخلاصي قصصاً بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، ان وليد قدم لنـا حكاية شعرية ، أو قصائد نثرية في قالب قصصي قصير جداً ، وهي محاولة جديدة ، وجديرة فعلاً بالدراسة والتمحيص .. فلا بأس أن تتلون اساليب التعبير الفني والادبي .. ولا بأس على الاطلاق ان يحاول الفنان محاولات جدية من اجل الوصول الى الذروة . ومحاولة وليد اخلاصي من هذا النوع من غير شك ..

وعندما يؤكد الكاتب ، او الدار التي تقدمه ، انه يقدم لنا نماذج قصصية تختلف عن الطرق المألوفة في العربية ، فهل يعني ذلك ان قواعد النقد لايمكن ان تنال من المحاولات الجديدة . وان الذي يحاول ان يدلي برأيه سيجد نفسه أمام هذا التقديم انه لايمكن له الاعتماد الا على اجتهاده الخاص .

لابأس .

قصة « بعد الظهر الميت » ابرز ما في المجموعة وهي بالتالي أول قصة ، ان وليد اخلاصي كاتب جديد ، وهذا مايجعلنا نؤمن انه بالامكان ان يقدم شيئاً رائعاً في المستقبل ، فالاصالة واضحة في اثره الاول عكس العدد الكبير من الناشئين الذين يطلون علينا اليوم بترهاتهم .

« بعد الظهر الميت » قصة عائلة . يرويهـا الكاتب من خلال لحظة زمنية مضغوطة . ويبرز لنا التناقض الكبير الذي يفصل بين ثلاثة اجيال جيل الجدة التي تصلي باستمرار ، والتي تخاف ان يفوتها وقت الصلاة ، ولأنها تمثل جيل القدرية والايمان الاعزل ، وجيل الشاب الذي يعبر عن غضبه وتمرده بالرمز في محاولتـه قتل الذبابة ، وجيل الاخت الصغيرة ، الطفلة التي لم تتفتح بعد على الحياة .

ولعل بعض اللقطات الحوارية التالية ، توضح مايريد الكاتب ان يرمز له .

قلت لجدتي وقد انهت صلاتها :

ـ تقبل الله

قالت في حسرة :

ـ صليت « العصر » متأخرة .

ـ لابأس ؛ سيكون هناك عصر آخر .

* * *

سمعت اختي تطلب من جدتي ان تقص علينـا حكاية « البلبل الصياح » وجدتي تقول :

ـ الم تنته من البارحة ؟

هتفت الصغيرة في ضجر :

ـ البارحة .. لقد ذهب البارحة .

* * *

وعندما يريد البطل ان يعبر عن سأمه وملله يرسم لنا مضايقاته من الذبابة الساكنة على زجاج النافذة التي كانت تضايقه طوال النهار ، وعندما يزمع قتلها تؤكد له الصغيرة أنها ميتة .. وهناك تبلغ الحكاية ذروتها فالكاتب هنا يرسم بألوان بسيطة كئيبة وخفيفة اللمسات المعنى الحقيقي الكامن في هذا الخيط الواهي بين الحياة والموت .

« الاوز في تشرين » تطل على الحياة ايضاً اطلالة مغايرة للقصة التي سبقتها ، انها اكثر وضوحاً ، وصورها مضيئة مشرقة ، انه يريد ان يؤكد ان الحب هو الشيء الوحيد الذي يمنح الناس الصدق والتفاؤل والخير .. الاوز في تشرين قصيدة لاتكاد تمسك بالواقع ، بالبيئة التي تحيا فيها ، لان الاوز عندما يزهر في تشرين ، بحاجة لأن تجد من يحبك ويصدق ذلك .

أما « شتاء النقمة » يريد الكاتب فيها ابراز المشكلة الازلية التي نعانيها أبداً . عندما تحب الفتاة شاباً ادنى منها في الغنى ، ويبرز المؤلف في هذه القصة في اطار جذاب ما يعتمل في ذهن البطل من آراء مختلفة ، ولعل الكاتب اراد في القاربين الورقيين اللذين غرقا في بحيرة السمك ان يدلل على ما لهذا المنطق الاعوج من نتائج وخيمة على حياة الأسرة ويدعو الكاتب هنا الى التمرد في مثل هذه الحالات . القصة هنا غنية بالرموز ، شاعرية الكلمات.

فاذا انتقلنا الى « سباق شرقي » نمضي في هذه الرحلة الرقيقة مع وليد اخلاصي ليؤكد لنا ان الشرقي لايحاول ابداً ان يسابق الشمس لانه يعتقد انه مصاب بمرض القلب ، اذا قدر له ان يشترك في سباق فلن يكون الا ذلك السباق الطفولي الذي يتبعه نوم عميق هادىء ..

« لوحة زيتية على الرف » هي تتمة للمأساة .

« بدت لي الايام السابقة لوحة مطموسة الالوان ، صديقي الفنان قال مرة :

ـ تلك الحياة .. كأنها لوحة ، ولكنها رائعة الالوان !

لم أتذكر لونا فيه روعة . هل اصبت بعمى الالوان ؟

واين الحب .. السؤال المستمر الذي يبحث عنه الشرقي اينما ذهب .. في اوروبا لايعرفون الحب .. لان المشكلة الجنسية عندهم قد حلت ، في الشرق لايعرفون الحب لانهم لايعرفون الجنس .. اذن .. اين الحب ؟

« تذكرت المرأة الناعمة كدمية وهي تقف في متحف اللوفر تغرق في لوحة صغيرة توقفت انظرها . قلبي توقف لحظة . فكرت ، لو ان هذه الباريسية المتحضرة تقول لي: احبك، اذن لركعت اعطيها رأسي تلمسه . »

وعندما يروي بطل قصة « لوحة زيتية على الرف » مأساته مع زوجته المطلقة ، وجبه لابنه صاحب الربيع السابع ، كان لابد له وهو معلم في المدرسة ان يتألم من اجل صديقه زهير الذي طرد بعدما قيل وقال عن شذوذه . ليضرب الكاتب ضربة معلم ساحرة عندما يطلب البطل من تلاميذه رسم زهرة وضع انموذجا لها .

« عدت الى مكاني حيث اراقب التلاميذ ، ولكن ورقة رسم استوقفتني وكانت للطفل الذي في التاسعة .

جعلت اراقبه في دهشة . قلت له : ماهذا يابني ؟ قال في جد بريء وهو يضع طرف قلمه في فمه ويخرجه :

ـــ زهرة !

ـــ وهل هذه زهرة ؟ ألا تعتقد انها شيء آخر ، وجه امرأة ؟.

وكانت في لهجتي مسحة من القسوة اخافت الصبي فابتعد عني فزعاً وهو يقول :

ـــ هكذا ارى الزهرة »

ان الانسان يرى الاشياء دائماً بمنظاره الخاص وان القيم الجمالية تختلف بأشكالها ومعانيها عند كل انسان ، هذا ما اراد الكاتب ـ فيما نعتقد ـ ان يعبر عنه بقصة الزوجة والصديق الزميل والطفل الذي يرسم زهرة على شكل وجه امرأة لانه هكذا يراها .

وقصة « الدانتيلا » على الرغم من انها تعبر عما يعانيه بعض شباننا من كبت وحرمان فانها تكاد تكون فريدة في المجموعة بعيدة عن روح بقية القصص ، وهي قصة عادية جداً تكاد تشبه القصص التي كنا نطالعها قبل عشر سنوات لبعض الكتاب العرب في مصر .

ويعود الكاتب الى « اثار العنكبوت » ليتماسك من جديد ولكنه يعيد لنا مقطعاً من قصة الدانتيلا بنفس المشهد ، أما الفرق فان المشهد في الاولى نفس المرأة ذات الثلاثين عاماً ، الناضجة ، والزوج الغائب المسافر ، اما في المشهد الثاني فان الزوج يدخل فجأة ليضرب . والزوجة تغازل ابن الجيران الذي تخشر الهم من يتسنده من الصبار ، حيث لم نسمع ابدا انه يستطيع جعل يد انسان تنزف دماءاً .

« بانتظار صلاة القمر » هـذا الحنين الكئيب الى طفل في حياة زوجية يسودها الحب الكبير ، لقد استطاع الكاتب ببراعة فائقة ان يصور حالة الزوجين من خلال جزئيات صغيرة تؤكد هذا الحنين الكبير لان يكون لهـما طفل يؤنس وحدتهما .

« نافذة على قلب اسود » بعيدة عنا رغم فنيتها الخالصة ، وقد استطاع الكاتب ان ينحو فيها منحى انسانياً في خلقه هذا الجو المحموم الذي يشم البطل الذي قتل زوجته الفرنسية التي لوثت سمعته ، وامضى فترة طويلة في السجن ، وحرم من مهنته كطبيب ، وبعد زمن طويل التقى بفتاة ليلية واراد هنا ان يجرب مبضعه الطبي ، وكان بالامكان قتل المرأة التي خدرها لولا هذا الوهج

الانساني الذي يأخذ به فيقبل المكان الذي يرقد فيه قلب المرأة العارية المسجاة امامه لا تنطق ، وفي حال ارتقاء الكاتب عن فكرة اخرى يفاجىء القارىء في قصة « الطحلب » بالانتقال السريع ليبرز موضوع الخيانة بصور متلاحقة شعرية وفي اعتقاده ان الخائنة هي امه لكنه يقتل امرأة اخرى هي بالفعل ايضاً تخون زوجها مع قصاب فيما كان يعتقدانها امه، وفي « التحدى » تهاجم الطبيب ذكرياته ، انه مريض ومع ذلك فانه ما زال يتفقد الآخرين ، واخيراً يقرر ان يتحدى المرض .. ولكن الكاتب يتركنا هنا امام اشارة استفهام كبيرة لا تخرج منها بنتيجة ، وتتحول البهجة في « الفارس والصبي » الى تمس الانسان الكبيرة عندما يمل كل شيء فيعود الى انسانيته ، البطل في موقف انساني لانه يريد تبني الطفل والطفل بالذات في موقف انساني لانه لا يرغب في ذلك ، فهو قد اعتاد السرقة والنشل والكذب ، ولن يستطيع البطل ان يعلمه القراءة والكتابة والحياة الشريفة والطفل يخاف اذا طاوع الرجل ، يخاف عليه من نفسه .

وعندما يموت محمود البندورة في « موت الرجل المتعب » يحس القارىء برثاء كبير لهذا الرجل الذي لم يعش الا من اجل بناته والبحث لهن عن عرسان ويدفع حياته ثمناً لاجل سعادتهن ويموت في اليوم التالي لزواج احدى بناته الصغيرات ، ويغيظ موته الاهل لانهم بالامس كانوا في فرحة العرس .

وعندما يقع الرجل الميت يقول رجل لزميله وهما يشيلانه : – كم هو متعب ! هل رأيت اثقل من ظل رجل يتعب حتى في موته .

ويشذ الكاتب في القصة الاخيرة « زواج موزون » عن الخط الذي مشى عليه في اكثر قصصه ، « زواج موزون » جاءت غريبة عن المجموعة من حيث تركيب احداثها .

وهنا لا بد ان نتساءل هل عبر وليد اخلاصي عن بيئته ، يبدو الكاتب انه قد تأثر تأثراً كبيراً بالكتاب الامريكيين المحدثين على الارجح ولذلك فقد حرص حرصاً واضحاً على تقنية القصة اكثر من حرصه على التعبير عن بيئتنا ، ولذلك نلاحظ انه في بعض القصص كان يقترب كثيراً من البيئة العربية الشرقية وكان في بعضها يبتعد كثيراً على ان هذا لا يمنعنا من القول ان وليد اخلاصي فنان بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، وان العالم الذي طرح قضاياه في هذه المجموعة يؤكد لنا غنى ثقافته الحياتية وامساكه بالكلمات الشعرية النقية .

ان وليد اخلاصي يبشر بميلاد فنان اصيل سوف يكون له شأن في عالم القصة .



الوجودية في الجاهلية

لبى المستشرق الالماني فالتر براونه الاستاذ في جامعة برلين دعوة وزارة الثقافة فألقى في المركز الثقافي بدمشق مساء العاشر من نيسان ١٩٦٣ محاضرة قيمة تدور حول الوجودية في الجاهلية وشعرها ويسر مجلة المعرفة أن تطلع جمهور قرائها عليها .

منذ زمن بعيد يختلف الناس في مسألة خاصة بمعرفتهم وعلمهم ، كل انسان يطلب المعرفة ، هذه هي الجملة الاولى التي ابتدأ بها الفيلسوف أرسطو احد كتبه الكبيرة ، ولا ريب في انه صدق ، فإن الانسان محتاج ضرورة الى أن يعرف عالمه وكل ما يواجهه ولكن كيف يعرف ؟ وكيف يحصل على معرفة ثابتة ؟ هذا السؤال واسع الأطراف ، ولكنه ليس موضوعنا هنا ، انما يعني الان نقطة صغيرة في ذلك البحر ، من الذي يعرف موضوعه بصورة ثابتة ؟ هل القريب هو الذي يعرفه معرفة مؤكدة ، أو هل البعيد من اجل بعده بالذات من الموضوع اثبت معرفة ويقيناً ؟ هذا السؤال نسأله دائماً من غير وعي ، وهذا هو السؤال الذي يهم العلماء في نظرياتهم منذ الزمن القديم ، كل ام مثلاً تزعم أنها تعرف ولدها بصورة لا يشترك فيها شخص آخر ، ولا شك أنها صدقت ، فان الام قريبة من ولدها اقرب ما يكون .

وعلى الرغم من ذلك نتردد قليلاً في تصديق هذا الرأي تصديقاً مطلقاً ، أما يعرف البعيد ما قد يجهله القريب أما من الامكان أن احد معلمي هذا الولد وخصوصاً من اجل بعده ، يعرف شيئاً عنه يجهله القريب حتى امه الأقرب منه ؟ هذا الامكان هو حقيقة نلاحظها كل يوم ، وربما صدق الشاعر القديم وهو يقول :

قد يوصل النازح النائي وقد
يقطع ذو السهمة القريب

عبيد بن الأبرص

وهذا الامر موضع اختلاف كبير عند العلماء منذ زمن طويل ، فيقول بعضهم : ان الشبيه يعرف الشبيه . ويقول البعض الآخر : انما يعرف البعيد ما هو غير شبيه به ، ويختلفون في هذا الرأي منذ قرون ، فأما أنا فيظهر لي أن هذا الاختلاف الحاد أحد الأباطيل التي يختلف الناس

فيها ، حتى في طبقات أهـل المعرفة والعلم، فانني اعتقد أن معرفة كل موضوع مؤسسة على هاتين النظرتين معاً ، على نظرة القريب ، وعلى نظرة البعيد ، ولابد من امتزاج هاتين النظرتين لتثبيت التقدم في علومنا .

لا مانع من أن اقطع ههنا هـذه التأملات ، فانني بينت ـ كما اظن ـ ما هو غرضي في هذه المقدمة .

مرادي أن اقدم بعض الملاحظات في الشعر الجاهلي ، ما الذي أجرأ عليه ؟ انا بعيد عن هذا الموضوع بعد الغريب طبعاً ، إن رأينا مدى الزمان الذي يبعدنا عن هؤلاء الشعراء، فكلنا بعيد عنهم، واما انا فأكثر غربة إذ لست اشعر بمعنى الكلمات شعوراً غريزياً ، بل اترجـم النصوص كلمة كلمة بصعوبة عظيمة ، لست اسمع صوت الألفاظ الداخلي ، بل أكتفي بالمعنى الظاهري.. حقيقة انا غريب ، إذن ما الذي أجرؤعليه ؟ ورغما عن ذلك أستأذنكم ان أتجرأ . فان في هـذه الجرأة علامة واضحة على الميل بل على المحبة التي تدفعني الى هذا الموضوع المثير . الشعر الجاهلي .

الموضوع — كما تعرفون — بحر لاساحل له . وماذا استطيع ان اقول فيه فيساعةقصيرة؟ مرادي ان أحدد مسلفاً نظركم إلى صدد واحد، وان اتكلم عن ذلك المطلع الذي يفتتح به الشاعر قصيدته وهو النسيب .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

... ...

كلكم يعرف تلك الأبيات الفاتحة من النسيب التي يصف بها الشاعر أطلال الدمن ورسومها ، متذكراً الحبيب ، كل يعرف هذا ؛ ولعل الشبيبة في هذه البلاد ملت هذا الشعر ، كما ملت الشبيبة عندنا شعر المدرسة القديمة . ومع ذلك ، أو على الأصح ، من اجل ذلك أريد ان اتكلم فيه .

إذن مامعنى هذا النسيب الغريب الذي نقرؤه في قصائد عديدة ؟ نسائل عنه عالماً كبيراً ، ونسمع ماقال ابن قتيبة في شاعر القصائد، يقول ابن قتيبة: « ثم وصل بالنسيب ، فشكا شدة الوجـد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق... ليميل نحوه القلوب ، ويصرف اليه الوجوه ، وليستدعي اليه إصغاء الأسماع ، لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب .. فاذا استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق ... ويصف مايريد أن يصفه » .

اذن هذا هو تفسير ابن قتيبة : النسيب من رأيه جزء القصيدة الذي يميل به الشاعر انتباه سامعيه . ما اغرب هذا التفسير !! هل هـذا الرأي قريب الاحتمال ؟! لا أظن .

وهذا على أساس تأمل بسيط : الشاعر عضو في المجتمع البدوي ، مشترك في حياة عرب الجزيرة وبيئتهم . ومن المفهوم أن كل مايسوقه من وصف الناقة ، والصحراء ، ومن فخر بالقبيلة ، وهجاء العدو جدير بجذب انتباه مجتمعه . فما الذي يلزمه الى طلب الاصغاء ؟ وما الذي يوجب عليه الايات الغريبة ؟ ألزام عليه أن يميل أهله بمقدمة لوصفه؟ مع أننا نعلم أن وصف البداوة يعجب اصحاب الحي؟

يظهر لي أن تفسير ذلك العالم القديم غير محتمل،

وانه بعيد عن الشعراء القدماء . وكيف لا ؟ فانه كرجل حضري يعيش في مجتمع متحضر بعيد عن البداوة غاية البعد . في هـذا المجتمع الحضري أنشد ابو نواس بتهكم الأبيات الشهيرة :

عاج الشقي عـلى رسم يسائله
وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد
لادر درك . قل لي : من بنو أسد
ومن تميم ، ومن قيس ولفهما ؟
... ...

هذا ماقاله أبو نواس متهكما في وقته البعيد عن البداوة . ولعل هذا المجتمع الحضري كان يتبرم لهذه البداوة ولا يحترمها ويمل أوصاف القبائل وحروبهم ، وهذا المجتمع لاريب ، فضل الإصغاء الى التشبيب على وصف الحياة البعيدة . ولكن المجتمع البدوي نفسه أما كان هو راغباً في وصف حياته ؟ ماثلا كل الميل الى قول الشاعر في كل ما يهمه في بيئته ؟ هـذا التأمل البسيط يدل ما يظهر لي ـ على أن ابن قتيبة مع علمه العظيم غلـط في تفسير اسباب النسيب . وأكرر السؤال عن هذا النسيب ماهو صميمه ؟.

ذلك هو الحب والصبابة ، والشوق الى الحبيب ، كثير من القصائد يثبت هذا الرأي ، فانه النمط المعتاد ، ولكن اذا ما قرأنا مثلاً المفضليات أو الدواوين الكبيرة نجد أن بعض القصائد تشذ على النمط ولا تتبع القاعدة المعتاده . أقرأ مثلاً بعض الابيات لعبيد بن الابرص :

أقفر من أهـله ملحوب
فالقطبيـات فالذنوب

وهو يذكر فيما يليه الأماكن القريبة على النمط الذي يذكر به كثير من الشعراء أسماء الاماكن.

هكذا يفتتح الشاعر قصيدته بنسيب . ولكن أيتذكر الحبيب ؟ أيشكو الصبابة ؟ كلا . يفتتح القصيدة بنسيب ، ولكن ما أشذ هـذا النسيب! فانه يقول :

ان بدلت أهلها وحوشاً ... وغيرت حالها الخطوب
ارض توارثها شعوب ... وكل من حلها محروب
إما قتيلاً وإما هالكاً ... والشيب شين لمن يشيب

أين التشبيب في هـذا النسيب ؟ ما أغرب موضوع هـذا النسيب . هو شاذ عن النمط . ويظهر أنه لا يشابه النسيب التابع للقاعدة المألوفة!

ولكن أهـذا المظهر الخارجي صحيح ؟ ألا نجد أي مشابهة بين النسيب العادي وهذا النسيب الشاذ ؟

أظن أننا نجد ذلك . طبعاً ان فرضنا ان موضوع النسيب هو مجرد التشبيب ـ كما رأينا ـ أي مشابهه . ولكن هذا هو السؤال . هل يصح ان يكون غرضاً تقليدياً ؟

كل ما أقوله في هذه الملاحظات تجربة أعرضها عليكم بتردد وبحذر ، وبكل حذر أقول :

ان النظرية التقليدية في النسيب ليست محتملة ، فانني أعتقد أن صميم النسيب العميق هو صدد واحد يتفق فيه النسيب الشاذ والنسيب العادي . ان لهما غرضاً واحداً ، ماهو ؟ في أي غرض نجد هذا الاتفاق ؟ ماهو الشبه بينهما ؟

أقدم لكم ما يظهر لي بعد ما درست الشعر الجاهلي دراسة متعلقة بالمسائل البارزة التي يسألها

الفلاسفة والادباء في أيامنا هذه (أعني الوجوديين) . وأعتقد أن موضوع النسيب الصميم هو الموضوع الذي حرك الانسان في كل زمان ، هو الموضوع الذي يرده عن وعيه . والذي ينساه الانسان من حين الى حين ، وهو الموضوع الذي يسترجع فيه انسان اليوم وزنه وأهميته . وهذا الموضوع هو اختبار الفضاء والفناء والتناهي .

أكرر الابيات السابقة الذكر

ان بدلت أهلها وحوشاً   وغيرت حالها الخطوب
أرض توارثها شعوب(١)   وكل من حلها محروب

هل هذه الابيات لشاعر قديم ؟ أم لاحد الشعراء الوجوديين في وقتنا هذا ؟ أما نعرف صوت هذه الصرخة في الشعر العصري حقيقة ؟ غرض تلك الابيات هو السؤال الذي يسأله الانسان اليوم والذي كان يسأله الانسان في سالف الزمان وهذا هو السؤال الدائم الذي يسأله الانسان مهما نسيه ورده عن وعيه ، السؤال في اختبار الفضاء والفناء والتناهي .

ولكن ان نسي المرء هذا السؤال ورده عن وعيه فإنه لا يستطيع ادراك موقف الانسان ويخطىء فهم كلام شعره ، وربما يضحك كما يضحك أبو نواس مما يقرأ في هذا الشعر ؛ أليس مايقوله الشاعر الجاهلي مضحكاً ؟ هذا البكاء المتوالي على أطلال لا قيمة لها ، هذا النواح الدائم على الحبيبة الظاعنة من سنين . هذا السيل من الدموع من أجل شيب الشعر ، أليس كل هـذا شيئاً يضحك منه حقاً ؟

ان نظرنا الى المعنى اللفظي وحده كان موضوعاً جديراً بالضحك منه ، ولكن هل هذا هو المعنى المقصود ؟ هل فهمنا شعور الشاعر ان ادركنا المعنى اللفظي وحده ؟

تتذكرون الالفاظ المكررة : عفت الديار ، درست الدمن ؛ امحت الرسوم ، والحياة تفنى تحت جبر الفضاء وظلم المنيـة ، الموت قريب ، تحت صروف الدهر العاتي ، ما أرهب الحياة . ان وجود الانسان تخيم عليه تجربة التناهي المحقق .

هل هذا هو تعبير عن التشاؤم ؟ وهل هذا التفسير صحيح ؟ قد يعارضني معارض مشيراً الى الفرح والهزل وكل مايصفه الشاعر من اللهو .

من الذي لا يعرف قول الشاعر :

وبيضة خدر لايرام خباؤهـا
تمتعت من لهو بهـا غير معجل

أتذكر تلك الابيات لامرىء القيس وما يليها ، واحفظ كثيرا مثلها في ملف اوراقي ، واعرف هذه الاوصاف لمشاهير اللهو والمزاح ، ولكن الاشارة الى هذه الاوصاف لاتقنع ، فان لهذه المشاهد الفرحة دائمـاً جانباً آخر عند الشعراء القدماء .

اسمعوا مثلا ماقال عمرو بن كلثوم في اباته المعروفة :

وكأس قـد شربت ببعلبك
واخرى من دمشق وقاصرينا

---

(١) شعوب : الموت

ان هـــذا البيت يصف جانباً واحداً فقط وهو يشير الى نصف الحقيقة فحسب ، وبهذا البيت مايتم الحقيقة فالشاعر يقول :

وإنا سوف تدركنـــا المنايا
مقـــدرة لنـــا ومقدرينـــا

هذا هو الجانب الآخر ، وهذا البيت الثاني يوضح الحقيقة التامة التي يشعر بها الشاعر ، ومن يقرأ أوصاف المشاهد الفرحة بتدقيق يدرك مايضايق الانسان ويقلق الشاعر اللطيف الحس من مخاوف الوجود من الذي ينكر ان كثيراً من الشعراء القدماء يتذكرون الايام السعيدة ، ويصفون ساعات اللهو والشرب والهزل والدعابة ولكنهم يتكلمون عن هذا كله بصرخة الالم . فانهم يشعرون أن الفرح انتهى ، أن اللهو مضى ، أن الشباب فني .

تصبو فأنى لك التصابي　　أنى وقد راعك المشيب
إن تك حالت وحول اهلها　　فلا بديء ولا عجيب
فكل ذي نعمة مخلوس　　وكل ذي امل مكذوب
وكل ذي إبل موروث　　وكل ذي سلب مسلوب
وكل ذي غيبة يؤوب　　وغائب الموت لا يؤوب

هـــذا ماقاله عبيد بن الابرص ، وكم من ابيات عديدة أستطيع أن استشهد بها في هذا الصدد ؟ ويقول يزيد بن الخذاف :

هل للفتى من بنات الدهر من واق
أم هل له من حام الموت من راق

فات الشباب وانتهى سرور ايامه ، وهـــذا الشعر الشائب هل هو شيء طفيف الاهتمام ؟ كلا . يقول المزيد :

افلا مرحب بالشيب من وفد زائر
متى يأت لاتحجب عليـــه المداخل

حتى الشعرة الشيباء تعلن الفضاء والفناء والتناهي . خوف الفناء والتناهي ، هذا هو موقف الانسان في تاريخه كله ، فانه يشعر دائماً بتهديد الفضاء وتوعد الفناء ، وهو ينظر الى الموت اليقين ، ورغماً عن ذلك يختلف موقفه باختلاف الشروط التاريخية ، فمن الممكن أن تكون حياة الناس في الحضارة القديمة ، حياة مطمئنة يخفف اطمئنانها من الخوف المتطرف . ذلك ان إنسان ذلك الوقت إن كان يخاف من الموت الفردي ، فانه كان يرى بأمل يقين نمو الحياة الساكنة ، كما كانت عند اجداده منذ اجيال ولكن يحدث احياناً في تاريخ الانسان أن أساس الحضارة الموثوق به يتداعى ، وأن الايمان بما يضمن الامل اليقين يضيع ؟ وكان عصر ماقبل الاسلام – كما اظن – وقتاً من هذه الاوقات عند العرب . اختبار الفضاء والفناء والتناهي ، هذا ما كان يشعر به شعراء العرب ، وهذا الشعور معبر عنه في نسيب قصائدهم . ولكن بعد ذلك في القرون التالية ، حينما خفف الايمان الجديد من خوف الانسان اصبح الناس لا يدركون ماحرك القدماء وضايقهم ، وبعث فيهم الخوف ، وصاروا يفهمون مجرد المعنى اللفظي ، ويدرسون الالفاظ واللغة والاوزان والقوافي ، ويسمعون خصوصاً التشبيب الفتان ، وربما يسخر احدهم مما يقرأ في القصائد القديمة من الشكوى المتوالية ، وسيل الدموع الدائمة ، والهيجان الباطل من اجل شعرة شيباء ، كما قال ابو نواس :

عاج الشقي على رسم يسائله
وعجت أسأل عن خمارة البلد

ولكن الشاعر القديم لماذا يبكي على الحبيب ؟ على المنزل ؟

أن المرقش الأصغر الشاعر القديم ، يعرف الحقيقة وهو يقولها في بيت واحد :

تبكي على الدهر والدهر الذي أبكاك

هل هذا كله تعبير عن التشاؤم ؟ أكرر هذا السؤال الذي قد سمعته مرة بعد مرة ، فان كثيراً من الناس عندنا في المانيا يفزعون مما يقرأون في الادب الوجودي العصري من اختبار القضاء والفناء والتناهي وينتقدون شعراء عصرنا ويتهمونهم بالتشاؤم . ولكن هذا الاتهام اتهام باطل . والعكس هو الصحيح فان هذا هو موقف الانسان طالما تغافل عن فناء الوجود ، وطالما أنكر تناهي كونه فأزعجه ، فان الخوف الكامن يظل يزعجه وهو حبيس خوفه الكامن محروم من النشاط والعزم .

واما الانسان الذي ينظر الى حدود وجوده نظرة جريئة فانه يكتسب الجرأة التي تتغلب على الموانع المفزعة في وجوده . وهذا هو المعنى المضمون في الكلمتين الصغيرتين اللتين يختم بهما الشاعر نسيبه مرة بعد مرة إنكم تتذكرون هاتين الكلمتين وهو يقول : « دع هذا » . فامعنى فعل الأمر هذا الذي يوجهه الى نفسه ؟ بينما يقول الشاعر الكلمتين الصغيرتين يعود الى حياته المعتادة ، هل يعود الى ما كان من قبل ؟ لا . هو رجل مجدد فانه بعد ما نظر الى تهديد الوجود بجرأة أكيدة ، اكتسب نشاطاً جديداً وعزماً قوياً ؛ لقد سبق أن أشرت الى عزوف الشباب في بلادنا عن الادب الالماني القديم وربما كانت هذه الظاهرة أيضاً موجودة لديكم ، ولكن أردت أن أبين أن في شعركم القديم مسائل شبيهة بتلك التي تثيرها الفلسفة الوجودية اليوم .

« دع هذا » ، في هاتين الكلمتين الصغيرتين فلسفة عظيمة الشأن .

إن العزم على الحياة والعمل ليس ممكناً الا إن أدرك الانسان أن وجوده محدود ومتناه . وأن كل امكانات العمل تقع في هذه الحدود ، وان الانسان ملزم بتحقيق هذه الامكانات . هذا هو ما أراه في أبيات القدماء ، ولذلك أعتقد أن هذا الشعر المهدد بالنسيان شاهد حي على ما يحرك تاريخ الانسان .

هذه الملاحظات — كانت — تجربة أجريها بكل حذر ، فان لم تبد لكم هذه النظرية صحيحة فتقبلوها علامة على ميلي بل على محبتي لهذا الموضوع المثير أعني الشعر الجاهلي .

كل شيء ينتهي في وجودنا المتناهي ، وهكذا أنهي هذه المحاضرة ويبقى لي الشكر على صبركم وحسن استماعكم .

أعداد قلم التحرير

المعارف - بيروت
آفاق - المغرب
طبيبك - دمشق

المعارف - بيروت

تحت عنوان « عمق الكائن البشري في السريالية والوجودية » كتب الأديب العراقي جميل كاظم المناف ، مقالا في عدد ايار الماضي من مجلة «المعارف» اللبنانية قال فيه : نشأت السريالية والوجودية والدادية منذ أمد طويل ولكن المرحلة الراهنة التي ظهر فيها اندره برتون وكامو والبيريرو وجان بول سارتر جعلت لهذه الحركات تأثيراً عميقا في الانسان الحديث ، فلكي يفلت الفرد من واقع حياته ولكي يفلت من حدود العالم ، عليه ان يعي بشكل واضح ، الموقف الفاجع الذي يعيشه في « محتوى الجنائن الاصطناعية » هكذا وبدون مقدمات هتفت الوجودية بوجه المطلق الواقعي . اما السريالية فقد حاولت انتزاع الانسان من نفسه لتريه قبح واقعه السيء وتريه عالم المحسوسات في ما تحت الواقع اما الدادية التي تؤكد فردية الانسان وتقذف فيه بصوفية منبجسة من الانتفاضة الذاتية فهي نتيجة الحالة الروحية للكائنات اليائسة من جراء انجراف العالم في الحشرية والجماعية تلك الكائنات التي لا تؤمن بشيء ثابت ودائم ، وقد ابتدع تريستان تزارا فيلسوف الدادية Dadaisme هذه الفلسفة التي اثارت حماسة الناس الذين يكرهون الحروب ، وجعلتهم يحسون احساسا عميقا ثقيلا بالقلق والضياع والاختلال من جراء حركاتهم من أجل صيغة مطلقة جديدة يستطيعون بها بلوغ العيش بسلام » . ان الداديين يريدون ان يفضحوا المعتقد ويخرجونه من سباته « سوف يلحون على ماهنالك من غريب وشاذ ومختل ومفاجيء، لكي لا يعودوا الى التردي في هاوية العادات التي أصبحت طبيعية على أثر تقليد طويل . ولكي لايتركوا صفات الخير والنبل والسمو تستعيد وبر البهيمية » وهذه الحركة بطبيعتها تنفلت من الجمالية لتقع في البشع والمشوه والمقرف . . لان هؤلاء المتمردين كانوا اكثر ما يشعرون بأباطيل الاشياء

الارضية » ولكي ينسجموا فانهم يسعون قبل كل شيء الى ان يدوسوا بالاقدام تلــك الحتميات التقليديــة لأي أمر مهما كان . والداديون دائما في الحاضر فهم يكرهون الماضي . والواقع الذي يجبرهم على الانصياع والاختيار والاختصاص، انهم ينفذون الى اعماق النفس التي هي سلم التفكير والارادة بدون استعمال القيم التي يجب ان تلغى. فالقيم هي ضوابط الروح واذا بقيت فان حالة « الارتجاج الاصلي » لاتحدث(١) وبيانات الداديين المدوية وشتائمهم المستمرة للجميع تشير الى ارادتهم في تخطي المداجاة والمواربة التي تشد الانسان مشدوداً الى اغلال التقاليد والاعراف .. وهذا المصير المبتذل الذي تدعو اليه الدادية يقود الفرد الى غياهب ومهاوي الداخل العابث الذي يضيع فيه . ان الانسان يتجنب هذا المصير الذي يجعل وجوده معلقاً بشروطية عازلة تجرد الدنيا من المقاييس والقيم ، وقد ماتت الدادية بموت الروح التشاؤمية التي خلقتها وتلاشت بتلاشي غائيلها في نهر الـبن سنة ١٩٢١ وانضم لويس اراغون وبول اليورا وروبير دسنوس وما كس ارنست وما كس موريز . الخ . اقطاب الدادية الى حركة السريالية هي نزيهة ومجردة في جوهرها «اندره بريتون في الحقول المغناطيسية ـ وفي سنة ١٩٢٤ نشر البيان السريالي وظهر العدد الاول من صحيفة « الثورة السريالية » وفي باريس سنة ١٩٢٩ ظهر البيان السريالي الثاني وظهرت مجلة « اللعب الكبير » وامتدت الحركة وانتشرت بعد التمهيدات لبيان سريالي ثالث في نيويورك سنة ١٩٢٤ . وفي امريكا كما في فرنسا انتشرت السريالية . وهكذا سار المجرى الروحي الذي احتفظ بديناميته في الشعر والفن والرسم والنحت والادب » ان الشخص السريالي يتوق الى اللانهاية وقبل تخطيط طريقه الجديد يجب ان يبدأ التخريب فحماقات الدنيا التي تنتشر في الحياة لايمكن التحرر منها الا بضحكة تهكمية تخلص الانسان من العوائق والمضايقات الاجتماعية ـ هكذا يسقط السريالي في مهاوي اللاوعي ـ ايف دوبلسيس في كتابه السريالـــة .

آفاق ـ المغرب

تحت عنوان « ملامح الادب العربي الحديث في المغرب » كتب الاستاذ عبد الكريم غلاب مقالا عالج فيه هذه الناحية معالجة دقيقة ومما جاء فيه قوله « اذا كانت نهضة الادب العربي بالمغرب جاءت متأخرة عن نهضته في بلاد المشرق عامة ، فانما ذلك للظروف السياسية والحضارية التي عاشها المغرب في اواخر القرن الماضي واوائل هـذا القرن .. فقد عاشت بلادنا حياة عزلة فرضتها ظروف سياسية عالمية ومحلية كان المغرب فيها يعتز بحريته وباقليمه ، وكان مشفقاً اشد الاشفاق على هذه الحرية من ان ينال منها توسع الامبراطوريات الشرقيــة او الغربية ، وكان في الاعتداءات

(١) هذه هي اقوال جاك ريغو وبنجيان بيره من اقطاب الدادية .

الانجليزية والبرتغالية والاسبانية على شواطئه ، وفي توسع النفوذ التركي حتى حدوده الشرقية في القرون المتأخرة مايذكي فيه الحفاظ على كيانه والعمل على صيانة حريته ولو على حساب التحرر من العزلة والانكماش .

ولهذا لم تتصل نهضته الادبية اتصالا وثيقا بنهضة الادب في مصر او الشام ، ولم تساير التطور الذي بدأ في منتصف القرن الماضي في البلاد العربية بالمشرق .

وكان للانعزال أثر آخر في عدم الاستفادة من التطور الحضاري ومن الطباعة بخاصة ، فان المغرب وان عرف الطباعة على شكلها البدائي الحجري الذي كان لها الفضل في المحافظة على تراث مهم علمي وثقافي لتجعل منه سوقاً فكرية رائجة في المغرب كما فعلت في الشرق منذ ان ادخلها نابليون الى مصر .

ولعلني لست في حاجة ان اقول ان التخلف الثقافي وتخلف اساليب التعليم كان له الاثر الاول في تأخر النهضة الادبية في بلادنا ، فأساليب التعليم والمثل الاعلى للمتعلمين ، ومفهوم العلم كما كان في عهد المتعلمين في القرن الماضي واوائل هذا القرن ، كان يجعل من الادب ترفا لايصح ان يتعاطاه الجدون في ثقافتهم والمتطلعون الى ان يكونوا « علماء » يحمون الدين ويضطلعون بأمر الشريعة . ولذلك كان الاديب الذي تتفتح مواهبه يجد في البيئة العلمية والثقافية مايدفع به الى ان يقاوم هذه المواهب اويستغلها في خفية حتى لايتهم في علمه اويرجع به ادبه عن مقامه في العلم والمجتمع

تلك عوامل اخرت في نهضة الادب . ولكنه حينما بدأ ينهض وجد كثيراً من الوسائل التي جعلت تطوره سريعاً ، وجعلت تعثره اقل خسارة اوهو تعثر لم يعد به الى الوراء خطوات .

من ذلك ان اللغة العربية في المغرب ظلت سليمة على الاقل في جوهرها ، فلم تدخلها عجمة اللفظ ، ولم تحط من قيمتها ركاكة الاسلوب ، وانما ظلت — على تخلف في التعليم وانصراف عن الادب — سليمة نقية كأحسن مايكون النقاء في ظروفها وبيئتها وحياتها وما يتيحه التعليم من غناء اوضاعة .

ومن ذلك ان الادب حينمابدأ ينهض فيالمغرب كانت هناك سوابق من نهضته في المشرق تغذي النهضة الثقافية في المغرب بنماذج من الادب العربي القديم : دواوين الشعراء ومحاضرات الادباء ودراسات وتاريخ الادب العربي ونماذج من شعر الفحول ونثر الممتازين ممن كشفتهم المطبعة لفكر الناشئين والادباء والمتأدبين .

وكذلك لم ينصرف المتعاطون للادب الى البحث والكشف ، ولكنهم انصرفوا فقط الى القراءة الميسرة السهلة في كتب ومجلات مطبوعة طبعاً أنيقاً نظيفاً .

وهكذا بدأ الادب المغربي يأخذ طريقه نحو النور في ظروف ميسرةأو اقل صعوبة علىالاقل مما واجهت الادباء في المشرق ومما صرفواجهوداً واعمارا لتذليلها والانتصار على عقباتها .

طبيك - دمشق

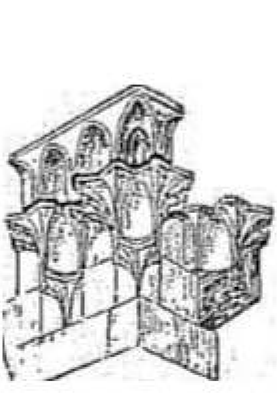
افتتح الدكتور صبري القباني عدد أيار الماضي

من مجلة « طبيبك » ابحاث المجلة بحديث تحت عنوان « شيخوخة النفس وشيخوخة الجسد » ومما جاء في هذا الحديث قوله : لقد كان اجدادنا وحدهم يشعرون بوطأة السنين ، ذلك لان الحياة الرتيبة التي كانوا يحيونها ، وضيق المدى الذي يتحركون فيه وتوالي ايامهم بنفس الفراغ والرتابة والاسترخاء اسباب تستدعي الشعور بوطأة السنين ووقر الايام ، وتواليها بين ربيع العمر وصيفه وشتائه .

اما ابناء اليوم فان حياتهم اصبحت جد مختلفة عن حياة السلف ، لقد غنيت بالواجبات والمتع ، واضحى الفرد جزءاً من هذا الكل العظيم الذي يتألف منه شعبه ، بل الذي تتألف منه الانسانية جمعاء . فلا غنى له عن الادراك بين الجماعة والاسهام بنصيبه من نشاط الجماعة ، وتقبل ما يأتيها من خير ودفع ما ينزل بها من شر . ذلك هو الشباب ، وقد تعرف الطفولة بانها استمتاع بالحاضر ، والشباب آمال عذاب في المستقبل ، والشيخوخة اجترار للماضي .

وختم الدكتور قباني حديثه قائلا : اقف احيانا مدهوشاً مما حفل يومي به من عمل كثير متعدد ، ثم لا البث أن ادرك السر في استمرار نشاطي وتوافره . وعندما انزوي في غرفتي لأحلق في سماء العلم والادب ، واطل بعيني على دنيا الكتب والنشرات أو عندما اقوم برحلة مع عائلتي واولادي فنتمع بالتحليق في سماء المستقبل ، ولكننا لا نفكر ابداً — كالكبار — في الماضي ولا نحاول اجترار دقائقه ومآسيه .

ولعل تعدد اهدافي التي اسعى الى تحقيقها وراحة الضمير التي انعم بها والطفولة التي احيا بها في جنتي الصغيرة — داري — من اقوى اسباب هذا الشباب الذي اعتز به ، ولا انوي ان اتزحزح عنه .



فنون

الجمهورية العربية السورية

يقدمها : حسن كمال

المتحف الوطني بدمشق

معرض الفنون التطبيقية للاتحاد السوفيتي

افتتح في التاسع والعشرين من نيسان الماضي معرض الفنون التطبيقية السوفيتية تحت رعاية وزير الثقافة والارشاد القومي ويعتبر المعرض التطبيقي هذا نتيجة من نتائج الاتفاقية الثقافية المعقودة بين الجمهورية العربية السورية والاتحاد السوفيتي والتي نصت بنودها على التبادل الثقافي والفني بين البلدين تلك الاتفاقية التي حملت الى



« الحي ديفه » ـ بلدة تالان خزف

الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٧ معرضاً سوريا يمثل الفنون التطبيقية والتشكيلية السورية وها نحن اليوم نستقبل معرضا للفنون التطبيقية السوفييتية في دمشق ويمكن للمشاهد أن يميز في هذا المعرض العديد من الفنون التطبيقية غير أن أبرزها هو الزجاج والخزف والسجاد والمنسوجات وقد ساهم في سائر هذه الاعمال الفنية اثنتي عشر جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتي منها : اوكرانيا، ليتوانيا، تركمانيا، أوزبكستان، أرمينيا ...

في ميدان الزجاج يعتبر الفنان سمير نوف احد اكابر اساتذة هذا الفرع والمبدع الاول فيه وقد لوحظت في القطع التي ابتكر اشكالها وزخرفتها محاولاته الجريئة لخلق اشكال جديدة، وابداع تزيينات مليئة بالحيوية والرشاقة وما زال يبذل قصارى جهده لايجاد طرق جديدة تجعل صناعة الزجاج الحلوة الغالية الثمن في متناول عامة الشعب . وقد نجحت محاولاته هذه كل النجاح .

أما القطع المعروضة فهي على نوعين قطع تعود للمتاحف ولا يمكن العثور عليها في الاسواق العامة وقطع اخرى تمثل الصناعات المعروضة للبيع في المخازن وكلاهما ذو اشكال حلوة وتزيينات رائعة وتنمان عن اتقان في الصنعة واسرارها فالالوان الحلوة التي اسبغها الفنانون عليها هي نتيجة لتجارب طويلة مع اوكسيدات المعادن، واما الاشكال فهي نتيجة ايجابية لاحتكاك آراء الفنانين التشكيليين والتطبيقيين .

أما الخزف فقد اشتهرت به جمهوريات الاتحاد السوفييتي عامة وجمهوريات البالطيك بصورة خاصة والمتأمل فيما عرض منه في معرضنا هذا يراه وقد تحلى بالجرأة في الاشكال والزخرفة التي بلغت حداً عاليا من التقدم والتي ان دلت على شيء فانما تدل على أن الفنان اخذ ينطلق من قيوده التقليدية التي كانت كثيراً ماتحد من عبقريته ومهارته وبدأ يتمتع بحرية التصرف وفق ميوله واهوائه ولم يعد من العدل القول أن الفنان السوفييتي محافظ لايقبل الجديد ولا كلاسيكي لايقبل التطور، فقد دحض هذا المعرض تلك الافكار القديمة التي كان



ليدا ايورجيان — كريستال — نغم

الفنان السوفييتي يشعر وكأنه شد اليها برباط وثيق في العديد من القطع المعروضة زخارف يصح أن نصفها بالتجريدية وخاصة الاواني الكبيرة ذات الاشكال الرشيقة والاهداف التزيينية .

وفي هذا الحقل أيضا نشعر بالجهود الطيبة التي يبذلها الفنانون والصناع لجعل منتجات هذه



براتريشكا تشيكانا توسكاي تي
حديقة فينوس — خزف

الفنون بين ايدي متوسطي الدخل دون ان تبقى مقتصرة على تزيين قاعات المتاحف . وفي داكستان تكاد تكون صناعة الخزف الحديث محصورة بالنساء اللائي أبدين فيها براعة فائقة وذوق سليم .

والحقيقة التي لامراء فيها ان هذه الصناعة الفنية أخذت تشق طريقها الى البيوت الخاصة كتزيينات وزخارف . وبينما نرى جمهوريات البالطيك تهتم بالخزف بصورة خاصة نرى جمهوريتي تركمانيا وأوكرانيا وقد اشتهرتا منذ قديم الزمان بصناعة السجاد والبسط الحلوة التي زود معرضنا بعدد منها والتي نرى بين سداها ولحمتها العناصر الزخرفية المحلية . ومن الجدير بالذكر ان هذه الصناعة التقليدية في اساسها اخذت تنطلق من تقاليدها القديمة نحو الاساليب التزيينية الحديثة وحتى ليمكن القول ان الفن التجريدي بمعناه التزييني قد طبق بصورة واسعة على هذه الصناعة وأبدى فيها الفنان السوفييتي مهارة كبيرة والخلاصة فان المعرض المذكور كان بمثابة مخطط فني كبير أبان الخطوط الرئيسية لحركة الفنون التطبيقية في الاتحاد السوفييتي .

صالة الفن الحديث العالمي

معرض الفنان خلدون الحكيم

أقيم تحت رعاية وزارة الثقافة والارشاد القومي في اوائل الشهر الماضي معرض الفنان الناشيء خلدون الحكيم وقد تضمن المعرض اثنتين وأربعين لوحة مثل فيها الفنان الطبيعة وصور الاشخاص غير ان حبه للطبيعة وانسجامه معها كان أعمق بكثير منها بالنسبة لصور الاشخاص ومن لوحاته عن الطبيعة « منظر في الزبداني » و « من ضواحي دمشق » و « الربيع في الغوطة » وغيرها كثير .

وفي لوحاته هذه تجلت شفافية ألوانه وهدوئها التي تعتبر احدى مميزات الفنان وتمتاز لوحاته المرسومة بالسكين عن غيرها باجادة الاداء مما يوحي بقدرته على انتاج فني خير ، في هذا السبيل في المستقبل القريب .

أما صور الاشخاص التي رسمها الفنان فتحتاج الى دراسة اعمق اذ ان هذا النوع من الاعمال الفنية يحتاج الى دراسة علم التشريح دراسة وافية لمعرفة وظائف الاعضاء والعضلات مما يساعد على تماسك بناء اللوحة تماسكا قويا .

ولو تأملنا اللوحات المعروضة مليا لالفينا فيها



خيمة عند الغروب ـ الفنان خلدون الحكيم

نوعا من السعي وراء ايجاد اسلوب معين وليس هذا بغريب اذا علمنا ان لوحات هذا المعرض هي باكورة أعماله الجدية فهو مازال يتلمس طريقه محاولا ايجاد اسلوب خاص به .

الولايات المتحدة الاميركية

ولاية ماساتشوستس

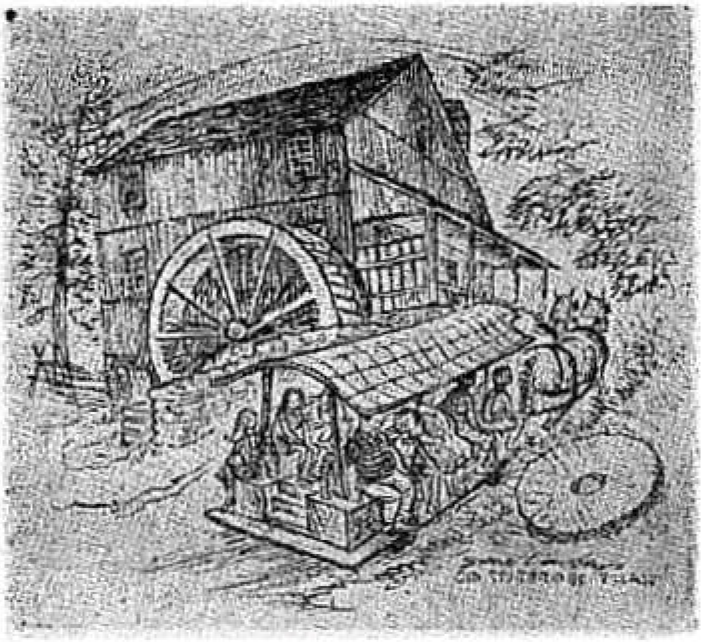
متحف حي لحياة اميركا في القرن الثامن عشر

يبـــدو أن عملية الزمن قد توقفت في قرية اولد ستربريج بولاية ماساتشوستس فليست فيها شوارع جديدة ولا سيارات ولا أية وسيلة من وسائل العصر الحديث .

وتتألف هذه القرية من خمسة وثلاثين مبنى نقلت من اماكنها الاصلية من بعض الولايات وأعيد بناؤها من جديد لاستحداث قرية على الصورة التي كانت عليها حوالي ١٧٩٠ ـ ١٨٤٠ غير أن أقدم مباني القرية يعود لعام ١٧٠٤ وهو بيت قديم من الخشب الغير مطلي من الخارج وفي زاوية اخرى من القرية المتحفية يجد الزائر احد بيوت المزارع قائماً في مزرعة تسير بها المياه على نمط الايام الماضية .

وفي زاوية اخرى ترى بيتاً آخر يطلق عليه اسم بيت الاجتماعات الذي كان يعقد فيه القرويون اجتماعاتهم للتداول في مشروعات قوانينهم المحلية وعلى مقربة منه يرى الزائر مطعما تعد فيه اصناف الطعام على الطريقة الاميركية القديمة .

تعتمد القرية في تأمين نفقات ادارتها على حصيلة



احدى زوايا متحف القرية

الرسوم التي تفرض على زائريها وليست امريكا هي الاولى والوحيدة في العالم التي تهتم بمثل هذه المتاحف فقد سبقتها الى هذه الفكرة الدول السكاندينافية وخاصة النروج في متحف القرية القائم بالقرب من العاصمة اوسلو والذي يعتبر اكثر حيوية وواقعية لأن في كل بيت من بيوته يعيش سكانه على الطريقة القديمة من حيث ملابسهم واثاث دورهم وكذلك متحف القرية في رومانيا بالقرب من العاصمة بوخارست وهكذا فان هذا النوع من المتاحف هو من انجع الوسائل للحفاظ على تقاليد الحياة الريفية التي اخذت تضيع تدريجياً تحت وطأة المدنية الحديثة .

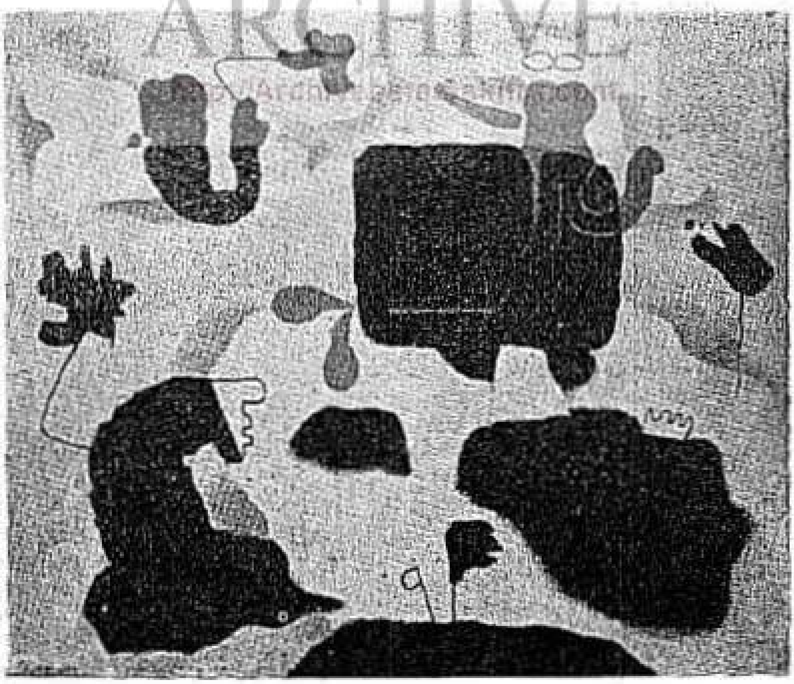
ايطاليا

روما

معرض الفنان الالماني فيللي بومايستر

اقيم في اواخر الشهر الماضي معرض فني كبير في قاعة « لاميدوزا » في روما وقد ضم المعرض عشرات اللوحات التي اتسمت بالقوة والدراسة العميقة للفنان فيللي بومايستر غير انها لاتمثل كافة انتاج الفنان الذي استهل اعماله الفنية منذ عام ١٩٠٥ وانما تتناول حقبة معينة محصورة بين ١٩٢٢ — ١٩٥٥ وهي التي يعتبرها مؤرخو الفن العصر الذهبي للفنان .

ولو تأملنا اعمال الفنان خلال هذه الفترة لوجدنا انها ذات اساليب مختلفة كان آخرها الاسلوب التجريدي الذي ركز الفنان جل اهتمامه به ويبدو ان هذه المرحلة كانت المرحلة الاخيرة في انتاجه والتي تجلت فيها عبقريته فهو في انتاجه لعام ١٩٣٤ كان فنانا سورياليا غير ان اشكاله تكاد تكون خالية من الخطوط المستقيمة وانما يلاحظ في خطوطها نوع من الانسانية التي كثيرا ماتنبىء عن الفكرة المراد التعبير عنها . اما انتاجه في الاعوام القليلة التي سبقت موته فقد كان انتاجا بدت فيه النزعة التجريدية بأجمل مظاهرها من حيث الحركة الثائرة المتناغمة ومن حيث الالوان الحية المتنافرة تارة والمنسجمة تارة اخرى غير ان تنافرها يخلق فيها نوعا من التضاد المحبب الذي يبرز جوانب رائعة من لوحاته ولقد حقق المعرض في عاصمة الفن انتصاراً ساحقاً بآلاف الزوار الذين أموا المعرض وأبدوا عميق اعجابهم ، وكانت هذه الصالة قد حفلت قبل هذا المعرض بمعرض هام وصلتنا انباؤه متأخرة انه معرض الفنان (آلان دافي) الذي طغت فيه المسحة التجريدية بأوسع مفهومها ، وقد احدث ضجة كبرى في الأوساط الفنية الايطالية وخصته الصحافة الايطالية بالعديد من مقالاتها .



لوحة للفنان فيللي بومايستر

اسبانيا

مدريد :

افتتح مؤخراً معرض فني كبير في مدريد في قصر فيلا سكيز وقد ضم المعرض قرابة اربعمائة لوحة وقطعة نحتية وحفر .

وقد تجلت في المعرض المذكور آخر التطورات الفنية التي دخلت اليها الفنون التشكيلية في اسبانيا وقد ساهم في تقديم انتاجه بهذه التظاهرة الفنية قرابة مائتي فنان ينتمون الى اربعين اقليما اسبانياً وبذلك وقف الجمهور الاسباني على آخر تطورات الحركة الفنية الوطنية .

ومن برشلونة

وفي برشلونة قام الفنانون بالتبرع بالعديد من لوحاتهم لبيعها بالمزاد العلني وتقديم اثمانها للمصابين بحوادث الفيضانات التي اجتاحت اسبانيا هذا العام وقد عرف من بين المساهمين في هذه الحركة الانسانية الفنان العظيم بيكاسو .

منظمة اليونسكو

روائع الأعمال الفنية بمتناول الجميع

ذلك هو عنوان السلسلة القيمة من كتب الجيب التي اعدتها منظمة اليونسكو بالاتفاق مع عدد من الناشرين في الدول الآتية ـ فرانسا ـ ألمانيا الاتحادية ـ ايطاليا ـ المكسيك ـ هولندا ـ اسبانيا . بريطانيا ـ الولايات المتحدة الاميركية ويتضمن كل كتيب ٢٨ صور ملونة مع لمحة تاريخية وافية عن حياة الفنانين موضوع بحثها وتعليقات شيقة عن كل صورة مع ذكر المدرسة التي تنتمي اليها والأسلوب الفني الذي سلكه الفنان بالاضافة الى بعض الصور الأخرى الغير ملونة التي تتضافر مع الملونة على اعطاء القارىء فكرة واضحة عن الفنان وعصره ... تستهدف هذه المجموعة نشر الثقافة الفنية بين سواد شعوب العالم بعد أن ظلت حتى عهد غير بعيد معروفة لدى عدد قليل من الناس وهم العاملون في الميدان الفني ، ولتسهيل نشر هذه السلسلة والافادة منها فقد اعدت هذه الكتب لست لغات حية هي الافرنسية والانكليزية والالمانية والبرتغالية والايطالية والاسبانية .

الاتحاد السوفييتي

سمرقند

مخطوط مصحف عثمان

تضاربت الروايات حول وصول هذا المصحف الى سمرقند ، فمن قائل أنه وصل اليها عقب حملة مظفرة قام بها تيمورلنك وجلب منها في جملة ماجلب هذا المصحف ووضعه في مكتبته الخاصة.

بينما تقول رواية اخرى ان المخطوط قد حمله الى سمرقند ولي الله حاج احرار القسطنطيني الذي

حصل عليه كهدية لقاء شفائه احد الخلفاء وعندما غزت قوات القيصر الروسي تركستان كان مصحف عثمان موجوداً في سمرقند في مكتبة هذا الولي وفي عام ١٨٦٩ ارسل هذا المخطوط الى بطرسبرغ (لينغراد اليوم) .

وقد ظل المصحف اكثر من نصف قرن في بطرسبرغ الى ان كانت الثورة الاشتراكية حين طلب مسلمو روسيا من لينين ان يعيده اليهم ففعل . وكان لفعل السنين الطويلة اثره في هذه التحفة النادرة اذ بليت بعض صفحاته فوضع في متحف تاريخ شعوب اوزبكستان لدى اكاديمية العلوم الاوزبكية حيث يحتفظ به ويصان في صندوق حديدي يدور بابه الفولاذي الضخم بهدوء لتظهر وراءه علبة من الخشب المتين واناء زجاجيا مليئا بالكافور .

ويقول مظفر جالون الموظف المسؤول عنه والمكلف بالسهر عليه ان الكافور يحفظ المخطوطات من الحشرات الضارة به .

وبداخل العلبة الخشبية مصنف من الجلد مغشى بالمخمل يحمل بين دفتيه المصحف القديم .

غير أن تقادم العهد بالمخطوط افقده العديد من اجزائه فلم يبق من اصل ٣٥٣ صفحة الا خمسة عشر صفحة بحالة جيدة أما البقية الباقية فهي مرممة والاوراق المحفوظة هي من الرق السميك الجميلة وفي كل صفحة من صفحات هذا المخطوط اثنا عشر سطرا اما الكتابة فهي جميلة وكبيرة والاحرف متناسبة أما مقاييس الصفحات فهي ٦٤ X ٥٣ سم .

والى الآن مازالت تدابير الوقاية تتخذ للحفاظ عليه من التلف ، وفي المتحف حيث يحفظ المخطوط صور فوتوغرافية لكل صفحة من صفحاته .

باريس

معرض الكتاب المدرسي

كان لمعرض الكتاب الذي اقيم في باريس في الاسابيع القليلة الماضية أثر بعيد في اعطاء الشاهدين صورة واضحة عن طرق التعليم في العديد من الدول التي تسير في طريق التطور السريع وخاصة منها البلاد الافريقية وقد ضم المعرض ما يقرب من اربعة الاف كتاب تعود الى خمس وعشرين دولة وتناولت شتى مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والعالي ثم الثقافة العامة .

ومن الطريف أن يطلع الشاهد على الطرق التي يعلم فيها الهنود وسكان ساحل العاج مثلا ابناءهم تاريخ بلادهم والطرق التي اتبعت في نشر كتبهم وتزويدها بالصور القريبة الى اذهان اطفالهم وخاصة في ميدان التاريخ الطبيعي .

وقد كشف المعرض المذكور عن المناهج التربوية التي اتبعت في العديد من تلك البلاد .

رافق المعرض بعض المناقشات العلمية التي جرت بين اكابر المربين العالميين ومربي تلك البلاد وكان لتلك المناقشات العلمية فائدة كبرى لما انبثق عنها من الافكار الخيرة التي اوصى المناقشون بضرورة ادخالها كتعديلات على مناهجهم التربوية الوطنية.

امارة موناكو

اوصت اللجنة الوطنية لمجلس المتاحف الدولي في موناكو باقامة معرض فني كبير في الامارة وقد تحققت التوصية واقيم المعرض تحت رعاية أمير الامارة وضم انتاج سبعماية فنان بين مثال ورسام ينضوون تحت لواء ست وثلاثين دولة من اسرة منظمة اليونسكو .

والحقيقة فقد كان المعرض بمثابة سوق فنية عالمية زاره عدد غفير ليس من امارة موناكو وفرنسا فحسب بل ومن عدد كبير من الدول الأعضاء في منظمة اليونسكو وقد طبع دليل كبير اعتبر بمثابة سفر ضخم ضم لمحة تاريخية عن الحركات الفنية المعاصرة وعن حياة الفنانين المساهمين وكان لهذا المعرض صداه في المحافل الفنية العالمية لما أولته الصحافة العالمية من كبير الاهتمام .

وقع بعض الأخطاء في مقال الدكتور عزة الطباع «الدخيلي» المنشور في هذا العدد ، وقد أوردنا فيما يلي هذه الأخطاء وتصويبها :

ص	سطر	خطأ	صواب
٢١	٣	فعول	مفعول
٢١	١٧	الناجمة	الناجحة
٢٦	٥	Hyper	Hypo
٣٠	١٢	في	فأن
٣٠	١٨	الثاني	الثامن
٣٤	١٥	ستتلك	ستمتلك

افريقيا الجديدة ؟



حافية القدمين ، ولكنها كاسية الرأس

في الطريق الى المدرسة

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

يقدمها فؤاد الشايب

عودة الى الوحدة الأوروبية مع المثقفين الفرنسيين — القارة التي تشرق وحدتها مع غروب الاستعمار — القارة التي تصنع وحدتها صنعاً علمياً بارداً ، وهي تفتش عن بعض مواد كيمائية من التاريخ — القارة التي يطمح مثقفوها اليوم ، الى اعطائنا دروساً جديدة في كيف تصنع الوحدة من ارادة البقاء والتفوق وحدها .

نحن والظمأ

ليس موضوع هذه الجولة بجديد على قارىء المعرفة ، بل قد اصبح بين الموضوعات الرئيسية التي مرت بها الجولة تكراراً ، ولعل التاريخ موشك ان يصنفه بين أضخم احداث التاريخ الانساني في النصف الثاني من القرن العشرين ولعل المثقف العربي بأمس الحاجة الى أن يطلع على مراحل التجربة الأوروبية في طريقها الطموح الى الوحدة ، ليتعلم هذا العربي ، كيف يفجر الأوروبي ينبوعه من الجلمود ، وكيف يناخ هو على الأرض عاجزاً يقتله الظمأ ، والماء محمول على ظهره.

المشهد الأوروبي

شعوب مختلفة ، غرست جراقهـا في التربة التي عرفت من بعد باسم اوروبة ، موجات متعاقبة من فوضى الحروب والغزوات ، والهجرات فانغرست بلغات وعادات وعقائد متباينة متباعدة متنازعة ابداً ، ما إن تكونت في حدود اقاليمهـا المعروفة باسمائهـا ، منذ القرن السادس عشر اومن قبل ، حتى تهافت بعضهـا على بعض ، بالحروب والغزوات ، من أجل الارض ، ومن أجل الدين ، ومن اجل العزة والسلطان ، وضربت بها الأمثال في وحشية النزاع والقتل والتدمير ، ثم اذا ما استقر لها السلطان بالعلم والمعرفة ودخلت معاً ، وهي تتناحر بلا توقف ، عصر الغزوات الاستعمارية والصناعة الثقيلة ، وجدت نفسها من جديد في معارك ذئاب ضارية ، تثير الحروب على نطاقات واسعة ، والدمار على مسافات تتعدى حدودها الصغيرة الى البحار الكبرى ، والقارات المجهولة ، **لتصبح الحروب كما عرفت في القرن العشرين — وهي حروب اوروبية خالصة — عمليات منظمة للانتحار والقتل والافناء** ، هذه الشعوب الدول نفسها ، بعد خمسمائة عام أو اكثر من الفرقة والتمزق ، تتداعى الى الوحدة ، وتعود الى هذا التاريخ المكتوب بالخصومات والمطامع والمذابح لتفتش عن **وحدة الأصل ، والمنشأ ، ووحدة الهدف والرسالة ، ووحدة التطور والمصير .**

مدخل المثقفين الى المشهد

قال مثقف فرنسي — فيليب كونتامين — Contamine ، احد من رافقتهم في هذه الجولة وهو ينقر عن وحدة الأصل الاوروبي في المسيحية الاولى ان الحديث في تاريخ اوروبي مشترك ، يوجب السؤال عما هو التاريخ ؟ فاذا كان سيرة حروب وتعاقب عائلات مالكة ، فليس لأوروبة تاريخ مشترك حقاً . اما اذا اهملنا الاحداث كما اصطلح على روايتها ، وصعدنا الى القمم حيث الظاهر

الكبرى للمدنية والثقافة، والاقتصاد والمجتمع والفن، فاننا واجدون هناك، على مستوى ما، عناصر الوحدة .

ويتقر مثقف آخر (لوبيز ايبور) J. J. Lopez ibor عن مصادر هذه الوحدة، فيعود الى (فاليري) **في قول له بأن هذه المصادر ثلاثة : الفكر اليوناني، والنظام الروماني، وروح المسيحية** . ويضيف لوبيز مصدراً رابعاً **هو التيار الجرماني**، ينكره فاليري ولا يريد الاعتراف بأثره في تكوين الحياة الاوروبية . ومن طريف دفاع لوبيز عن الاثر الجرماني في التطور الاوروبي، "أن الشعوب الجرمانية قد اتت بالحرب حقاً ولكنها اتت بالاخصاب ايضاً . لقد اخرجت اوروبة عن كونها مدينة راكدة على شاطئ بحر عتيق . وان يكن (لوثر) قد حطم اواصر الوحدة التي كان بامكان المسيحية أن تشد بها اوروبة، فلم يكن بمكنة المجد الاوروبي الا ان يولد في حضن الحروب الاهلية، التي هي، فكرياً وسياسياً، تاريخ اوروبة الحقيقي . بل إن اوروبة هي شيء آخر غير المزيج المركب من ثقافات اليونان والرومان والدين المسيحي، شيء يضاف الى هذه الثقافات التي بلغت اوجها في اواخر القرون الوسطى، **هو القلق الذي دفع الاوروبي يومئذ الى نشدان اسلوب جديد للحياة، تحت حافز الملل، محرك الارادة الانسانية** . والشعوب الجرمانية قد رافقت هذه الحاجة الى التجدد والتطور والابداع، واسهمت في تكوين الطابع الاوروبي التدفقي .

التعمق في جوانب المشهد

اسوق هذه النماذج الفكرية من محاولات المثقفين الدخول الى المشهد الاوروبي، لأشير هنا الى تعدد المحاولات، واختلافها، وتضارب منازعها، وغناها في الوقت نفسه بحكم هذا التوزع والتنازع، بالافكار القوية الجلية التي تنصب كلها، مهما تباينت، على أن تنشر في الرأي العام الاوروبي **قناعة فكرية راسخة**، بأن اوروبة مهد لحضارة انسانية، ولثقافة مثالية وعلمية، لن ينقص من قدرها أن وجدت اوروبة نفسها ذات يوم في الصف الثالث او الرابع من سلم القوة السياسية في العالم الحديث، وأنها بفضل هذا التاريخ الماضي، ستستمر في المستقبل غير مؤمنة بأمثال (شبنغلر) من فلاسفتها في الحقبة الاولى من هذا العصر الذين قرروا بأن تاريخ اوروبة حركة افقية دائرية، من نشوء وتطور وانحطاط . **بل ان هذا التاريخ حركة عمودية مستمرة الصعود والارتقاء، مهما يكن من طبيعة هذه الحركة، ضعفاً أو قوة على درجات التصاعد** .

ويعترف (لوبيز) بأن الموقف الاوروبي من حركة التاريخ، موقف خوف واندفاع للخروج من سيطرة الخوف . **الخوف** من أن تسود الحياة البشرية نواميس الشروق والغروب، وتعاقب الفصول من ربيع الى خريف بحيث أن الماضي يتكرر في المستقبل **والتمرد على الخوف** باتخاذ موقف تاريخي يقوم على قاعدة الفكرة بأن التقدم مستمر وغير محدود . وبتعبير اوضح للفيلسوف الذي ترافقه.

ان الاوروبي قد جعل من (الحياة الاخرى) حياة يعيشها في حدود هذه الدنيا ، وفي هذه الحياة الدنيا رغبات في الامتداد لا حدود لها .

ان الاوروبي ، يقول لويز ـ لم يعش قط على حدود الدفاع ، بل كان ابداً على خط الهجوم وللمرة الاولى يقف اليوم مدافعاً على منعطف الطريق ، حيث يظن أن المدنيات الى زوال ، وهي تحيى وتموت كما يحيى الأفراد ويموتون . وقد تكون لهذا العالم نهاية ، ولكنها ليست نهاية اوروبة ، الا اذا كانت نهايتهما معاً !

ان الاوروبي رومانيا ، كالاوروبي مسيحياً ، عاش وتطور بقدرته على الامتصاص والتمثل ، فازدادت بهذه القدرة قدراته وطاقاته . وقد اعطت روما مثلا رائعاً على قدرة التمثل بأن التزمت بآلهة اليونان من قبلها . كذلك المسيحية ، قد ادخلت عليها القيم الكلاسيكية وتبنتها ، وهكذا فان اوروبة جربت دائماً تلبس جميع اشكال الحياة ، وجميع تجارب الانسان .

الدين مسيحي ، والنظام اقطاعي

واعود ثانية الى محاولة الكاتب الفرنسي (كوتامين) البحث عن مصادر الوحدة الاوروبية في المسيحية ، مع زملاء له من المؤلفين الذين اخرجوا المكتبة الاوروبية حديثاً مجموعة من المحاولات والدراسات المتنوعة في الموضوع ذاته .

ففي السائد من هذه الآراء والبحوث أن لفظ (اوروبة) اصطلاح جغرافي ، لم يكن ممكناً اعطاؤه أي معنى بشري قبل استقرار الشعوب الكثيرة التي عبرت القارة ، وارتباطها بعضها الى بعض مع الزمن المتقادم ، بشيء من رابطة الثقافة والمصير المشترك . وليس الا بين القرن الخامس والقرن الحادي عشر ، تكونت ببطء تجمعات الشعوب الاوروبية ، وتكون لهـا مع القرن العاشر ، نوع من التاريخ المشترك .

ومما يذكر من شواهد الترابط والتماثل في اوروبة بعد القرن العاشر أن النظام الاقطاعي وجد في جميع انحاء اوروبة ، كنظام حكم وحياة الى جانب قيام الكاثوليكية وشمولها ، ومنحها الشعوب التي تدين بها لغتها اللاتينية ، وطقوسها واديرتها ، الى جانب انتقال الفن القوطي في القرن الثالث عشر بين الجهات الاوروبية البعيدة والقريبة وبصم الفن العمراني بطابعه كذلك كانت مواضيع التعليم متقاربة ، واساليبه ووسائله متماثلة اينما كان من براغ الى كويمبر ، ومن ساليرن الى اوكسفورد ، وكانت باريس ـ كما يقول كوتامين ـ اثينة القرون الوسطى ، حيث يتجمع الفلاسفة وعلماء اللاهوت ويتوافدوا من كل حدب وصوب ولا ينسى كوتامين أن يضيف دليلاً آخر على وحدة المناخ والمصير في اوروبة في ذلك الطاعون الاسود ١٣٤٨ ـ **الذي كان وباء أوروبياً خاصاً** إذ فتك بثلث سكانها وقضى على مرافقها بالشلل العام .

على أن المهتمين بمصادر التاريخ الاوروبي

المشترك لاينكرون اجمالاً ، **برغم قيام الاقطاع الواحد ، والكاثوليكية الواحدة ،** أن لفـظ اوروبة ، لم يرد حتى القرن السادس عشر إلا في مشاريع رسامي الخرائط . واذا كان للكاثوليكية من حساب في تقرير الحياة المشتركة ، فلم يكن ذلك ليدرك في حينه كحدث اوروبي ، بل قد جاء الرواة والمؤرخون والباحثون من بعد ، ليربطوا مصير مجموعة من الشعوب بالحدث الاهم من علاقة الدين بالحياة العامة وهو حدث الحروب الصليبية : **تلك الحروب التي لم تكن لتحظى في حينها باهتمام الباحث ، لأنها كانت في الاعتبار العام مجموعة من المغامرات الفاشلة ، والانتفاضات المحمومة .**

قليل من الحذر والتحفظ

ويدرك (كوتامين) أن الاستشهاد بالتاريخ لربط الشعوب الاوروبية القديمة بوحدة مصير ، ضعيف وقابل للنقض على الصعيد الفكري والسياسي ، فيقول بعدم جواز التورط الا بحذر وتحفظ . إلا ان استقراء التاريخ العام ، **يمكن أن يدل في اقل الدلالات على أن المصير الاوروبي حدث متميز عن المصير الاسيوي ، او الافريقي أو الامريكي** _ وفي هذا بعض العزاء للمنقر في التاريخ _ فهل يفيد ذلك الماضي ، في اعداد المستقبل وتأكيده . والى اي حد ؟! كذلك ماذا يفيد اوروبة العصر الحديث ، أن يدرس تاريخ شارلمان وشارل كنت ، ونابليون في محاولات توحيد اوروبة ، على الصعيد الديني ، او على الصعيد السياسي والعسكري ؟! وهل تلك الحجارة الساقطة من ابراج التاريخ القديمة ، قابلة لأن يبنى بها بناء جديد ،بناء المستقبل ؟ !

ان بعض المتعصبين لتاريخ وطني او ديني ، فرنسي او انكليزي ، او الماني ، كاثوليكي ، او بروتستانتي ، قد يحاولون تجديد الدعوات القديمة او الاسترشاد بها ، فهل من شأن هذا المجهود الفكري على الصعيد التاريخي أن يضع بين ايدي البنائين الجدد مواد صالحة للبناء ؟! إن اعظم ما انتجته اوروبة وابدعته في مشامير التقدم ، خلال الاربعمائة عام الاخيرة ، قد تم في التجاذب والتناحر والثورات والحروب . كان الاوروبي ينيخ على الاوروبي ليذبحه ، وكانت الدولة ترتمي على الدولة لافنائها وإبادة سكانها . وكانت الحربان العالميتان الاخيرتان مجزرتين بشريتين اوروبيتين على المستوى الوحشي الذي يليق اولا يليق بحضارة الحديد والنار ، حضارة الترف والنور . فاين المذابح بالاظفار والاسنة من الشعور العام بالحياة المشتركة والمصير المشترك . وماذا يجدي الأوروبي أن يجدفي ،ساقط تاريخه ، سيادة نظام الاقطاع ، وشمول الحروب الصليبية ، وانتشار الطاعون وفتكه بثلث السكان ، منذ ستمائة اوثمانمائة عام ؟!

انهـا محاولات جدية على كل حال يرمي بهـا المثقفون الى تعزيز الوعي الاوروبي بضرورة الوحدة . وما لم تستغل هذه المحاولات وبساء استعمالها ، فانها غنيمة ثقافية ثمينة جديرة بأن تغني التاريخ وتكشف الكثير من مجاهله ،

ضوء العلم ، وارادة الشعوب في التقارب والتعاون ، واختراع المبررات الدافعة لربط مصاير الشعوب والدول .

التاريخ الفعلي لمطلب الوحدة

في المرحلة الثالثة من هذه الجولة ، بعد مرافقة (لوبيز) و (كوتانين) ، الاول في ايضاحه عبقرية الاوروبي في الابداع والاستجابة للحدث ، وفي المغامرة الجريئة التي لا حدود لدنياها الأرضية الخالدة المتطورة ابداً ، والثاني في سفرته الشاقة الى منابع التاريخ ، حيث الاقطاع والدعوة الى الصليبية عنصران من عناصر الوحدة الاوروبية العتيقة — في المرحلة الثالثة نجول مع مثقف فرنسي ، اقل طموحاً ومغامرة على ما يبدو ، واقرب الى الواقع البشري ولعله اثقب نظراً — لانه ينظر الى القريب — واصفى ذهناً ، هو المؤرخ والباحث الفرنسي مدير المركز الاوروبي للثقافة في جنيف دونيز دوروجمون Denis -de- Rougemont —

يقول (دوروجمون) ان اوروبة في سبيلها الى وحدة سياسية ، لايهم مايكون شكلها : تحالف دول ، أم اتحاد ، أم وحدة — بل المهم أن تستجيب اوروبة لدعوة العالم لها وان تسمو الى شاهق رسالتها الانسانية . واذا كانت الوظيفة هي التي تخلق العضو ، فان رسالتنا الوظيفية يتبع الحافز الرئيسي الى ان تتجمع قوى دولنا المبعثرة ، **لتحقق لاول مرة في التاريخ كامل طاقتنا القارية .**

وجميل هذا التعريف بأن الوحدة سبيل الى تحقيق كامل الطاقة الجماعية ، وأن يتم ذلك لاول مرة في تاريخ اوروبة ، من أجل العالم الذي هو بحاجة الى المشاركة الاوروبية .

ثم بكلمات مختصرة يلخص الكاتب ويحدد منشأ الوحدة الاوروبية ، اذ يقول انه خلال الخمس عشرة سنة الاخيرة ، بينما كانت الدول الاوروبية تفقد امبراطورياتها ، بدأت تسير في طريق الوحدة . **ففي الفترة الواقعة بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٦٢ جرت عمليات متتابعة لتصفية الاستعمار الاوروبي ، بينما كانت تتم مراحل المجهود المشترك من اجل وحدة اوروبة . وعندما تتحرر آخر جزيرة في ابعد بحر ، سيكون قد نشأ لاوروبة بالتوازي ، عدد متكامل من المؤسسات السياسية الوحدوية .**

على أن المؤلف لايريد أن يعترف في دراسته ، بأن حل الاستعمار الأوروبي ، سبب مباشر لبلوغ المحاولة الوحدوية ، حتى لايقلل من شأن الوحدة ، كمطلب مثالي ، وهو بذلك انما يتعصب لاوروبيته على الرغم من موضوعيته وايجابية دراسته . بل يريد ان يغرس محاولة الوحدة في القرن التاسع عشر عندما قام مجموعة من تلامذة روسو — كما يقول — من بنتام الى هردر ، الى فيخته ، يصفون الاستعمار بانه خطيئة مميتة ، ويحذرون الدول الاوروبية من ان يؤدي التنازع على المستعمرات الى اصابة الجسد الاوروبي بالتصدع والانحلال .

هذه واحدة . أما الثانية فان (دوروجون) يريد أن يخلع على التنازع الاستعماري الذي تجلى في حربين عالميتين ، بعض الفضيلة في أن الحربين الاولى والثانية – مهما تكن اهدافهما المادية – قد حملتا الى الشعوب الملونـــة ، شعوب العالم الثالث ، دعوة الحلفاء الى التحرر وحق تقرير المصير ، بينما انعكست آثار هاتـين الحربين على الدول المتحاربة بأن سادت اوروبة نزعة متفاقمة ضد العصبيات الوطنية التي لم تكن تجني لاصحابها سوى الشر والوبال . ومن هذه القناعة نشأت كما يقول الـكاتب ، مشاريع الوحدة .

ان التوسع الاستعماري ، مهما تكن جريرته، قد ايقــظ الشعوب في آسية وافريقية والشرق الادنى ، وأخذ بيدها ، – دون عمد احياناً الى اكتشاف رزوحها تحت نظم حكم تقليدية جائرة طفقت تدعو الى التحرر منها ، وبعمد في احيان أخرى عندما كانت الدعوات الاوروبية الى الحرية والمساواة، تبلغ مسامع تلك الشعوب، فتستجيب لها كل الاستجابة ، وتحرك وطنياتها وعصبياتها ،منجرفة في نفس التيار الأوروبي بشكل تأجج عصبياته الحمقاء . **ولقد كان من جراء انتقال حماقاتنا الوطنية ،وأفكارنا الحرة معاً** الى الشعوب التي نحاربها، أن نهضت تطالب بالحرية لبلادها ، وبالسيادات الوطنية لدولها .

أما ماذا حدث للدول الاوروبية المتنازعة اثر حروب طويلة دامية ، في قمتها الحربان العالميتان الاخيرتان ، فانها قد اشرفت على الانهيار والافلاس فقامت تكشف اوراق المغانم والمغارم ، وتتطلع بندم وخيبة ، الى رأي عام عالمي ، ليس يطيق بعد اليوم ، حروباً سافرة من أجل الغزو والنهب والتسلط الخاسر . بينما قد استفاقت شعوب الارض على قرع النداءات الاوروبية المتكررة في الحرية وتقرير المصير ، والمساواة بين الناس والاجناس. **ثم قد ادركت هذه الدول المتحاربة مالم تستطع ادراكه منذ ستمائة وخمسين عاماً ، أنها يجب ان تتوحد ، بدلاً من ان تتنازع وتبيد .**

لقد ادركت الدول الاستعمارية، حقيقة مصيرها ، بعد ستمائة وخمسين عاماً .. !! هذا مايقوله الـكاتب الفرنسي الذي نرافقه في هذه الزاوية من الموضوع . فاذا كان بلوغ الادراك ، لدى دول الذكاء والابداع بطيئاً الى هذا الحد ، **فليس ثمة مايدل حقاً على اي ذكاء واي ابداع .**

ولقد كان من الانصاف ان يقول الكاتب أن الدول الاستعمارية قد استفاقت متأخرة ، تحت قرع القبضات البشرية الحانقة ، تفل الحديد ، وتبطل سحر القوة ، فاصبح الاستعمار ، عملية اقتصاديـة فاشلة ، بعد أن غدا الإثم في كفتي الميزان اثقل من غلة الإثم . وسواء بعد اثارت الشعوب المقهورة بفعـل الشعارات المستوردة من الغرب ، أم هو الألم الكبير الذي حرك عاصف الثورة ، وانضج الجلاميد في قاعات البراكين ، **فان الدول الاستعمارية الاوروبية لم**

ترفع سكينها عن عنق الفريسة قانعة مختارة ، بل قد التوت بين اصابعها السكين ، واصبح السلاح عبئاً على ظهر الاستعمار ، وتفجروا في احشائه ، وغزقا في انظمة سياسته وحياته .

العقدتان الاوروبيتان

لست مستطيعاً أن انقل او ان الخص كل بحث الكاتب (دو روجمون) ، وهو كما قلت يكاد يقترب من الواقع في عرض المعضلة الاوروبية ، لولا أنه كأوروبي ، صاحب عصبية اوروبية ، وصاحب عقدة ايضاً ، لايريد أن يعترف بالواقع كل الواقع ، حفاظاً على سمعة المدنية الرفيعة التي يفاخر كل اوروبي بالانتساب اليها ، وحرصاً على مستقبل العلاقات الاوروبية مع العالم الكبير ، وعلى الأخص مع شعوب العالم الثالث .

يصب المؤلف الفرنسي على هدفين:

١ — ان الاستعمار جريمة ،ولكن حصاد الاستعمار في المستعمرات ليس رذائل كله ، بل لابد من الاعتراف بفضائله ومزاياه ـ ويعددها كما سنرى ـ

٢ — أن اوروبة ليست قوة ثالثة في العالم ، كما يزعم اليوم ، بل هي قوة اولى ، وستبقى على رأس رسالتها الحضارية الموجهة ، اذا هي استمرت في طريق الوحدة .

ويلمح المطالع ، في هــذا البحث المتمكن ، المتمسك بالهدوء ، والبسط العلمي ـ على الرغم من المؤلف ـ أن المثقف الاوروبي الذي يحاول اللحاق بالموكب العالمي المتطور بنبــذه شرعة الاستعمار ، وبتأكيده الوجود الاوروبي الفعال في العالم ، انما يعاني عقدتين : **الشعور بالذنب والشعور بالنقص ، في وقت واحد معاً . فالعقدة الاولى واضحة المعالم مع شيء من التقنع في دفاع الاوروبي عن مزايا الاستعمار ، اذ ليس الاستعمار اثماً كله . والعقدة الثانية في المفاخرة بالمجد الاوروبي ، وبالقــدرة على استمراره ،بين عملاقي الزمن الحاضر: العملاق الروسي ، والعملاق الامريكي.**

في مجال الدفاع عن بعض مزايا الاستعمار الاوروبي ، تحت ايحــاء العقدة ، عقدة الذنب يكتب المؤلف ، بقلم يريده عادلاً صفحة لامعة عن محاسن الاستعمار ومفاسده .

هذه المدنية الاوروبية ـ يقول المؤلف ـ اعتبرت مسؤولة عن حق أو عن باطل عن كثير من السيئات وكثير من الحسنات . وهذا لايمنع من القول بانها المدنية الوحيدة التي ا كدت قابليتها للتنقل والتمثل خارجاً وبعيداً عن اصولها العرقية، أو السياسية ، أو الدينية . كذلك فانا نعرف كيف تم نشرها ، منذ عصر النهضة ، بوسائل ليست كلها مسيحية . لقد قامت بالحملة جماعات مختلفة

مدفوعة بمختلف الطموحات ، من مبشرين الى متاجرين ، الى سياسيين ومغامرين ، بلا خطة ولا نهج ، منذ القرن الحادي عشر حتى القرن التاسع عشر ، **فأسس هؤلاء في جميع القارات كنائس ومحاسب ، مدناً وصناعات ، مدارس ومزارع ، جرائد وبرلمانات ، واستقبلوا كآلهة احياناً ، وفرضوا انفسهم بالقوة احياناً اخرى . وسواء أكانوا يريدون انقاذ الروح ، ام استغلال المناجم ، فهم قد قهروا ، ومدنوا ، ونهبوا ، وعلموا الانجيل ، وتاجروا بالرقيق ، وفتحوا المستشفيات ، ونشروا المبادىء الانسانية التي لايمارسونها هم انفسهم . وبلا تحفظ ابداً كانوا يحررون شعوباً من حكام ظالمين تقليديين بينما يسجنون كل من خالفهم أو عاداهم :**

وكل هذا ، يجمع اليوم في اصطلاح واحد يسمى الاستعمار . وبعد فليس اظلم من عدم تذكر أي أثر له ، سوى مظالمه.

ثم يقول المؤلف ان مناقشة الحساب الختامي فيما للاستعمار وما عليه لم تتم بعد . ماذا ؟ ! لن يكون الحساب سلبياً . انها ضريبة التقدم في شرعة الغرب ، وهي شرعة يطبقها اولئك الذين يتهمون الغرب انفسهم !

ثم يؤكد الكاتب محامي الدفاع ، الذي يشعر مثل أي اوروبي بشعور الذنب ، أن الثقافة الغربية لن تخرج من حيوات الشعوب بخروج الاستعمار ، بل ستدخل من جديد وتسود ، ويقوم لها وللحضارة الاوروبية ومثلها انصار واصدقاء واهل .

طبعاً ، كل هذا ، اذا توحدت اوروبة ، ورعت رسالتها ، ونافحت عن وجودها وبقائها .

فاذا جاء مجال الكتابة تحت وطأة العقدة الثانية عقدة الشعور بالنقص ، راح الكاتب يعدد ويعرض جوانب القوة الاوروبية ، مقارنة ، على الأخص ، بقوتي العملاقين الكبيرين من يمين ومن شمال :

١ ـ ان اوروبة الواقعة غربي الستار الحديدي تعد ثلاثمائة وثلاثين مليوناً من السكان ، اذا اضيفت اليها شعوب سبع الدول الاوروبية الخاضعة للاتحاد السوفييتي ، وعدد سكانها يقرب من الخمسة والتسعين ، **بلغ مجموع سكان اوروبة اربعمائة وخمسة وعشرين مليوناً ٤٢٥ مليوناً ـ بينما لا يؤلف الاثنان الكبيران سوى اربعمائة مليون ٤٠٠ مليون ـ أو اقل .**

٢ ـ فاذا اضيف الكيف الى الكم ، وعرفنا أن في اوروبة **افضل الفلاسفة ، وافضل العمال ، وافضل الفنانين** ايقنا انه من العجيب الادعاء بأن اوروبة تشعر بانسحاقها بين العملاقين وضياعها . ولو ركب العملاقان احدهما

فوق الآخر ، طولا ، لما بلغا قامة الاوروبي ، مع الاشارة دائماً الى أن قوة الواحد لن تضاف الى قوة الآخر ضدنا .. لان أحدهما معنا ..

٣ - ثم ان اوروبة تشغل المقام الاول في انتاج الفولاذ ، والحديد ، والفحم والاسمنت ، والزبدة والحليب

- وهي مواد الحياة الأساسية - بينا يأتي الكبير الامريكي في الصف الثاني ، والكبير السوفييتي في الصف الثالث .

٤ - اما في انتاج العلماء ، فان عرضاً بسيطاً لعدد الحائزين على جائزة نوبل منذ عام ١٩٠١ ، عام تأسيس الجائزة حتى اليوم ، يضع اصابعنا على اليقين : **روسيا وملحقاتها = ٩ متوجين ، امريكا = ٥٢ ، اوروبة الغربية = ١٤٧ بلاد اخرى = ٨**

انت مواطن اي امة ؟!

ثم يتابع المؤلف مفاخرته بأوروبيته هكذا :

ستقول لي عندما تطلع على هذه الارقام انها أرقام مبهمة غامضة وانني احس دائماً بأنني منسحق بين العملاقين !

- هذا صحيح ! والسبب هو أنك لا تشعر بعد ، بأنك مواطن امة عدد سكانها ٣٣٥ مليوناً ، أو ٤٣٠ مليوناً بل انت مواطن دولة صغيرة ذات خمسة ملايين ... عشرة ملايين ... او خمسين مليوناً ، وهي دولة بكل اسف ، ليست على قياس العالم الجديد . ان شعورك بالانسحاق ناجم عن ان اوروبة الكبرى لم تتألف بعد ، ويجب تأليفها ، لنحقق كامل طاقتنـــا الجماعية ليس بالأرقام فحسب ، بل بالشعور ايضاً .

المثقف الاوروبي

ومهما يكن من أمر ، فان المثقف الاوروبي ، على تعقده ، طفق يؤلف شخصيته الاوروبيـة الكاملة ، فوق شعائره ومشاعره الصغيرة ، وطفقت فئات كبيرة من الشباب على الأخص ، تنتسب الى اوروبة انتساباً وجدانيا ، وفكريا ، بلا حرج من تقاليد او محيط او تربية ، لأن هذه الاجيال الجديدة ، تكره أن تقرأ تاريخها ، وتنتسب لخصوماتها ومذابحها ، وينحر الملايين من الفرنسيين من امجاد (فردان) ، ويدهش الملايين من الالمان لانجراف آبائهم وراء دعي مجنون يدعى هتلر .

وانا لنرى في (دوروجون) الذي نرافقه اليوم نموذجاً للاوروبي المثقف ، الذي طفق بكل خبرة وذكاء وصدق ، يدعو الى قومية اوروبية تتهافت أمامها الدعوات العصبية الوطنية الصغيرة **وهو في نقطة من منعطف بحثه ، يشير الى ن أسوأ مرض نقل بالعدوى ، من الغرب الى الشعوب الملونة ، هو العصبية**

الوطنية الضيقة ، التي كانت حقاً في أساس الكثير من المجازر والحروب والفتن في أوروبة . وان من بعض رسالة اوروبة الى شعوب المستقبل ، رسالة التجربة الدامية الطويلة، أن تتفوق هذه الشعوب على ذاتها، وتسمو فوق عصبياتها وعنعناتها .

أين العبرة ؟!

عندما كنت أكتب آخر صفحات هذه الجولة كانت ثلاث وثلاثون دولة افريقية تعلن من أديس أبابا ، ميثاق المجموعة الافريقية ، وفي اول بنود الميثاق دعوة الى العمل المباشر من اجل الوحدة، وفي بعض البنود ، انشاء فوري لبعض مؤسسات هذا التجمع الانساني الرائع .

أما وقد انتهى شوط هذه الجولة في الحديث عن (الوحدة الاوروبية) ، فانني اكاد اطمئن الى انني قد عرضت من نماذج القول والبحث ، ما يصح أن يكون لنا نحن الامة الواحدة ، درساً في كتابة التاريخ ، وعبرة في انشاء الكيان.

كيف بدأ الاوروبيون يكتبون تاريخهم ؟! كيف يدأبون على الانتفاع من الحصاة الصغيرة ، ليضعوها في أساس البناء الكبير . كيف يثبتون بوباء الطاعون ، وحدة المناخ ، كيف يحاورون الواقع ، ويدورون على التاريخ، ليؤكدوا اصالة شعور قومي جديد ، هو بحاجة ماسة الى قناعات فكرية ، لاتقوم المحاولات السياسية ولا تستمر دونها . ثم كيف هم مسرعون في تحقيق رجائهم العظيم .